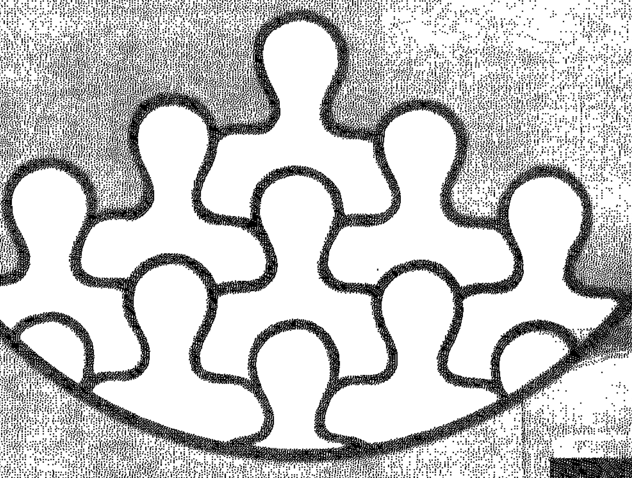
برتراند راسل

أسس لإعادة البناء الإجتماعي



ترجمة
د. ابراهيم يوسف النجار

أسس لإعادة
البناء الاجتماعي

الطبعة الأولى

1407 هـ ـ 1987 م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

ـــ بيروت ـ الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف . ٨٠٢٤٢٨ ـ ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٢٩٦

ـــ بيروت ـ المصيطبة ـ بناية طاهر هاتف . ٣٠١٠٣٠ ـ ٣١١٣١٠
ص . ب : ٦٣١١ / ١١٣ تلكس . ٢٠٦٦٥ LE ـ ٢٠٦٨٠ لبنان

برتراند راسل

أسس لإعادة البناء الإجتماعي

ترجمة
د. إبراهيم يوسف النجّار

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

مقدمة المترجم

سأكتفي في هذه المقدمة بذكر بعض الاسباب التي دعتني الى ترجمة هذا الكتاب . وسأعرض لبعض محتوياته فقط من باب تعليل تلك الاسباب ، تاركاً المجال امام القارىء كيما يكتشف قيمة هذا المؤلف بنفسه . والكتاب هذا يبسط صفحاته امام قراء مختلفي المشارب والاهتمامات . فمن يهتم بتحرير المرأة يجد بحثاً عن اسس مساواة المرأة والرجل ، ونتائج تلك المساواة على رقيّ المجتمع وتحديد العائلة واللذة في العلاقات اللطيفة بين الجنسين . ومن يهتم بالتربية يجد نقداً للتربية المعاصرة وبحثاً عن أسس تربية تتمشى والقرن العشرين وتقود الى الحرية والسعادة . ومن يأخذ على الدين مآخذ شتى يحظى بدراسة عميقة لمعنى الدين وعلاقته بالاساطير والخرافات وبالابعاد العميقة للنفس الانسانية المتعطشة للحب والمعرفة والتعاطف . ومن تثير الحرب مشاعر وشكوكاً في نفسه ، يجد تحليلاً كافياً لها في فصل « الحرب كمؤسسة ». بالاضافة الى هذه المواضيع يبحث راسل(1872 — 1970 B. Russell) عن العامل المشترك الذي يربط هذه المسائل الاجتماعية بعضها ببعض ويجعلها مطالب ضرورية لنمو كل انسان والرباط هو الدولة او علم السياسة .

يدرس راسل السياسة الدولية كما شهدها إبّان الحرب العالمية الاولى ويخلص الى استنتاجات هامة يُفترض بكل انسان معاصر ان يطلع عليها ويناقشها . وهذا ما يجب على القارىء استخلاصه . ولكن في معرض هذه المقدمة ، يجب ذكر النتيجة الاكثر اهمية التي توصل اليها راسل وهي

ان الانسان كائن نام ،كالنبات، والمؤسسات الاجتماعية ، سياسية كانت ام تربوية ام دينية ، يفترض بها ان تفسح مجال النمو امام الانسان لا أنْ تعيقه . وأساس هذا النمو هو أساس شخصي فردي . لكل انسان ميزته الخاصة في النمو ولا ينتظر من المؤسسات السياسية وبشكل خاص من الدولة أنْ تحدّد تلك الميزة الشخصية أو أن تعيقها أو أن تفرض على الافراد نمطاً موحّداً من النمو . وبحث هذا الاستنتاج وتحليله وتبريره هو شريط فكري رائع مبني على حجج وبراهين عقلية وعلمية تجعل الكتاب رائعة فكرية يطيب للقارىء ذي الميل النقدي الاستمتاعُ بها ومناقشتُها .

الاسباب التي دعتني الى ترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية كثيرة . ولكن اهمها هي اولاً مشاركتي لراسل الاستنتاجات التي توصل اليها في هذا الكتاب واعتقادي بأنّ تعليلاته لتلك الاستنتاجات صحيحة ومنطقية . وثانياً انعدام هذا الكتاب من المكتبة العربية . لقد تُرْجمت بعض كتب راسل الى اللغة العربية ، كالسلطة والفرد ، والزواج والاخلاق ، وكيف تطورت فلسفتي وغيرها ، ولكن الكتاب البالغ الاهمية الذي هو المنبع لكثير من الافكار الواردة في تلك الكتب ، بقي بعيداً عن متناول القارىء العربي . ولهذا قرّرتُ الشّروع بترجمته آملاً أنْ تعطي ترجمتي الابعاد الفلسفية لافكار راسل المستترة وراء لغة ذلك الفيلسوف المنطقي الشهير والانسان المتعشق للحرية تعشّقاً دفعه لمقاومة الطغيان السياسي والاستزلام الفكري .

ارجو ان يلاحظ القارىء في هذا الكتاب اسلوب راسل ومنطقه . فأسلوب راسل اولاً ، لغوياً ، سلس جداً وسهل إذْ يخاطب مجموعة كبيرة من القرّاء المختلفة ثقافتها ، وثانياً انه منطقي للغاية اذ يحشر راسل كل فكرة على حدة ويردها الى أصول اولى بغية تجريدها عن كل تناقض

وتلكلكِ فكري ثم يثبتها الى جانب بعضها افكاراً تمّتْ تنقيتُها وانتظمت في حلقة منطقية مؤدية معنىً صحيحاً يصلح لان يكون أساساً للعمل السياسي والاجتماعي ومنطلقاً يحمي التصرّف الشخصي الحر ويذود عن الاكتشافات العلمية والابداع الفني . كما ارجو ألّا يغيب عن نظر القارىء منطلق راسل في البحث الذي يشكك في الخلفيات الغيبية والقَبوليّات الحتمية التاريخية . يبدأ راسل من الانسان الكائن المنظور الذي ينمو ويتطور ويتغير . ويبحث عن اسباب هذا النمو ومقياسه . فيجدهما في الرغبة والميل . ثم يبحث عن ماهيّة العقل والروح وعلاقتهما بالرغبة والميل . يخلص راسل الى ان تطورهما يتم من خلال نمو الرغبة والميل . واذا ما كُبِتَتْ الرغبات وحُصرت الميول ، أضحى العقل هزيلاً والروح مشوهة . اساس العقل اذن هي حياة الميول والرغبات ، والفلسفة السياسية التي تُهمل هذا الاساس تكون قد فقدت الجزء الاكثر اهمية في الحياة السياسية . ولماذا هذا الجزء هو الاكثر اهمية ؟ وما علاقته بالسياسة المبنية فقط على الاقتصاد ؟ هذه أسئلة يجيب عنها راسل تحت باب الاخلاق وعلاقتها بالسياسة . ومن لم يكتف بالاجوبة الواردة في هذا الكتاب ، يرجى منه ان يتابع بحثها في كتب راسل الاخرى أمثال **المجتمع الانساني في السياسة والاخلاق، والقوة ، والزواج والاخلاق .**

بقي أن ألّمح الى عنوان هذا الكتاب : **أسس لاعادة البناء الاجتماعي .** أنا اعتقد بأن التفكير السياسي في بلدان العالم كله لا يستطيع أن ينمو في عزلة عن بعضه البعض . والخبرة السياسية تقتضي الاطلّاع على نظريات وآراء كل المفكّرين السياسيين كما تقتضي الدبلوماسية الدولية التعرّف على كل بلدان العالم اذا أمكن . ونحن في هذا الجزء من العالم حيث يقدّم باستمرار كثيرٌ من سياسيينا اقتراحات

جديدة وكثيرة لإعادة البناء السياسي والاجتماعي يجدر بنا ان نستعدّ لمناقشة ودراسة تلك الاقتراحات على ضوء اقتراحات ونظريات نكون قد حللناها سابقاً إما في جامعاتنا او معاهدنا واما في دوائرنا السياسية والاجتماعية . وهذا التحليل يجعلنا نقبل او نرفض كل اقتراح للتغيير السياسي ، ويجعل قبولنا او رفضنا متنوّراً متفهماً ومنطقياً كما يجدر بكل تغيير أن يكون .

ولي نظرة أريد أن أصارح القارىء بها . فأنا لست بمترجم محترف ولا بطالب أدب مع احترامي الكامل لهذين الحقلين . وراسل نفسه لم يكتب هذا الكتاب إلا لهدف واحد ، هو بحث بعض الأفكار الضرورية لأي نظام اجتماعي . وغاية هذا البحث هي الإفهام والإقناع . ولذا عمدت في ترجمتي هذه الى نقل هذه الغاية سليمة . كما اني استخدمت بعض الكلمات العامية التي بدا لي أنّها تؤدي المعنى بشكل اكثر مرحاً وحيوية . فلهذا أرجو ان يستريح القراء الى هذه الاستخدامات اللغوية لأن في الفلسفة الحديثة ، التي يعتبر راسل ركناً من أركانها الأول ، لا يُرفَض استخدام لغوي طالما انه يؤدي معنىً صحيحاً وواضحاً . ولهذا فاني أتمنى على الفلسفة العربية ان تؤثر ما هو حي ومستخدم في اللغة العامية على ما هو جامد وميت في لغة مستخدمة للزينة .

بالمناسبة أريد أن أشكر السيد جان سليتر John Slater والسيد كانث بلاكويل Kenneth Blackwell والسيد سامي نجم لتشجيعهم لي ومساعدتي في فهم بعض أفكار راسل الاساسية . كما أشكر الآنستين تاري سالت Tery salt وفايث هيرمان Faith Hermann والسيد نيجل ريفز Nigel Reeves للاحظاتهم المفيدة . لولا تشجيع هاذر كيركانيل Heather

Kirkconnell المستمر لما أبصرت هذه الترجمة النور . كما اشكر أختي نصرا لطبعها المسوّدة على الآلة الكاتبة ، وأهلي لتهيئتهم لي الجو المناسب لمراجعة الترجمة بهدوء .

ابراهيم يوسف النجار
دده ، الكورة (لبنان)

توطئــة

كُتِبت المحـاضـرات التـاليـة في سنـة ١٩١٥ وأُلقيت في مـطلع عـام ١٩١٦ . لقـد رغبت في اعادة كتـابتها عـلى نحو آخـر بحيث تظهـر اكـثر ملائمة للموضوع الأساسي ، ولكن اعمالاً أخـرى ، أدعى الى الحاجـة ، حالت دون ذلك . ويبدو الأمل بوجود مناسبة مـا لمراجعـة هادئـة ، طفيفاً جداً .

كان هدفي من ذلك هو اقتراح فلسفة سياسة مؤسسة على الاعتقاد بأن للدافـع الغريـزي تأثيـراً في تكييف حياة الانسـان اقوى من تـأثير القصـد الـواعي . يمكن ان تقسم اكـثر الـدوافـع الغـريـزيـة الى مجمـوعتـين : الإستملاكية والإبداعية . ينطبق هذا التقسيم عـلى الأشياء التي نـرغب في اكتسابها او الإحتفاظ بها فيما لو كـانت قابلة للمشـاركة ، كـما ينطبق عـلى الأشياء القيّمة التي يمكن أن نبدعها في العالم ، كالمعـرفة أو الفن او الارادة الحسنة حيث الامكان لـلامتلاك . انـا اعتبر ان الحيـاة الفضلى هي الحيـاة المبنيـة عـلى الـدوافـع الابـداعيـة ، وأمـا الحيـاة المبنيـة عـلى الـدوافـع الاستملاكية ، فاني اعتبرها الدنيا . ان المؤسسات السياسية الـرئيسية التي تتجسد فيها الدوافع الاستملاكية هي الـدولة والحـرب والملكية الخـاصة . ومن المفترض بالتربية والزواج والدين ان تجسد الدوافـع الابداعيـة ـ وهي تفعل ذلك الآن ولكن على شكل رديء تماماً .

انا اعتقد أنَّ من الواجب ان يكون اطلاق عنـان الدوافـع الابداعيـة أساس الاصلاح في السياسة والاقتصـاد . وهذا هـو الاعتقاد الـذي قادني الى كتابة هذه المحاضرات .

الفصل الأول

عنصر النمو

لقد اضْطَرَّتْ الحربُ كلَّ من تستطيع نفسه ان تتحسس انطباعات جديدة ، وتقدر على التفكير في منطلق جديد ، الى اجراء بعض التعديل في معتقداته السابقة وفي آماله . يتوقف نوع ذلك التغيير على الفرد والظرف ، اما التغيير بحد ذاته فكان شاملاً بوجه أو بآخر . ان الشيء الرئيسي ، بالنسبة لي الذي تعلمته من الحرب هو نظرة خاصة عن منابع العمل عند الانسان . ما هي وما يمكن ان نتصور صيرورتها بصورة حقيقية . يمكن لتلك النظرة ان تهيىء ، فيما لو كانت صائبة ، أساساً لفلسفة سياسية ذات قابلية اكبر للصمود في اوقات المحن من الفلسفة الليبرالية التقليدية . ان المحاضرات التالية ، على الرغم من ان واحدة منها فقط تعالج مسألة الحرب ، هي حصيلة تلك النظرة التي اوحتها لي الحرب عن منابع العمل في الانسان . يطبع هذه المحاضرات أمل لرؤية مؤسسات سياسية في اوروبا تجعل الناس يقرفون من الحرب . وانا اعتقد ان هذا الأمل ممكن التحقيق على الرغم من انه لا يتم الا مع تغيير جوهري كبير للحياة الاجتماعية والاقتصادية .

فمن المحتم على من يقف خارج دائرة الاعتقادات والدوافع التي تجعل من الحرب شيئاً حتمياً ، ان يجد نفسه في عزلة قاتلة او بالحري في انفصال شامل عن النشاط العام . وفي اللحظة التي تُحرِّك فيها الكارثة

العالمية اقصى درجات الشفقة ، تجد السفقة نفسّها مدعوةً للترفع عن الميل الى تدمير الذات ؛ المتشر في جميع انحاء اوروبا .

يجعل الميل العفوي ، الى تجنيب الانسان الهلاك الذي يسرع نحوه ، الوقوفَ في وجه التيار ضرورياً . ولكنه يجلب العداء والاتهام بعدم الشعور . وفي هذا الوقت يسبب خسارة المقدرة على الاقناع . إذْ من المستحيل ان يستطيع المرء ان يمنع الآخرين من الشعور بالعداء نحوه ، لكنه يستطيع ان يتجنب الشعور بالعداء نحوهم بواسطة التفهم المنفتح وما يولّده من تعاطف . يستحيل ايجاد الدواء الذي يطرد الشّر الذي يشكو منه العالم من دون التفهم والانعطاف .

ان هناك نظرتين الى الحرب ولكنني لا أجد أياً منها مضبوطاً ومناسباً (adequate) فأساس النظرة العامة في هذه الدولة (بريطانيا) هو ان الألمان اشرار . أما وجهة نظر اكثر من يقف ضد الحرب فيرجع اساسها الى الصراع بين الدبلوماسيين وطموح الحكومات . ولكن تَغْفَلُ هاتان النظرتان ، على ما اعتقد ، عن ادراك الحد الذي يدلّ على أنَّ الحرب تنبع من الطبيعة الانسانية عامة . ان الألمان والرجال الذين يشكلون حكومات ، هم في الأغلب ، على حد سواء ، أناس عاديون ، تعتمل في داخلهم الشهوات نفسها التي تعتمل في نفوس الآخرين ، ولا يختلفون عن بقية الناس الا في احوالهم . ان هناك اناساً ليسوا بألمان ولا سياسيين ، ولكنهم يتقبّلون الحرب متهللين حتى ولو كانت اسباب الحرب غير صحيحة وغير « مظبوطة » ولكن يستحيل حدوث مثل هذا الشيء فيما لو كان القرف من الحرب شيئاً شاملاً لباقي الدول والطبقات . ان الأشياء الكاذبة التي يصدّقها الناس ، والأشياء الصحيحة التي يرفضون تصديقها تشكّل مشيراً (Index) ليس بالضرورة لدوافع فردية ، على كل

الاحوال ، طالما ان الدوافع قابلة للعـدوى ـ ولكن الدوافـع هي عامـة في المجتمع . كلنا يصدق عدة أشياء ليس لها أسس صحيحة تخولنـا الاعتقاد بهـا . وذلك لأن طبيعتنـا تـرغب من دون وعي ، في بعض الأعمـال التي نعتقد بأنها معقولة فيها لو كانت هذه الاعتقـادات صحيحة . والاعتقادات التي ليست بذات أساس صحيح هي الضريبة التي يدْفعها الميل للعقـل . لهذا نرى الاعتقـادات المتخالفـة تتشابـه هنا وفي ألمـانيا في دفـع الناس الى الاعتقاد بان من واجبهم متابعة الحرب .

اول مـا يتبادر الى ذهن من يقبـل هذه النظرة هو انـه من المفضّل ان يعيش الناس تحت ظل العقل وسيطرته . تبدو الحـرب ، الى من يعتقد ان الحـرب تسبّب للمتحاربـين أضراراً حتميـة لا تتصور ، مجـرد جنون عـام وتبلبل مشترك يُنْتَسى فيه كلُّ ما كان مفهوماً طيلة ايام السلام . فلو شمـل الدوافعَ انضبـاطٌ ، ولو تحـرر التفكير قليـلاً من سيطرة الشهـوات ، لكان بامكان الناس ان يحفظوا عقولهم من ارتفاع حـرارة حُمّى الحرب ، ولكـان الخلافُ تسوّى بمودة . ان هذا التفكـير صحيح ولكنـه غير كـاف وحده . وليس مَنْ يجد هذه الـرغبةَ قـادرةً على كبـح جماح الحـرب الا الذين بلغت رغبتُهم في التفكـير الصحيح حـد الشهوة . فليس مـا يكبح جمـاح الشهوة سـوى الشهوة ، ولا يستـطيـع ان يسيطر عـلى الميـل او الـرغبـة الا ميـلٌ مخالف . ان العقل كما تبرزه عظات الاخلاقيين التقليديـين هو شيء سلبي الى حد مخيف وهو على درجة ضئيلة جداً من الحيويـة يستحيل من خـلالها ان يقود الى حياة فـاضلة . ليس بفعل العقـل وحده يمكن ان يسيـطر على الحرب ولكن بفعل حيـاة ميول ايجـابية وشهـوات مناهضـة للشهوات التي تقود الى الحرب . ليس ما يحتاج الى تغيير هو حياة التفكير الواعي بل حياة الميول ايضاً .

ينبع كل نشاط انساني من مصدرين : الميل والرغبة . والدور الذي تلعبه الرغبة واضح لدرجة كافية . تضع المخيِّلة على الفور امام عقول الناس الذين يجدون انفسهم غير مكتفين تماماً أو غير قادرين على تحقيق ما يكفيهم ، صورَ الاشياء التي يعتقدون انها تجلب لهم السعادة . هناك مسافة زمنية في كل رغبة تفصل بين الشعور الداعي للحاجة وبين المناسبة لاشباعها . قد تكون الاعمال التي توحي بها الرغبة مؤلمة لدرجة كبيرة ، وقد يطول الوقت الذي يسبق فترة الاكتفاء كثيراً ، كما قد يكون الشيء المشتهى خارج دائرة حياتنا حتى انه من المحتمل ان يتم بعد الموت . فتهتم الارادة بكونها القوة الموجِّهَة الرئيسية ـ في ملاحقة الاشياء التي نرغب فيها ، مهما كانت بعيدة أو قريبة وعلى الرغم مما في الأعمال التي تتطلبها من ألم وعلى الرغم من تحريكها لميول ودوافع متضاربة وحرجة كثيراً . كل هذا واضح وممكن ، وفلسفة السياسة التقليدية لا تزال الى يومنا هذا مبنية ، الى حد كبير ، على الاعتقاد بأن الرغبة هي المصدر الوحيد للنشاط الانساني .

ولكن الرغبة لا تحرِّك الا جزءاً واحداً من النشاط الانساني . وليس هذا بالجزء الاكثر أهمية بل الجزء الاكثر وعياً وبروزاً ـ اي الجزء المتحضِّر .

اننا مُسيَّرون في الجزءِ الاكثرِ غريزيةً في طبيعتنا ، بميول الى القيام بنشاط ما وليس برغائب في غايةِ ما يركض الاطفال ويصيحون ليس لانهم يتوّقعون أيَّ جزاءٍ من انجاز ذلك ، بل لانهم يشعرون بميل مباشر الى الركض والصياح . وتنبح الكلاب ايضاً في وجه القمر ليس لانها تعتبر ذلك مفيداً بل لانها تشعر بميل الى النباح . ان ما يدفع الى اعمال مثل الاكل والشرب والنكاح والاقتتال والافتخار هو ميل غريزي فقط . يميل من يعتقد ان الانسان حيوان عاقل الى القول بان الناس تُمتدِح ذاتها ليأخذ

عنها الآخرون فكرة حسنة ولكن كلنا نذكر مناسبات عديدة كنا نمتدح فيها ذاتنا على الرغم من معرفتنا الاكيدة بأننا سوف نُحْتَقرُ من اجل ذلك .

تؤدي الأعمال الغريزية عادة الى بعض النتائج الملائمة للانسان العادي ولكن ذلك لا يعني انه لا يقوم بتلك الأعمال الا من اجل تلك النتائج . يقوم الانسان بتلك الأعمال لميل غريزي مباشر ، وقد يكون الميل قوياً حتى في الأحيان التي لا يؤدي فيها الى الأعمال الغريزية المعتادة . يُحب الرجال ان يتصوروا انهم أكثر تعقلاً من الأطفال والكلاب ، وبطريقة غير واعية لا يبصرون الدور الذي تلعبه الميول في حياتهم . تسير هذه التغطية غير الواعية دائماً وفق مخطط عام . عندما لا يكفي ميل ما ذاته في اللحظة التي يظهر فيها ، ينمو توقاً الى النتائج التي يصبو اليها ذلك الميل . واذا كانت بعض النتائج المحتَمَل وقوعُها هي بكل وضوح غير مفيدة ، فقد ينشب خلاف بين بُعد النظر وبين الميل . فاذا كان الميل ضعيفاً ، انتصر بُعْدُ النظر وهذا ما يسمى بالتصرف العاقل المتروي . واما اذا كان الدافع قوياً ، فإما ان يكذب بعد النظر وتُنْسى النتائج غير المفيدة او ان تُقْبل النتائج اذا ارتدى الناس طابع البطولة . عندما يتحقق مكبث مثلاً ان الهزيمة دانية ولا مفر منها تشتد عزيمته ويتباهى بقوله :

«تقدم يا مكدوف، وليكن ملعوناً من يُطلق الصرخة الاولى . أُثبتْ إلى النهاية» . ولكنْ قلَّما تبلغ قوة الشهوة وجنونها هذه الدرجة . ان اكثر الناس ينجحون ، عندما يكون ميلهم قوياً لإقناع انفسهم بان نتائج موافقة ستنتج من جراء اشباع ذلك الميل وذلك بتحويل انتباههم بطريقة انتقائية وغير واعية . نشأت بهذه الطريقة فلسفات بأكملها وطرقٌ للتقويم الاخلاقي كانت كلها تجسيداً لذلك التفكير المُسخّر للميل والذي يطمح الى تهيىء أساس شبه عقلاني للانغماس في الميل ، ان الفكر الصحيح هو

الفكر الذي ينبع من الميل الى الفضول العقلي فقط والذي يقود الى الرغبة في المعرفة والتفهم . ان اكثر ما نظن انه فكر ، توحي به بعض الميول غير العقلانية وهو ليس الا اداة نُقنِع بها انفسنا باننا سوف لا نُصدَم في توقعاتنا وانه لن يَحصل علينا اي ضرر فيما لو اتحنا مجال الانغماس امام ذلك الميل [1].

اننا نشعر عندما نلجِّم ميلاً ما بعدم ارتياح او بألم قوي . وقد يحدث حين نريد ان نتخلص من ذلك الألم ان نزيد في اشباع ذلك الميل . ولكن الألم ناتج عن وجود الميل بالدرجة الاولى . والميل موجَّه الى عمل ما ، وليس الى التخلص من الألم او الى لجم الميل ذاته . وهكذا يبقى الميل بلا غاية ، والقصد من التخلص من الألم ينتج عندما نضغط على الميل بصورة وقتية فقط .

الميل هو أساس للعمل أثبت من الرغبة . للرغبة مكانه ، ولكنها ليست كبيرة كما يبدو لاول وهلة . تجلب الميول معها جيشاً لجباً من الرغائب الخيالية المسخَّرة وتجعل الناس يرغبون في النتائج التي تنتج من اشباع تلك الميول ويعتقدون ايضاً بانهم يطلبون تلك النتائج بينما في الواقع ليس لأعمالهم اي دافع خارج عنها . قد يحدث ان يؤلف انسان ما كتاباً او يرسم لوحةً وهو يعتقد انه يرغب في الثناء الذي تجلبه هذه الاشياء عليه ، ولكنه حالما ينتهي من عمله يجد على الفور ، اذا لم يُفرِغ كل ميوله الابداعية ، ان ما صنع هو غير كامل ، ومن ثم يبدأ في عمل جديد . وما ينطبق على صناعة الفن ينطبق ايضاً على كل ما هو اكثر حيوية في حياتنا .

---

(1) قارن هذا الموضوع مع كتاب برنارد هارت « علم نفس الجنون » (مطبعة جامعة كامبردج 1914) الفصل الخامس . خاصة صفحات / 22-65 .

ان ما يحركنـا هو الميـل وما الـرغبة التي نـظنها في ذواتنـا سوى رداء لـذلك الميل .

الحق يقـال ان للرغبة ، بـالمقابـل مع الميـل ، دوراً كبيراً ومتـزايداً في تنسيق حياة الناس . يجد الميل ذاته (غوغـائياً) فـوضويـاً ولا يستطيـع ان يسير بلا زلل او ان يدخـل بسهولـة في منهاج مُحْكَمِ التنسيق . اننـا نغض النظر عن وجود مثل هذا الميل في الاطفال والفنانين ، ولكننا نعتقد انه من غير المناسب ان يكون في الرجال الذين يـرجون ان يعـلموا برصـانة . ان اكثر الأعمال التي نتقاضى عليها أجـراً تُحرِّكهـا الرغبـة وليس الميل . ومن المحتمل ان تكون تلك الأعمال بحد ذاتها مُضجِرّة الى درجـة كبيرة ولكن اجرة تلك الأعمال مغرية جداً . تتحكم في بعض الأعمال الرصينة ، التي يملأ بها الناس ساعات عملهم ، بعضُ المقاصد والأهداف وليس الميل الى تلك الأعمـال ـ الا في بعض الاشخاص المُمَيَّـزين (المحظوظـين) لا أحد يـرى اي لوم في هـذا لأن مكانـة الميل في عـالم مُـرْضٍ satisfactory غـير مكترث بها .

يَعتَبر كلُّ فرد لا يشارك في ميـل ما ذلـك الميل جنـوحاً . وكـل الميول هي بحد ذاتها عمياء بمعنى انها لا تَنْبُعُ من أيِّ رؤية سابقة للنتائج . ولهذا يعطي كل انسان تقديراً مخالفاً لنتيجة الميل الذي لا يشارك فيه . قـد يبدو ذلـك الاختلاف في الحكم اختـلافـاً اخـلاقيـاً او عقليـاً ولكنّ أسـاسـه في الحقيقة ، اختلاف في الميـول . لا يمكن ان ينتج في هـذه الحال أي اتفـاق حقيقي لان الاختلاف في الميول لا يزال مستمراً . في كل الناس ، الـذين تتـأجج الحيـاة في داخلهم ميول قـوية جـداً تبدو لـلآخـرين كـأنها جنـون مطلق . قد تقود الميول العمياء في بعض الاحيان الى الدمار والهلاك ولكنها في بعض الاحيان الاخرى قـد تقود الى انجـاز اعظم الاشيـاء التي يحرص

عليها العالم . الميل الاعمى هو مصدر الحرب ولكنه هو ايضاً مصدر العلم والفن والحب . ان ما نرجوه ليس اضعاف الميول بل توجيهها وجهة الحياة والنمو وليس وجهة الموت والاندثار .

ان ما ينادي به بعض الاخلاقيين بين الفينة والاخرى من سيطرة الارادة على الميل ومع ما يدعم ذلك غالباً من ضرورة اقتصادية ، هو شيء غير مرغوب فيه حقاً . ان حياة تُسيِّرها المقاصد والرغائب بمعزل عن الميول ، انما هي حياة مضجرة ، حياة افرغتها الحيوية وتركت الانسان في النهاية غير عابىء بالمقاصد التي يحاول جهده تحقيقها . وعندما تعيش امة بأكملها حياة كهذه تصبح الأمة بأكملها هزيلة ولا يعود باستطاعتها أن تُحدِّد العقبات التي تقف في وجه رغائبها ولا ان تجتازها . تُجبِر الحياة الصناعية وحياة التنظيم الأممَ المتحضرة على النحو باستمرار نحو حياة الرغبة وليس نحو الميل . ولكن اذا لم يجفف هذا النحو من العيش ينابيعَ الحياة ، فسوف تتولد في المدى الطويل ميول جديدة ليست من ذات النوع الذي اعتادت الارادة أن تسيطر عليه او الذي يعيه الفكر أو يحصره . وستظهر نتائج هذه الميول الجديدة اسوأ من تلك الميول التي يمكن لجمها . غالباً ما يولِّد الانضباط الشديد ، خاصة عندما يُفرض من الخارج ، ميولاً الى القسوة والتدمير ، وهذا هو احد اسباب الاعتقاد بأن الحياة العسكرية لها تأثير مضر لخُلُق الأمة . فاذا لم تجد الميول منفذاً ، فمن المحتم ان ينتج عن ذلك فقر في الحيوية او ان تبرز ميول ضاغطة ومقاومة للحياة . لم تكن ميول الانسان ثابتة ومحددة منذ الولادة . انها تتأثر وتتطور ضمن حدود واسعة بظروف الانسان وطريقة حياته . وعندما نحكم فيها اذا كانت المؤسسات السياسية والاجتماعية صالحة او مضرة ، فمن الضروري ان ندرس طبيعة هذه الظروف ونأخذ بعين الاعتبار نتيجة هذه الدراسة .

لقد نشأت على الارجح الحرب من حياة الميل والشهوة وليس من حياة العقل والرغبة . هناك ميل الى الاعتداء كما أن هنالك ميلاً لمقاومة الاعتداء . يمكن ان يسند العقل أياً منها في بعض الأحيان ولكنهما في حالات كثيرة يخالفان العقل تماماً . يصنع كل ميل مجموعة هائلة من المعتقدات تواكبه . تظهر المعتقدات الموافقة للميل الى الاعتداء واضحة في برنهاردى وفي طلائع الفتح الاسلامي ، أو بشكل اكمل في "كتاب يشوع بن نون . في الأساس هناك اعتقاد الفرد الراسخ بتفوُّق جماعته وتأكيد حتمي على انها ، بأي شكل من الاشكال ، هي الجماعة المختارة . وهذا هو ما يبرر شعور الفرد بأن خير جماعته وما تعتبره شراً هو كل ما يهم في الحقيقة ، أما بقية العالم فهي ليست الا مادة لانتصار او خلاص العرق الأفضل . ان هذا هو بوجه عام ، الشعور في اوروبا نحو افريقيا وآسيا - وكثير من الألمان يشعرون بمثل هذا الشعور نحو بقية اوروبا .

يقابل الميل الى الاعتداء ميل الى مقاومة الاعتداء . يتمثل هذا الميل في موقف العبرانين ، الاسرائيليين القدامى ، نحو الفلسطينيين ، او اوروبا القرون الوسطى نحو المحمديّين . ان الاعتقادات التي يصنعها هذا الميل هي اعتقاد بِشرِّ الفئة التي يُهاب جانبها واعتقاد بقيمة العادات الوطنية التي يكبتونها فيها لو كانوا هم الفئة المنتصرة . عندما نشبت الحرب بدأ كل الرجعيين في انكلترا وفرنسا يلهجون بالخطر على الديموقراطية على الرغم من انهم كانوا الى تلك اللحظة يقاومون الديموقراطية بكل ما أوتوا من قوة . لم يكونوا غير صادقين في كلامهم هذا اذ ان الميل الى مقاومة الألمان اجبرهم على الحرص على كل ما يهدده الاعتداء الألماني . لقد احبوا الديموقراطية بسبب كرههم للألمان ولكنهم اعتقدوا انهم كرهوا الألمان بسبب حبهم للديموقراطية .

ان الميل الى الاعتداء والى مقاومة الاعتداء قد ظهرا في كل الدول المشتركة في الحرب ، ومَنْ لم تسيطر فيه اي من هذه الميول ، يمكن ان يقسم على وجه التقريب ، الى ثلاث فئات . أولا هناك افراد الفئة ذات الشعور القومي المشاكس والمناهض للدول التي ينتمون اليها سياسياً . وتضم هذه الفئة الايرلنديين والبولنديين والفنلنديين واليهود وبعض الجماعات فيّ الأمم المستعمَرة . ويمكن ان نتجاهل هذه الفئة ، على حسب اعتقادنا ، لأن هؤلاء الناس يجسدون حياة الميول مثلما يمثلها اولئك الذين يتحاربون ولا يختلفون عنهم الا من حيث الظروف الخارجية او الطارئة .

ان الفئة الثانية من الناس الذين لم يكونوا طرفاً في القوة المناصرة للحرب تضم اولئك الذين أتلِفت طبيعة ميولهم الى حد ما . يَعتقد اخصام مقاومي الحرب ان كل مقاومي الحرب ينتمون الى هذه الفئة ـ ما عدا الذين يتقاضون ثمناً لمقاومتهم من المانيا . والاعتقاد الشائع هو ان مقاومي الحرب جماعة لا تحب سفك الدماء ، جماعة بلا ميول ولا شهوات ، ورجال يستطيعون ان يتطلعوا ويفكروا بتَعَالٍ وبرودةٍ بينما يَدفع اخوانهم حياتهم في سبيل الوطن. قد يصح القول ان بين مقاومي الحرب من لا يعمل شيئاً سوى ان يأبى الاشتراك في الحرب . وانا اعتقد ان مناصري الحرب هم على جانب كبير من الحق في التشهير بهؤلاء الناس . ان هناك أملاً اكبر في امة تشتعل فيها الميول لى الحرب ، على الرغم مما تسببه من تدمير ، من امة انطفأت فيها كل الميول . ان الميل هو تَعْبيرٌ عن الحياة . وطالما ان هناك املاً ، فالأمل كبير باتجاه ذلك الميل نحو الحياة بدلاً من الموت . ولكن فقدان الميل موت ، ومن الموت لا تخرج حياة .

في كل الأحوال ليس مقاومو الحرب النشيطون من هذه الفئة : انهم ليسوا أناساً بلا قوة ميوليّة . انهم أناس بلغت فيهم شهوة مقت الحرب

درجة من القوة بحيث انها تغلّبت على كل الشهوات التي تقود الى الحـرب . ليس عمل من يقف في وجه حركة وطنية بأكملها ويحمل لواء قضية يـائسة بكـل تأكيـد ويقاوم عـدوى العاصفـة الجمـاعيـة بعمـل انسـان مجـرد من الشهوة . ان الميل الى تجنب سخط الرأي العام هو أقوى الميول في الطبيعة الانسانية ولا يمكن ان تقمعـه الا قوة غـريبة لميـل مباشر بعيـد عن التفكير والتخطيط . ان قوة العقل البارد لا يمكن ان تولّد عملاً مثل هذا .

يمكن ان تُقسم الميـول الى ما يقـود الى الحيـاة ومـا يقـود الى المـوت . والميول التي تولّد الحرب هي من جملة ما يقود الى المـوت . ان اي ميل الى الحياة ، اذا كان قـوياً الى درجـة كافيـة يقود الانسـان الى ان يقف في وجه الحرب . تكون بعض هذه الميول قوية عند من تكون ثقـافتهم عاليـة فقط بينها بعضها الآخر هو جزء عام مشترك مع كل انسان . ان الميول الى الفن والعلم هي الاكثر رقيّاً بـين الميول الى الحيـاة . لقد بقي كثـير من الفنانـين غير مأخوذين باشتهاء الحرب وليس ذلـك عن ضعف في مشاعـرهم ولكن لان غريزتهم الابداعية وتتبعهم لرؤية ما تضعهم في موقف الناقد لهجمات الميول الوطنيـة وتجعلهم لا يستجيبون الى الاسـطورة التي يتردّى فيهـا الميل الى القتال . قد انتبه بعض الناس الذين تسيطر عليهم الميـول العلمية الى الاساطير المتضاربة عند الجماعات المتحاربة ولجأوا بسبب تفهمهم هذا الى الحيـاد . ولكن ليس من خلال هـذه الميـول المثقفـة تخرج القـوة الشعبيـة الكافية لتغيير العالم .

هنـاك ثلاث قـوى تقود الى الحيـاة ولا يتطلب اكتشـافها تلك المـوهبة الخـارقة التي هي غـير نادرة الآن ، والتي يمكن ان تشيـع الى درجـة كبيـرة تحت ظل ظروف اجتماعية افضل . وهذه القوى هي الحب وغريزة البقاء والابتهاج بالحيـاة . تضعف هذه القـوى جميعها وتئن تحت وطـأة الظروف

الحاضرة التي يعيش فيها الناس الذين ليسوا اقل حظاً بـارزاً في الثروة فقط بـل الذين هم اكـثر ثراء ايضـاً . ان اكثر مؤسسـاتنا تـأسست على الـظلم والتسلط . ولا يمكن ان نتحمل الاضطهـاد والاستظلام الـذي نكسبه من تلك المؤسسات الا اذا اغلقنا قلوبنا ضد الانعطاف وعقولنا ضد الحقيقة . ان الاعتقاد التقليدي لما يكوّن نجاحاً في المعيشة وبروزاً في سبيـل الحياة ؛ يقود اغلب الناس الى ان يعيشـوا حياة ضُـرِبَتْ فيها اكـثر الشهوات الحيّـة وذابت بهجتها في متاعب لا تحصى ولا تعـدّ ، فيُجبِر منهـاجها الاقتصـادي اكـثرَ النـاس عـلى تنفيـذ مـآرب الآخـرين بـدلاً من مـآربهم هم ويجعلهم يشعـرون كـأنهم عجـزة في العمـل وغـير قـادرين الا عـلى التمتـع ببعض الملذات الاستسلامية . فتقتل هذه الأشيـاء الروحَ في المجتمـع والعواطف المتودِّدة في الأشخاص والقوّةَ في النظر الكريم الى العالم . يمكن وضـع حد لكل هذه الأشياء غير الضـرورية بحكمـة وشجاعـة . ولو وُضـع حد لهـا لكانت حياة الشهوة عند النـاس تغيرت بـالكلية ولكـان باستـطاعة الجنس البشري ان يخطو نحـو سعادة جـديدة وروح جـديدة . والهـدف من وراء هذه المحاضرات جميعها هو الدعوة الى مثل هذا الأمل .

ان ميـول الـرجـال والنسـاء ورغـائبهم ، عـلى الـرغم من اهميتهـا في حياتهم ، لا تنفصل عن بعضها البعض ، ولكنها تنبثق من عنصر اسـاسي للنمو ، ذات قوة غريزية ملهبة تدفعهم في وجهة معينة ـ كما يطلب الشجر النور . ولطالما ان هذه الحركة الغريزية هي غير محجوبة النمـو ، فأي رزء يقع هو ليس بذات مصيبة كبيـرة ولا يؤدي إلى تلك التشويهـات التي تنتج من جراء التدخل في مجرى النمو الطبيعي . وهـذا المركـز الحميمي هو مـا يجب ان تفقهـه مخيلتنا اذا كنـا نريـد ان نَفهَم كل انسـان فهـماً حـدسيـاً . يختلف هذا المركز من انسان الى آخر ويُحدِّد لكـل فرد نـوعَ الكمال الـذي

يقدر عليه . وجل ما تستطيع ان تفعله المؤسسات الاجتماعية من اجل الفرد هو ان تجعل نموه حراً وحيوياً ، انها لا تستطيع ان تُرغمه على النمو وفقاً لأنموذج انسان آخر . يوجد في الناس بعض الميول والرغائب . فالميل الى التحشيش ، على سبيل المثال ، لا يصدر عن العنصر الاساسي . وعندما تصبح هذه الشهوات قوية لدرجة مضرة يجب ان تُكبَح بواسطة السيطرة على الذات . وتوجد هناك شهوات اخرى يمكن ان تصبح مؤذية لنمو الآخرين على الرغم من انها تصدر عن العنصر الأساسي ، ولهذا يجب ان تكبح حفاظاً على مصلحة الآخرين . وفي اغلب الأحيان تصدر الشهوات المؤذية للآخرين من الشهوات التي تَعَرْقَل نموها ، بينما تقل جداً في اولئك الذين لم يُصَبْ تطورهم الغريزي بصدمة ما .

الناس كالأشجار يتطلب نموهم أرضاً وقدْراً وافياً من الحرية من الطغيان . تساعد المؤسسات السياسية في تحقيق هذا المطلب او في اعاقته . ولكن الحصول على الأرض والحرية اللتين يتطلبهما نمو الانسان هو اصعب بآلاف المرات من الحصول على الأرض والحرية اللتين يتطلبهما نمو الأشجار . والنمو الذي يطمح الانسان في الحصول عليه هو غير قابل للتحديد او البرهان ، اذ انه بمنتهى الدقة وفي غاية التعقيد . انه لا يمكن ان يُحَسّ الا بحدس مرهف ولا يمكن ان يُدْرَكَ الا بشيء من عدم الوضوح بواسطة المخيلة والاحترام . انه لا يعتمد بشكل رئيسي على البيئة الطبيعية فقط بل كذلك على المعتقدات والعواطف ، على فرص العمل وعلى حياة المجتمع باكملها . كلما كانت افعال الانسان متقدمة ومتحضرة تشعبّت متطلباتُ نمُوّه وبالتالي اصبحت معتمدة على الوضع العام في المجتمع الذي يعيش فيه . ليس في حياة الانسان الشخصية تنحصر حاجاته ورغائبه . اذا كان عقله شمولياً ومخيلته حيةً تصبح سقطات

المجتمع الذي ينتمي اليه سقطاته ، ونجاح المجتمع نجاحه وطِبقا لنجاح مجتمعه او فشله يتغذّى نموه الشخصي او يتلظى .

ينحصر عنصر النمو في اكثر الرجال والنساء في هذا العالم الحديث بمؤسسات متوارثة عن اجيال اكثر بساطة وأقل تعقيداً . لقد برزت الى الوجود بفعل تقدّم الفكر والمعرفة وازدياد التسلط على قوى عالم الطبيعية ، إمكانياتُ جديدة للنمو وتفتّقت مطالبُ من الواجب اشباعها اذا لم يُرَدْ لطالبيها الانكساف . لم يعد هناك اي داع للاكتفاء بالحدود غير المُحتّمِ وجودُها ولا بالحدود التي لا يقود وجودها الى حياة افضل . ولم تعد الطبقات المحرومة تنظر الى المؤسسات التي تُفسح مجالات اوسع امام بعض الطبقات وتحرمها عن طبقات اخرى ، على أنّها مؤسسات عادلة ، على الرغم من ان الطبقات الأكثر انتفاعاً بتلك المؤسسات ، لا تزال تصونها بكل قواها . وهكذا نشب صراع عالمي تحالفت فيه السلطة مع التقليد ضد الحرية والعدالة . لقد فقدت اخلاقنا ، التي نلهج بها علناً فقط ، قبضتها على اولئك الذين يثورون ضدها . واصبح التعاون ، الى حدٍّ ما مستحيلاً بين المدافعين عما هو قديم وانصار ما هو محدث . وهكذا نفذ الى اكثر العلاقات في الحياة انفصالٌ صميمي يتسع بشكل مستمر . وفي الصراع من اجل الحرية يصبح الرجال والنساء غير قادرين الى درجة بعيدة على هدم جدران « الأنا » واحراز النمو الذي ينشأ عن اتحاد حقيقي وحيوي .

ينبع الأصلُ التاريخي لكل مؤسساتنا من السلطة . ففي الشرق وَجَدَتْ السلطةُ القهرية ، التي لا تسمح باي تساؤل حقيقي ، تعبيراً دينياً في الخالق القهّار والكلي القدرة الذي بهاؤه هو الغاية الوحيدة للانسان وليس للانسان إزاءَهُ اية حقوق . انحدرت هذه السلطة الى الامبرطور ثم

الى البابا ثم الى الملوك في القرون الوسطى فالنبلاء في تسلسلهم الاقطاعي وحتى الى كل زوج وأب في معاملته لإمرأته واولاده . كانت الكنيسة الأناء المباشر للسلطة الإلهية بينما كانت الدولة والقانون مبنيّين على سلطة الملك . اما الملكية الخاصة للأرض فقد نشأت من سلطة البارونات المتصرين وكذلك كانت تُحكَمُ العائلة بسلطة رب العائلة .

لقد سَمَحَت مؤسسات القرون الوسطى لبعض الاشخاص المحظوظين كي ينموا بحرية بينما تركت الأكثرية الساحقة تخدمهم . ولما كانت السلطة محترمة بكل صدق ومعترف بها حتى من الجماعات الاكثر فقراً ، فان مجتمع القرون الوسطى بقي عضوياً وغير معاد للحياة بشكل أساسي ، وذلك لأن الخضوع الخارجي يتوافق مع الحرية الداخلية لكونها فعلاً اختيارياً . قد جسدت مؤسسات الغرب المسيحي نظرية صُدِّقَتْ كما لا تُصدَّقُ أية نظرية تستطيع ان تبرر مؤسساتنا الحالية تبريراً صحيحاً .

ولكن نظرية حياة القرون الوسطى انهارت لعدم مقدرتها على تلبية مطالب الانسان من الحرية والعدالة . لقد دفع الحكام الطغاة حينما تخطوا حدود سلطتهم النظرية مواليهم الى الاعتقاد بان لأمثالهم حقوقاً ما وليس من المحتم عليهم ان يعيشوا فقط لاشادة عظمة الأقلية المختارة . واتضح من مرور الزمن ان النّاس اذا ما حصلوا على السلطة فمن المحتمل جداً ان يسيئوا استخدامها ، وفي عالم الواقع تعني السلطة الطغيان . ولما كان يُقاوَمُ مطلبُ العدالة من قبل حملة ألوية السلطة ، فقد انقسم الناس الى افراد مستقلّين عن بعضها البعض يحارب كل فرد من اجل حقوقه ، ولم ينقسموا الى مجموعة اصيلة تترابط مع بعضها بواسطة هدف عضوي مشترك . وغياب هذا الهدف المشترك أصبح مصدراً لعدم السعادة . ومن الأسباب التي قادت العديد من الناس للترحيب بانفجار الحرب الحاضرة هو انها جعلت من جديد كل امة مجموعة موحدة بهدف مشترك . وانجزت

الحربُ هذا الهدف ، حتى الآن ، بهدم طلائع الأمـل بوجـود عالم متحضر كوحدة كلية ، ولكن هذه الطلائع كـانت غايـة في الحداثـة لدرجـة ان قلة ضئيلة تأثرت من جراء هَدْمها . لقد اغتبط الناس بهذا الشعور الجديـد في الاتحاد مع بقية ابناء الأمة اكثر مما ازعجهم الابتعاد المتزايد عن اعدائهم .

لقد اصبح سحق الفـرد واقصاؤه عن الصـراع من اجل الحـرية شيئاً حتمياً ولا يُستبعد اكتماله . واذا كان للمجتمع العضـوي ان ينمو ، فـإنّه من الضـروري ان تتغير مؤسسـاتنا بشكـل جـذري لكي تجسـد الاحـترام الجديد للفرد ولحقوقه الذي يـولده الشعـور العصري . ان الامبـراطوريـة والكنيسـة قد سحقتـا الفرد في القـرون الوسـطى . ان ما كـان هنـاك من هراطقة قد قتلوا بلا رحمـة ومن غير ان يثـير ذلك الاشمئـزاز الذي أثـارته الاضـطهادات المتـأخرة ـ وهؤلاء الهـراطقة انفسهم ، مثـل مضطهـديهم ، كانوا يؤمنون بانه من الواجب ان تكون هناك كنيسة واحدة جـامعة ، إنمـا اختلفوا فقط على ما يجب ان يكون دستور ايمانها . انتقـد بعض من رجال العلم والفن ، في عصر النهضة ، نظرية القرون الوسطى ولكنهم لم يضعوا مكانها الا الشك والاضطراب . وأول مخالفة جِدّيّة لتلك النظرية الوسطية جاءت نتيجة لتأكد لوثر luther على شرعية الحكم الشخصي وعدم عصمة المجامع العامة . ومع مرور الزمن خرج من هـذا التأكيـد الاعتقاد الحتمي بان ديانة الانسان لا يمكن ان تُحدَّد من قبل سلطة مـا بل من الـواجب ان تترك لاختيار الفرد بحرية . بدأت المعركة من اجـل الحريـة في امور دينيـة ووصلت فيها الى ما يقارب الانتصار العام [1].

---

(1) مـلاحظة : لقـد كتبت هذه الجملة قبلها اصبحت المسيحيـة قابلة للعقـاب بـالعمـل الشاق لمدة عشر سنوات تحت الحكم العسكري عدد 2 (لقد اضيفت هذه الملاحظة في سنة 1916).

يظهر تقدم الفردية المطلقة وكفاحها ومن ثم تطورها ، كما نأمل ، الى صفة جديدة من الاختلاط والتمازج في كل منحى من مناحي الحياة . فباسم العدالة تُرفع هذه المطالب ولكنها تُدفَع باسم التقليد والحق المفروض . تعتقد كل جهة بكل جِديّة انها تستحق أنْ تنتصر وذلك لأن نظريّتين اجتماعيتين يمكن ان تنزل الواحدة بجوار الأخرى في مفكرتنا ومن المنتظر ان يختار الناس بطريقة غير واعية النظرية التي تلائم قضيتهم . ولكن بما ان الصراع طويل وقاس فقد تميل كل النظريات العامة الى ان تُنتسى تدريجياً ولا شيء في النهاية يبقى سوى تأكيد الذات وعندما يكسب المُضْطهَدُون حريتهم يصبحون بدورهم مضطهدين كما كان قادتهم السابقون.

يظهر هذا بشكل بدائي فيما يسمى بالقوميّة . والقومية ، نظرياً ، هي المعتقد الذي يقول إنّ الناس يشكلون من خلال مشاعرهم وتقاليدهم مجتمعات طبيعية تسمى أمماً وكل واحدة منها تخضع لسيطرة حكومة مركزية . يمكن ان يقتنع الانسان ، بوجه عام ، بمثل هذا المعتقد . ولكن في حالة التطبيق العملي يأخذ هذا المعتقد شكلاً شخصّياً لدرجة كبيرة . فالقومي المتظلم يقول : انا انتمي بمشاعري وتقاليدي الى امة آ ولكنني اخضع الى حكومة تنتمي الى امة اخرى ب . وهذا شيء غير عادل ليس لسبب المبدأ العام للقومية فقط ، بل لأن الأمة أ هي امة كريمة متطورة ومتحضرة بينما الأمة ب هي مضطهدة متأخرة وبربرية . ولأن الأمر على هذه الحال ، فان الأمة آ تستحق ان تَنعَم بينما الأمة ب تستحق ان تُكبَت . « من الطبيعي ان يُصِمَّ سكانُ الأمة ب آذانهم عن دواعي العدالة المطلقة عندما تكون هذه الدواعي محفوفة بالعداوة الشخصية والاحتقار ولكن في حالة حرب كهذه تنال الأمة آ حريتها . ولكن الافتخار الذي قاد الى نيل الحرية يولد حالة تقود بشكل شبه حتمي الى الاستعمار او الى

مقاومة تحرر أمة اخرى ضمن حدودها . « ماذا تقول ؟ ان للأمة س التي تشكل جزءاً من دولتنا نفس الحقوق ضدنا ، كما لنا نحن نفس الحقوق ضد الأمة ب ؟ هذا هراء وسخافة . ان الأمة س هي امة خنزيرية وفوضاوية عاجزة عن تأليف حكومة قوية ، هي كذلك بحاجة الى يد قوية لكي لا تشكل خطراً او عائقاً لكل جيرانها »، هكذا يتحدث الانكليز عن الايرلنديين وهكذا يتكلم الألمان والروس عن البولنديين ، والغاليون البولنديون عن الروثانيين the Ruthenes والنمساويون عن المجريين ، والمجريون عن السلافيين المجاورين الى (صربيا والصربيون عن المقدونيين والبلغاريين . وبهذه الطريقة تقود القومية ، التي لا يُعترض عليها نظرياً ، بشكل طبيعي الى الاضطهاد والحروب الاستعمارية . لم تكد فرنسا تتحرر من الانكليز في القرن الخامس عشر حتى شرعت بغزو ايطاليا . واسبانيا كذلك ، لم تكد تتحرر من العرب حتى دخلت في صراع دامَ اكثر من قرن مع فرنسا وذلك من اجل السيادة على اوروبا . ان الأمر من هذه الناحية مع المانيا ممتع للغاية . ففي مطلع القرن الثامن عشر كانت الثقافة الألمانية فرنسيةً . وكانت اللغة الفرنسية هي لغة المحاكم واللغة التي كتب فيها ليبنتز Leibniz فلسفته وكانت ايضاً اللغة العامة التي تُكتب بها الرسائل الراقية ودروس التعليم . وبالكاد كان يوجد اي اثر للوعي القومي . ولكن فيما بعد استطاع بعض الرجال العظام ان يخلقوا احتراماً للذات في المانيا من خلال منجزاتهم في الشعر والموسيقى والفلسفة والعلم . ولكن القومية الألمانية لم تنهض سياسياً الا من خلال الاضطهاد النابليوني وثورة 1813 . لقد اكتشف الألمان، بعد قرون كان خلالها كل تعكير لأمن اوروبا يقود الى غزو المانيا اما من الفرنسيين او الروس أو الاسوجيين ، انهم يستطيعون اذا ما بذلوا جهداً كافياً واتحدوا اتحاداً كلياً

ردّ الجيوش الغازية عن اراضيهم . لكن الجهد الذي بُذِل ظَهر من الصعب ازالته بعد زوال الهدف الدفاعي بانهزام نابليون ، لا يزال الألمان الى الآن وبعد مرور مائة عام على ذلك ، منهمكين بنفس الحركة التي اصبحت حركة اضطهاد وغزو . انه لمن غير الممكن ان نتكهّن الآن فيما اذا كنا نرى نهاية تلك الحركة .

لو ان في الناس احساساً قوياً من اجل خَلْق مجتمع من الأمم لكانت القومية قد أدّت خدمة جليلة لرسم الحدود بين الأمم المتعددة . ولكن بما ان الناس لا يشعرون انهم مجتمع واحد الا ضمن امتهم ، فلا شيء سوى القوة ينجح في جعلهم يحترمون حقوق الأمم الأخرى ، حتى عندما يشدّدون من جانبهم على نفس الحقوق .

إنّه من المُتوقَّع ان نشاهد تطوراً مماثلاً مع مرور الزمن في الصراع الدائر منذ نشوء الجهاز الصناعي بين رأس المال والعمل وكذلك في الصراع الذي لا يزال في مهده بين الرجل والمرأة .

وما نحتاج إليه في هذه الحالة من الصراع المتعدد الوجوه هو اساس ما أو فكرة عامة نؤمن بها باخلاص لنستطيع ان نحقق العدالة من خلالها . لا يؤدي الخروج من الحرب باعتزاز متبادَل الى العدالة الا اذا تعادلت القوى بضرب من الصُّدْفة . ليس هناك اي نفع في دعم المؤسسات المبنية على التسلط طالما انها تؤدي الى غياب العدالة . وحينما تغيب العدالة لا يتم الاستمرار في غياب العدالة من دون تسبب ضرر جوهري لكل من يدعمها ومن يقاومها . وذلك الضرر هو تزايد في قساوة حدود « الأنا » لدرجة تجعله سجناً بدلاً من ان يكون نافذة . يتوقف نمو الفرد الصحيح على الاحتكاك الكثير الوجوه مع الناس الآخرين . والمفروض في ذلك الاحتكاك ان يكون من صلب التعاون الحر وليس خدمة اجبارية . عندما

كان الايمان بالتسلط حياً كان التعاون الحر متماشياً مع عدم المساواة والخضوع ، ولكن المساواة والحرية هما ضروريتان الآن . اذا لم تكن المؤسسات لقتل النمو الشخصي ، فمن الواجب ان تُبنى على التعامل الاختياري قدر الامكان وليس على قوة القانون او التسلط التقليدي عند محتكري السلطة . لا تستطيع اي من مؤسساتنا النجاحَ في حالة تطبيق هذه الفكرة الأساسية دون ان تُجري بعض التغييرات الجوهرية . وهذه التغييرات ضرورية الى ابعد الحدود اذا ما أردنا ان ينجو العالم من الانهيار الى وحدات متفرقة ومتصلبة تتحارب مع بعضها .

ان العوامل الرئيسية للتعامل الصحيح بين الاشخاص هي المحبة الغريزية ومن ثم الهدف المشترك . قد يبدو الهدف المشترك العامل الاكثر اهمية من الناحية السياسية . ولكنه في الحقيقة نتيجة وليس سبباً للمحبة الغريزية او الكراهية الغريزية العامة . ان المجموعات العضوية ، تصاعداً من العائلة حتى الأمة مبنية على درجات متراوحة من المحبة الغريزية . وعلى هذا الأساس تَبني تلك المجموعاتُ أهدافَها المشتركة .

المحبة الغريزية هي الشعور الذي يجعلنا نُسَرّ بمرافقة انسان ما او نجد راحة في مجلسه او نتمنى ان نتحدث اليه او ان نعمل معه او نلعب واياه . واقصى ابعاد تلك المحبة هو الهيام . ولكن للأبعاد السطحية للمحبة ، حتى اشدها سطحية ، اهمية سياسية . ان وجود انسان ما نكرهه يجعلنا نحب اي انسان آخر . سيحب اي انسان معاد للسامية أي انسان مسيحي في حال وجود اي انسان آخر . ان وجود اي انسان ابيض في الصين او مجاهل افريقيا يفتح الصدور لاستقباله . ان الكراهية العامة هي احد اهم الأسباب المتكررة للمحبة الغريزية غير الجارفة .

تختلف محبة الناس الغريزية اختلافاً كبيراً من حيث كثافتها ودرجة

حدّتها في اوقات مختلفة وحتى في الانسان الواحد بذاته . يمكن ان نأخذ مثلاً كارليل ووالت ويتمان كقطبين مختلفين في هذا الحقل . في نظر كارليل ، على اقل تعديل كما يظهر في اواخر حياته ، اكثر الرجال والنساء مقرفون ويثيرون فيه كراهية غريزية لدرجة انه كان يجد متعة في تصورهم تحت اعواد المشانق او جثثاً ملقاة في ساحات المعارك . وقاده هذا الشعور الى ان يحط من قيمة كثير من الناس وان يجد تسلية ممتعة في اولئك الذين اشتهروا بتنكيلهم بالناس امثال فريدريك الكبير والدكتور فرانسياس . Dr Francia وآيرو الحاكم Govemor Eyre ومن ثم قاده هذا الشعور الى محبة الفن والحرب واحتقار الضعفاء والمضطهَدين ـ وعلى سبيل المثال ، لم يفتر عن كيل اللوم والاستهزاء باولئك الثلاثين الف امرأة اللائي لا يملكن سوى الأبر والغم . ويمكن ان يقال ان اخلاقه وسياسته قد بنيتا شيئاً فشيئاً على احتقار الجنس البشري كله على وجه التقريب .

نجد مقابل ذلك شعور والت ويتمان الحار الذي يشمل الاكثرية الساحقة من الرجال والنساء . حتى ان ادراجه العجيبة كانت تبدو له ذوات متعة كبيرة لأن كل شيء فيها كان يظهر لمخيلته كأنه شيء مبهج . ان الاغتباط الذي يجده الناس فقط في الأشياء الخارقة او العظمة كان يجده والت ويتمان في كل انسان تقريباً . فنما من هذا الاعجاب الكلي تفاؤله وايمانه بالديموقراطية ومن ثم اعتقاده الراسخ بأنّه من السهل ان يعيش الناس سوية في سلام ومحبة . كانت فلسفته وسياسته ايضاً، مثل فلسفة كارليل وسياسته متوطّدة على ميله الغريزي نحو العامة من الناس .

ليس هنالك أيّة حجة موضوعية يمكن ان نقدمها لكي نثبت ان أياً من هذين الموقفين هو في جوهره اكثر عقلانية من الآخر . فاذا وَجد انسان ما ان الناس بغيضون repulsive فليس هناك اية حجة تثبت له انهم

خلاف ذلك . ولكن لا يمكن لرغائبه ورغائب الناس الآخرين ان تصيب ، على الأغلب ، كِفَاية الا اذا ماثل ، والت ويتمان وليس كارليل . ان عالماً من الوالتمانيين لهو اسعد بكثير من عالم من الكارلينيين واكثر قدرة على تحقيق مقاصده . ولهذا السبب سوف نرغب بقدر استطاعتنا في ان نَزيد في مقدار المحبة الغريزية في العالم وان نَخفض في مقدار الكراهية الغريزية ، من المحتمل ان يكون هذا اكثر النتائج اهمية لدرجة ان المؤسسات السياسية يجب ان تقاس بها .

هنالك مصدر آخر للعلاقات الجيدة بين الأشخاص واقصد بذلك الغاية المشتركة وخاصة حينما لا يمكن ان نحقق تلك الغاية الا بالتعاون المشترك . تُبنى مؤسسات الاتحادات العمالية والأحزاب السياسية بشكل كلي على الغاية المشتركة ، اي محبة غريزية تواكب تلك المؤسسات هي بالفعل نتيجة لتلك الغاية المشتركة وليست سببها . تخضع المؤسسات الاقتصادية كشركات سكك الحديد لغاية ما ولكن لا تحتاج تلك الغاية الى الظهور الا في اولئك الذين يوجهون تلك الشركة . لا يحتاج العامل اليومي لان يظهر اي هدف سوى كسب أجر . هذه هي نقيصة في المؤسسات الاقتصادية من الواجب اصلاحها . واصلاح هذه النقيصة هو احد اهداف الحركة النقابية .

يُبنى الزواج كما هو الآن على الاعجاب الغريزي ولكن حالما يولد الأولاد او تولد الأمنية في انجاب الأولاد يستمد الزواج قوة اضافية من الغاية المشتركة . وما يميِّز الزواج من العلاقة الظرفية التي لا تهدف الى انجاب الأولاد هو هذه الغاية . وغالباً ما تدوم تلك الغاية كرابطة قوية حتى بعد تلاشي الاعجاب الغريزي .

وتبقى الأمة الحقيقية كذلك على شيء من المحبة الغـريزيـة للمواطنـين وعـداء للغربـاء غريـزي مشتـرك . فلما يعـود الانكليـزي من اوروبـا الى « دوفر » Dover او « فوكستون » Folkestone يشعر بانعطاف نحو عادات مألوفة : الحمالون غير العابثين بـالانضباط ، صيـاح الأولاد حملة الجرائـد والنساء اللائي يقـدمن الشاي الـرديء ، كل ذلـك يبعث في قلبه الـدفء ويبدو طبيعياً جداً لدرجة تدنو مما يجب على الناس ان يكونوا ، بينـما طرق الناس الغرباء وتصرفاتهم هي عجيبة وغريبة . انـه متوثب لأن يصـدق ان كل الشعب الانكليزي هو نفوس زكية ، بينما اكثر الغرباء هم متخصصون بحياكة الشر والكراهية ، تجعل هذه المشـاعر وامثـالها جمـع شمل الأمـة في بوتقةٍ حكومية سهـلًا جداً ، وحينـما يحدث ذلـك يضاف الى تلك المشـاعر هدف مشترك كما يحدث في الزواج تمامـاً ، ليس الغربـاء الا ليغزوا دولتنـا وَيَهْدِمُوا كِياننا ، ليقتلونا في المعارك ويسحقوا كبرياءنا . ومن يتحالـف معنا لرد تلك الداهية فهـم اصحابنا ، ويُزيد تعاونهم تَحَبُّبَنَـا الغريـزي كثافـة . ولكن لا تشكل الأهداف المشتركة كل منابع محبتنا لدولتنا ، اذ لا يثـير فينا حتى أقدم احلافنا نفس الشعور الـذي يثيره فينـا اخوتنـا في الوَطنيـة . ان المحبـة الغريـزية التي تنمـو من الأعراف والعـادات المشتـركـة هي ، عـلى الأغلب ، جزء جوهري من الشعور بـالوطنيـة وهي الأساس الـذي يدعم ذلك الشعور .

اذا كان للبيئة ان تسـاعد نمـو الناس الـطبيعي وليس أنْ تعيقه ، واذا كان لأكثر رغائبهـم وحـاجاتهم ان تجد كفاية ، فعلى المؤسسات السياسية ان تضم الى اقصى حـد ممكن غايـات مشتركـة وان ترعى المحبـة الغريـزية . تتعلق هاتان الغـايتان تعلقـاً وثيقاً بعضهـا ببعض لأن ليس هناك اي شيء اكـثر فَتْكاً بـالمحبة الغـريزيـة من وجود غـايات سـاء نموهـا وحاجـات مُنع

اكتفاؤها ولا شيء مثل المحبة الغريزية يجعل التعاون سهلاً من اجل اهداف مشتركة . عندما لا يجد الانسان شيئاً يحجب نموه ، يبقى احترامه لذاته سلبياً ولا يجد ضرورة لان يعتبر الآخرين اعداءه . ولكن عندما يُعاق نموه لاي سبب من الأسباب أو عندما يُفرض عليه ان ينمو بشكل ملتو وغير طبيعي ، تُصوِّر له غريزته البيئةَ كعدو ، فيمتلىء كراهية لها . عندئذ يهجره حب الحياة ويأخذ الحقد مكان الشعور بالصداقة . ان حقد المقعَدين والعرْجان مشهور واننا نجد حقداً مشابهاً عند اولئك الذين أُقعِدوا بطرق غير مباشرة . سوف لن نُحقِّق الحرية قبل ان نقطع شوطاً بعيداً في تحطيم معارج الحقد .

من الشائع الاعتقاد بان ما هو غريزي فينا غير قابل للتغيير ، ولهذا فانّه من الضروري ان يُقبل ويَستمر على افضل وجه ممكن . ليست الحال على هذا الشكل . ليس هناك من شك بان فينا عاملاً طبيعياً يختلف باختلاف الناس ويتكيّف مع العوامل الخارجية في تكوين خُلُقٍ ما . ولكن حتى القسم الغريزي في خلقنا قابل للتغيير . قد يتغير بواسطة المعتقدات والعوامل المادية والظروف الاجتماعية والمؤسسات . يوجد في الانسان الدانمركي نفس الميل الطبيعي تقريباً الذي يوجد في انسان الماني ، ولكن غرائز الدانمركي تختلف في فترة شبابه كثيراً عن غرائز الألماني وذلك لغياب الروح العسكرية وانعدام التباهي بدولة كبيرة . من الواضح ايضاً ان غرائز العوانس تختلف اختلافاً كبيراً عن غرائز بقية النساء والرجال . تستطيع اية غريزة تقريباً ان تأخذ اي شكل طبقاً لطبيعة المنفذ الذي تجده . يمكن لنفس الغريزة التي تقود الى الابداع الفني او العقلي ان تقود تحت وطأة ظروف اخرى الى الحرب . اذن لا يشكل القول بان نشاطاً ما او معتقداً ما هو ناتج عن الغريزة حجة للقول بان الغريزة هي غير قابلة للتبدل .

يصح هذا القول على ما يحبه الناس او يكرهونه بحكم الغريزة كما يصح على بقية غرائزهم . إنّ من حكم الطبيعة في الانسان كما في الحيوان ان يحب بعض افراد جنسه وان يكره بعضاً آخر ، ولكن نسبة ما يحب وما يكره تتوقف غالباً على ظروف سخيفة جداً . يميل كثيرون الى الاعتقاد بان سبب كراهية كارليل للجنس البشري يعود الى عسر في جهازه الهضمي ، ولكن من المحتمل جداً ان وصفة طبية مناسبة قد تعطيه نظرة مختلفة تماماً عن العالم . هناك عاهة في اساليب الجزاء لأنها اداة في معاقبة الميول التي يرغب المجتمع في اضعافها ، ولكنها لا تفعل شيئاً لمنع وجود الميول بالدرجة الأولى ، بل تسعى للحد من انغماسها برفعها الى محكمة المصلحة الذاتية . لا يقتلع هذا الاسلوب الميول من جذورها ، ولهذا فانه من المحتمل جداً ان يدفعها لان تجد ، حتى ولو كانت ناجحة في موضوعها المباشر ، منافذ أخرى . فمجرد ذكر المصلحة الذاتية لا يكفي لردع الميول القوية وذلك لان المصلحة الذاتية ليست رادعاً قوياً الا عند بعض الناس العاقلين فوق العادة وغير العاطفيين على الاطلاق . نحن نظن ان المصلحة الذاتية هي دافع اقوى مما هي وذلك لأن احوالنا المتقلبة تخدعنا عما ينفعنا وتقودنا بعد ذلك الى الاعتقاد بان مصلحتنا الذاتية هي غير متناقضة مع الأفعال التي تدفعنا اليها الميول والرغائب .

وهكذا نجد الاعتقاد الشائع بان الطبيعة الانسانية لا يمكن ان تتغير خاطئاً . كلنا يعلم ان خُلُقنا وخُلُقَ من نعرف تتأثر بالظروف وما هو صحيح بالنسبة للأفراد هو كذلك صحيح بالنسبة للأمم . تعود الأسباب الاساسية للتغيرات في معدل الطبيعة الانسانية بشكل عام الى تغيرات مادية بحتة كالمناخ مثلاً او الى تغيرات في درجة سيطرة الانسان على العالم المادي . يمكننا ان نتجاهل التغيرات المادية البحتة طالما انها لا تهم عالم

السياسة . ولكن تحتل التغيرات الناجمة من جراء سيطرة الانسان المتزايدة على العالم المادي ، عن طريق الاختراع ، مرتبة بعيدة الأهمية في الوقت الحاضر . لقد استطاع المخترعون ، من خلال الثورة الصناعية ، ان يغيّروا بشكل جذري حياة الناس . وتمكّنوا بانشائهم مؤسسات صناعية ضخمة من تغيير بنية المجتمع بأكملها . لقد اختلفت معتقدات العامة التي هي على الأرجح نتيجة الغريزة والظروف عما كانت عليه في القرن الثامن عشر . غير ان مؤسساتنا لا تزال كما هي غير ملائمة لاي من غرائزنا التي توسعت بفعل الظروف الجديدة او معتقداتنا الحقيقية . ان للمؤسسات حياتها الخاصة وغالباً ما تعيش اطول من الأوضاع التي جعلتها غطاء ملائماً للغريزة . يصح هذا القول بدرجات متراوحة على اكثر المؤسسات التي ورثناها من الماضي كالدولة والملكية الخاصة والعائلة الابوية والكنيسة والجندية والبحرية . لقد اصبحت كل هذه المؤسسات طاغية الى درجة كبيرة وحتى انها في بعض الأحيان معادية للحياة .

انه من الضروري جداً في اية محاولة جدية للاصلاح السياسي ان نعلم ما هي الحاجة الاكثر حيوية عند الناس العاميين . جرت العادة في التفكير السياسي ان يُفترض ان الحاجات التي تعالجها السياسة هي حاجات اقتصادية فحسب . ولكن هذه النظرة غير قادرة على تعليل حادثة من نوع الحرب الحاضرة لان أيّ دافع اقتصادي يمكن ان يُعزى اليها هو اسطوري الى درجة بعيدة ، يجب ان نطلب اسبابها الحقيقية خارج دائرة الاقتصاد . تبقى الحاجات التي تُشْجَعُ من غير جهد واع ، غير معترف بوجودها عادة ، وعلى هذا يمكن ان نقترح لحاجات الناس نظرية جديدة ليست على درجة كبيرة من البساطة وبالتالي تحتاج الى إثبات . كانت هناك حاجات مكتفية قبلاً ولكنها بقيت غير مكتفية عند اكثر الناس بعد الثورة

الصناعية . والنظرية القديمة ، التي هي على درجة كبيرة من السذاجة ، لا تزال قائمة لتجعل النـاس يخطئـون تصور المصـدر الحقيقي لعدم الاكتفـاء الحـالي وبذلـك يلجأون الى ابتـداع نظريـات خاطئـة ليفسروا سبب عـدم اكتفائهم . تبدو لي الاشتراكية كهاجس مخطئةٍ في هذه النـاحية اذ انها عـلى اتم الاستعـداد لان تفترض ان ظـروفاً اقتصـاديـة افضـل يمكن ان تجعـل الناس سعداء . ليس الناس بحاجة الى ادوات مادية افضل فحسب ، بل هم بحـاجة ايضـاً الى حريـة اكثر والى تـوجيه ذاتي اكـثر والى انفتـاح عـلى الابداع ، الى فُرَصٍ اكـثر للابتهـاج بالحيـاة والى تعاون مشتـرك اكثر والى خضوع اقل لأهـداف ليست من ابداعهم . يجب ان تحـاول مؤسساتنـا في المستقبـل ان تخلق كل هـذه الأشياء اذا أردنـا لمعرفتنـا المتزايـدة بالـطبيعـة ولقوتنا في السيطرة عليها ، ان تعطي ثمارها الكاملة في خلق حياة هانئة .

الفصل الثاني

الدولـة

يبـدو ان التفكير الليبـرالي قد أخـذ يميل في السنـوات الأخيرة ، تحت تـأثير النـظرة الاشتراكيـة ، الى منح الـدولة سلطة متـزايدة مـظهـراً بعض العداوة نحو مكانة الملكية الخاصة . نجد مقابل ذلك ان النظرة النقـابيّة تُظهر عداوة لكل من الدولة والملكية الخاصـة معاً . انـا اميل الى الاعتقـاد بأن النظرة السنديكالية اقرب الى الصـواب من النظرة الاشتـراكية في هـذا الشـأن وذلك لان كـلاً من الملكيـة الخـاصـة والـدولـة ـ اللتـين همـا اكـثر المؤسسات سيطرة في العالم المعاصر ، يَـزيد من فقـدان الحيويـة التي يشكو العالم منها بشكل مضطرد . تتعلق هاتان المؤسستان ببعضها تعلقـاً وثيقاً ، ولكن دراستي ستقتصر في الوقت الحاضر على الدولة . سوف أُظهـر المدى الذي تَوَصلت اليه اكثر سلطات الدولة ، والى اي حـد هي غير ضـرورية وضـارة ، وسـأبـين كيف يمكن تخفيفهـا من دون اجـراء ايـة خســارة في منـافعها . ولكنني سـوف اقدم اقتـراحاً يـرمي الى تمديـد مهام الـدولـة في نواحي اخرى بدلاً من تقصيرها .

يمكن ان تقـوم بمهام الـدولة التي تتعلق بـالبـريـد والتعليم الابتـدائي مؤسسات خاصة ، ولكن الدولة تقوم بها بدافع من الملائمة . ولكن هناك أمور ثانيـة يتعذر ان نتصـورها في أيـدٍ أخرى ، مـا دام هناك دولـة ، مثل القانون والبـوليس والجيش والبحريـة . يختلف الاشتراكي والفـردي حول

مهام الدولة غير الاساسية اذ يتمنى الاشتراكي تمديدها والفردي تقصيرها . يتفق الاشتراكيون والفرديون على بعض مهام الدولة الاساسية، وهذه هي الأمور التي ارغب في انتقادها لان المهام غير الاساسية هي ، بحد ذاتها ، غير جديرة بالاعتراض .

ان الشيء الجوهري في الدولة هو كونها مصب قوى المواطنين مجتمعة . تأخذ هذه القوى شكلين : شكلاً داخلياً وشكلاً خارجياً . يتمثل الشكل الداخلي بالقانون ، والشكل الخارجي يتمثل بالمقدرة ، التي تتجسد في الجيش والبحرية ، على شن حرب ما . تتكون الدولة من جرّاء ضم قوى كل سكان منطقة معينة تحت امرة حكومة ما . تَستعمل الدولة المتحضرة القوة ضد مواطنيها وفقاً لشروط يُعيِّنها القانون الجزائي . اما استخدام القوة ضد الغرباء فلا تضبطه اية انظمة او قواعد ، بل يُترك ، باستثناء بعض الحالات الخاصة ، الى تقلبات المصلحة القومية أكانت هذه حقيقة ام وهمية .

ليس من شك في ان القوة التي تُستخدم طبقاً للقواعد والقانون هي اقل اذى من القوة التي تحركها الاهواء . فلو تسنى للقانون الدولي ان يسيطر على عواطف الولاء عند الناس سيطرة كافية في تنظيم العلاقات بين الدول لأحرزنا تقدماً كبيراً على وضعنا الحالي . الفوضى البدائية التي تسبق تشكيل القانون هي اسوأ من اسوء القوانين . انا اعتقد ان من السهل ايجاد منزلة تعلو على القانون ، نتمتع فيها بذات المنافع التي يمكن ان نحصل عليها من خلال القانون ومن دون اية خسارة في الحرية ومن دون التعرض لذات المضمار التي يجعلها القانون او البوليس محتّمة . من المحتمل ان يكون وجود بعض قوى الاحتياط ضرورياً ولكن استخدام القوة الفعلي يصبح نادراً كما تصبح درجة القوة المطلوبة ضئيلة . ان

الفوضى التي تسبق القانون تعطي حرية الى الرجل القوي فقط ، ولكن الحرية التي نطمح اليها تجعل كل فرد تقريباً حراً . نستطيع تحقيق مثل هذه الحرية ليس بمحو وجود القوة المجهّزة محواً كلياً ، بل بوضع اكبر حد ممكن لمناسبات استخدامها .

يحد سلطة الدولة داخلياً الخوف من الانقلاب وخارجياً الخوف من الانهزام في الحرب . واذا صُرف النظر عن هذه المخاوف ، فسلطة الدولة مطلقة . يمكن ان تستولي الدولة في الواقع من خلال الضرائب على ممتلكات الناس ، كما يمكنها ان تحدد قانون الزواج والميراث ، وان تعاقب التعبير عن الآراء التي لا تعجبها ، وان تنكِّل بمن يطالب بضم مقاطعته الى دولة اخرى ، وان تأمر كل ذكر ذي بنية سليمة بالسير الى الحرب كلما وجدت ان شن الحرب هو في صالحها . وفي نواحي اخرى متعددة تُعتبر مخالفةُ اهدافِ الدولة وآرائها جريمة . لربما كانت اميركا وبريطانيا قبل الحرب اكثر دول العالم تمتعاً بالحرية ، ولكن حتى في اميركا لا يسمح لاي مهاجر ان يطأ ارضها قبل ان يعترف بعدم ايمانه بالفوضوية السياسية وتَعدُّدِ الازواج ، بينما كان الناس في انكلترا في السنوات الأخيرة يُزَجون في السجون لمجرد اعلانهم عن مخالفتهم للديانة المسيحية[1] او لموافقتهم لتعاليم المسيح[2]. يعتبر كل انتقاد للسياسة الخارجية عملاً اجرامياً . فاذا رغبت الاكثرية ، او اصحاب السلطة الفعلية ، في شيء ما ، كان من المفترض ان كل من لا يرغب في ذلك الشيء تعرض لاشنع انواع العذابات والعقوبات مثل العذابات والعقوبات التي تعرض لها الهراطقة في

---

(1) اضطهادات المبدعين .

(2) اضطهاد السنديكاليين (يجب ان نضيف الآن معاقبة دعاة مقاومة الحرب عن دافع ضميري . 1916).

الماضي . ان مدى الطغيان الذي يطبق في هذه الحالة يتوقف على مدى نجاحه . قليل من الناس يحجم عن فتح باب الاضطهاد عند ما يتأكد انه سيكون اضطهاداً ساحقاً .

خدمة العَلَم الالزامية هي ربما المثل الاقصى عن قوة الدولة والشاهد الأول عن الفرق بين نظرتها الى مواطنيها ومواطني الدول الأخرى . تجازِي الدولة بصرامة تامة كل من يقتل مواطنيه وكل من يرفض قتل مواطني الدول الأخرى . وبوجه عام يعتبر الوضع الأخير جريمة اسوأ . ان الحرب ظاهرة مألوفة ويفشل الناس في ملاحظة غرابتها ، انها بالواقع تبدو لمن يعيش طبقاً لغرائزه الحربية طبيعية ومعقولة ، اما من يأبى ان يعيش وفقاً لتلك الغرائز ، فيجد استغرابه للحرب ينمو بشكل مألوف تماماً . من المدهش كيف تتساهل اكثرية الناس بوجود نظام يجبرهم على الخضوع لأهوال المعركة في اية لحظة تشاؤها حكوماتهم . يجد الفنان الافرنسي غير العابىء بالسياسة والمُنكَبّ على لوحاته فقط ، نفسه فجأة مدعواً لقتل الألمان الذين هم ، كما يؤكد له رفاقه ، سخطة على الجنس البشري كله . وكذلك يجد الموسيقي الألماني نفسه مدعواً لقتل الافرنسي الخدّاع . فلماذا لا يستطيع الاثنان ان يتركا الحرب الى اولئك الذين يهوونها وَيَشهرونها ؟ والفظاعة في الأمر انه اذا اعلن الفنانان حيادهما ، قتلهما على الفور بقية المواطنين : اما اذا حاولا التخلص من هذا المصير ، أُرغما على قتل احدهما الآخر . فاذا خسر العالم الفنان ، وبقي الموسيقي حيّاً فرحت المانيا ، اما اذا خسر العالم الموسيقي وليس الفنان ، ابتهجت فرنسا . ولكن لا احد يفتكر ان خسارة الحضارة متساوية ايهما قتل .

ان سياسة كهذه هي سياسة « بدلامية » جنونية . فلو سُمح للفنان وللموسيقي بان يتجنبا الحرب ، لحصدت البشرية خيراً كلياً . ان سلطة

دولة ، تجعل ذلك التجنب مستحيلاً ، هي شر كلها كسلطة الكنيسة حينها كانت تدفع الناس الى الجحيم لمجرد ان افكارهم غير مستقيمة . لو نشأت في ايام السلم منظمة دولية تمثّل فيها الألمان والافرنسيون باعداد متساوية وأقسموا على ان لا يشتركوا في الحرب ، لوجدت تلك المنظمة اضطهاداً متساوياً من كلا الدولتين : الافرنسية والألمانية . يطيع المواطنون المعاصرون بلدانهم الديموقراطية طاعة عمياء ويظهرون رغبة غير محدودة في القتل والاضطهاد ، كما كان يفعل تماماً جيش الانكشارية عند السلاطنة العثمانيين والعملاء السريون عند الطغاة الشرقيين[1].

يمكن ان تؤثّر سلطة الدولة ليس من خلال القانون فقط ، بل من خلال الرأي العام ايضاً ، كما هي الحال في انكلترا . تُكوِّن الدولة ، بواسطة الخطابة والصحافة ، الرأيَ العام تكويناً شبه تام . والرأي القاسي هو عدو الحرية ، وعداوته ليست بأقل وطأة من عداوة القوانين الجاحفة . اذا وَجد الفتى الذي يرفض ان يذهب الى الحرب ، نفسه مصروفاً من عمله ، مهاناً في وسط الشوارع ، مُتجنَّباً من رفاقه ومزدرىً من صاحبته ، فسيشعر ان العقاب صعب الاحتمال صعوبة الحكم بالاعدام[2]. لا

---

(1) تقول وست مينستر غازت في عدد عن التطوع صدر في 29 كانون الأول سنة 1915 :
« من المفروض على الاكثرية ان تحكم في البلاد الديموقراطية . أما الأقلية فيجب ان ترغم على الخضوع مع الفضل شكر ممكن ».

(2) اعطى السيد رينالد كامب ، المسؤول عن دائرة تشريح الموتى في ميول ساكس الغربية ، بعض الملاحظات عن تصرف بعض النساء اللواتي يلبسن قبعة مزدانة بريشة بيضاء . لقد شرّح يوم السبت في ألِنْغْ جسد ريتشارد شارل روبرتز البالغ من العمر اربعاً وثلاثين عاماً . انتحر هذا الشاب الذي كان يسوق احدى السيارات العمومية في شارع شابرد بوش ، بسبب القلق الذي حصل له من تعذيب النسوة المتعاونات مع بعض الرجال محترفي مهنة التطوع لانه رفض =

يتطلب المجتمع الحر حرية قانونية فقط ، بل كذلك رأي عام متساهل وغياب ذاك التدخل الغريزي في شؤون جيراننا الذي يتيح المجال ، تحت ستار المحافظة على وضع خلقي عال ، امام أناس حسني النية لكي يشبعوا ، بلا وعي منهم ، ميلهم الى القساوة والاضطهاد . ليس اتهام الآخرين بالسوء بحد ذاته سبباً لان نظن الخير في انفسنا . ولطالما تبقى هذه الحقيقة غير مفهومة ، ولطالما تقدر الدولة ان تُكوِّن الرأي العام باستثناء بعض الحالات حيث تكون الدولة ثورية ، فمن الضروري ان يُحسب الرأي العام كأنه جزء مما يؤلف سلطة الدولة .

تستمد الدولة على الأرجح سلطتها في خارج حدودها من الحرب او التهديد بالحرب . تستطيع ايضاً فرض سطوتها خارجياً من خلال قدرتها على اقناع مواطنيها باعطاء قروض الى البلدان الأخرى أم لا ، ولكن هذه السطوة لا تعتبر شيئاً مُهماً اذا ما قيست بقوتها المستمدة من الجيوش

الانخراط في الجندية .

لقد ورد في هذه الملاحظات ان الشاب التحق بالجيش في تشرين الأول ، ولكنه رُفِض لضعف في قلبه . كان هذا الرفض كافياً لازعاجه على حد قول أرملته . ثم داخله الاضطراب ظناً منه بأن رخصة سواقته ستؤخذ منه بسبب ذلك الضعف . وفي الوقت ذاته كان جزعاً ايضاً لأن احد اولاده في حالة مرضية خطيرة .

قال جندي ، يمت له بالقرابة ، ان حياة الراحل اصبحت يائسة تماماً لأن النساء كن يُعَذِّبْنه ويسمينه جباناً لأنه لم يلتحق بالجندية . ومنذ بضعة ايام انقضّت عليه امرأتان في مايدافيل « بشكل رهيب » .

كان المشرح يتحدث بشيء من الحماس قائلاً ان تصرف هؤلاء النساء هو تصرف لا يطاق . انه شيء مهين جداً لان يُسمح لنساء لا يَفْقَهْنَ شيئاً عن الظروف الشخصية بأن يجعلن حياة رجال حاولوا القيام بواجبهم غير محتملة . من المؤسف جداً ان لا يكون عند هاتيك النساء شيء آخر يقمن بعمله .

والبحرية . ان اعمال الدولة الخارجية هي انانية ، فيما عدا بعض الحالات النادرة التي لا تستأهل ان تذكر . تُحدُّ في بعض الاحيان الحاجةُ الى الاحتفاظ بعلاقة طيبة مع الدول الأخرى من الانانية ، ولكن هذا التعديل يطرأ على الأساليب المستخدمة لتحقيق الأهداف وليس على الأهداف ذاتها . الأهداف المبتغاة ، بصرف النظر عن الحاجة الى الدفاع عن النفس في وجه الدول الأخرى هي مناسبات للاستثمار الفعال للدول الضعيفة أو غير المتحضرة من ناحية ، ولتضخيم العز والسيادة التي تعتبر شيئاً اكثر مجداً وأكثر تعالياً من الأموال من ناحية اخرى . لا تتوانى اي دولة في سبيل تحقيق هذه الأهداف عن قتل العديد من الاجانب الذين لا تتناسب سعادتهم مع الاستعمار والخضوع او عن تخريب المقاطعات التي يظن أنّ من الضروري ان يصيبها الهلع . ارتكبت هذه الفظائع كل الدول الكبيرة وبعض الدول الصغيرة ـ ما عدا النمسا التي لم تنقصها الارادة وانما المناسبة خلال السنوات العشرين الماضية باستثناء الحرب الحاضرة[1] .

لماذا يرضخ الناس لسلطة الدولة ؟ هناك اسباب متعددة يعود بعضها الى التقليد وبعضها الآخر يرجع الى اشياء حاضرة وحرجة جداً .

السبب التقليدي لطاعة الدولة هو الخضوع الشخصي للسلطان او الحاكم . نمت الدول الاوروبية على مخلّفات النظام الاقطاعي اذ ان اراضيها كانت مقاطعات يمتلكها سادة الاقطاع . اندثر مصدر هذه الطاعة التقليدية وربما لم يبق له وجود الا في اليابان والى درجة ما في روسيا .

---

(1) ارتكبتها انكلترا في جنوب افريقيا ، الولايات المتحدة في الفليبين ، فرنسا في مراكش ، ايطاليا في طرابلس الغرب ، المانيا في جنوب افريقيا ، روسيا في ايران ومنشوريا واليابان في منشوريا .

لكن لا يزال الاحساس القبلي ، او العصبية ، الذي كان دائماً اساس طاعة الحاكم، قوياً وهو يشكل الآن الدعامة الأولى لسلطة الدولة . يجد كل انسان تقريباً ان من الضروري لشعوره بالسعادة ان يكون عضواً في جماعة تحركها صداقات وعداءات مشتركة وتتلاحم سوية في الدفاع وفي الهجوم . ولكنْ هناك نوعان من هذه الجماعات . الجماعات التي هي مكبرات عن العائلة والجماعات التي تبنى على هدف مشترك مَدْرُوس . ترجع الأمم الى الفئة الأولى والكنائس الى الفئة الثانية . فعندما تُهيِّج الناسَ عقائدُ دينية ، فغالباً ما تتبخر الفوارق القومية ، كما حصل في الحروب الدينية بعد حركة الاصلاح . في هذه الحالة تصبح العقيدة الدينية رابطاً اقوى من الوطنية المشتركة . (حصل وضع مثل هذا ، ولكن بدرجة اقل ، في العالم المعاصر مع تقدم الاشتراكية) مع قدوم الاشتراكية الى العالم المعاصر ، حصل وضع كهذا ، ولكن الى درجة اقل . ففي الناس الذين لا يؤمنون بالملكية الخاصة بل يشعرون ان الرأسمالي هو عدوُّهم الحقيقي رابطة تعلو على الفوارق القومية . لم يظهر بعد ما اذا كانت تلك الرابطة هي من القوة بحيث تستطيع مقاومة الميول التي تغذي الحرب الحاضرة ، ولكن ما ظهر منها يدل على انها جعلت ميول الاشتراكيين الى الحرب اقل حدة من غيرهم وبهذا أُحْيِيَتْ الأمل باعادة بناء مجتمع اوروبي بعد انتهاء الحرب . لكن الرفض الشامل ، بوجه عام ، لكل العقائد الدينية ترك الشعور القبلي مُنْتَصِراً والشعور القومي اقوى مما كان في أي حقبة من التاريخ . لقد أنِس بعض المسيحيين المخلصين والاشتراكيين الصادقين قوة في معتقداتهم ، قادرة على مقاومة هجمات الشعور القومي ولكنهم كانوا قلة ضئيلة لم تستطع تغيير مجرى الحوادث او تسبيب قلق فعلي للحكومات .

يُولِّد الشعورُ العصبي الوحدةَ في الأمة بشكل رئيسي ، ولكنه لا يولد قوتَها بمفرده . تتولد قوة الأمة بشكل رئيسي من خوفين اثنين من دون اي يكون ايهما بعيداً عن العقل : اولاً الخوف من تفشي الجريمة والفوضى في الداخل وثانياً الخوف من الاعتداء الخارجي .

ان الاستقرار الداخلي في مجتمع متحضر هو انجاز كبير والدولة هي المسؤول الأول عن ايجاده . كم هو مزعج ان يجد المواطنون الآمنون انفسهم في حالة دائمة من الخوف والجزع على ممتلكاتهم وارواحهم ؟ اذا ما جهز هواة المغامرات جيوشاً خاصة للنهب والسرقة ، اصبح الأمل بحياة راقية مستحيلاً . لقد ولّت ظروف هذه المغامرات مع القرون الوسطى وما كان مَضيُّها بغير مقاومة شرسة . ولا يزال الاعتقاد شائعاً حتى الآن وخاصة بين الاثرياء الذين يستفيدون اكثر ما يمكن تحت ظل النظام والقانون ، ان اي انخفاض في سلطة الدولة يقود الى فوضى عامة . فينظرون الى الاضطرابات كأنها طلائع التفكك الاجتماعي وترتعد فرائصهم لرؤية منظمات مثل الفيدرالية العامة للعمل Confédération Générale du Travail والاتحاد العالمي للعمال International Workers of the World يتذكر اصحاب ذلك الاعتقاد الثورة الفرنسية فيرتعدون ويَتلمَّسون رؤوسهم اذ انها الشيء الوحيد الذي يرغبون في المحافظة عليه . يرهبون بشكل خاص كل نظرية يبدو انها تجد عذراً للجرائم الخاصة كأعمال التخريب sabotage والاغتيال الاساسي . لا يجدون حماية من هذه المخاطر الا في قوة الدولة ولهذا يعتقدون ان كل مقاومة للدولة هي شر بحد ذاتها .

يزيد الخوف من الاعتداء الخارجي الخوف من خطر داخلي . كل دولة هي معرضة في كل وقت لخطر الغزو من الخارج . لم تُبتَدع حتى الآن

ايُّ وسيلة لتخفيف ذلـك الخطر سـوى وسيلة التسابق في التسلح . ولكن السلاح الذي يراد به دفع الغزو الخارجي هو نفس السلاح الذي يمكن ان يستخدم للغزو . هكذا نجد الوسيلة التي يمكن ان تزيل الخوف من الغزو الخارجي هي ذات الوسيلة التي يمكنها ان تزكيه وبالتالي تجعل الحـرب اذا ما وقعت بالفعل ذات مفعول هدام . وبهذا تُنزِل بالناس حالة من الرعب وتـأخذ الـدولة في كـل مكان صفـة المجـالس الثـوريـة Comité du salvt public.

ان الشعـور الذي تنمـو منه الـدولة هـو شعور طبيعي ، ولهـذا نجـد الخـوف على الـدولة معقـولاً في الظروف الحـاضرة . بـالاضافـة الى هذين المصـدرين لقوة الـدولة ، هنـاك مصدر آخـر ألا وهـو الـوطنيـة المتـطرفـة والمشابهة للغيرة الدينية .

الوطنية هي شعور مركب مبني على غرائـز اولية ومعتقـدات ساميـة . يدخل في تـركيب الشعور الـوطني حب المنزل والعـائلة والأصحاب الـذي يجعلنا حريصين جداً على المحافظة على وطننـا من الغزاة ، ومحبـة غريـزية نُضْفيها على المواطنين ونمنعها عن الاجانب ، وافتخار بنجاح مجتمعنا الذي نشكل جزءاً منه . يعتقد كـل انسان اعتقـاداً يُزكيـه حب الافتخار ويثبتـه التاريخ بأن وطنه يمثل تقليداً عـظيماً ويقف بجـانب المُثُلِ التي تهم الجنس البشري كله . ولكن هناك بالاضافـة الى كل هـذا ، عنصر هو في الـوقت نفسه اكثر نبلاً واكثر تعرضاً للمهاجمة ، هـو عنصر العبادة ، عنصر الارادة المضحية ، عنصر الفرح بـذوبان حيـاة الفرد في حيـاة الأمة . يشكـل هذا العنصر الناحية الدينية في الوطنية التي هي اساسية لقوة الدولة ويضع افضل شيء في حياة الناس تحت لواء التضحية في سبيل الأمة .

يزكي التعليم العنصر الديني في الوطنية وخاصة دراسة تاريخ وأدب الأمة التي ننتمي اليها ، لا سيما حينما تكون غير مرفقة بدراسة لتاريخ الأمم الأخرى وآدابها . يُشدِّد في تعليم النشء ، في كل الأمم المتحضرة ، على حسنات أُمّتِهم وسيئات الأمم الأخرى . فيؤمن الفرد بأن امته تستحق الدعم في أي نزاع ، مهما كان سبب نشوئه ، لأنها امة متفوقة . يصبح هذا الايمان طبيعياً جداً لدرجة انه يجعل الناس تحتمل كل الخسائر . هذا الايمان ، الذي يشابه الايمان في الديانات المقبولة بكل صدق وطوعية ، هو نظرة شاملة للحياة مبنية على غريزة متعالية sublimated تدفع الى التعلق بغاية تعلو كلَّ غاية شخصية ، غاية تحتوي على غايات شخصية متعددة كما لو كانت في حالة انصهار .

ان الوطنية كديانة هي غير مرضية اذ ينقصها الشمول الكلي . الخير الذي ترمي اليه الوطنية هو خير امة الفرد منا وليس خير العالم اجمع . والرغائب التي توحيها الوطنية في الرجل الانكليزي هي غير الرغائب التي تكشفها للالماني . ولذلك يصبح العالم الممتلىء بالوطنيين عالم نزاع وصراع . وكلما اشتد ايمان الأمة بوطنيتها اشتدت لا مبالاتها بنكبات الأمم الأخرى . عندما يتعلم الناس اخضاع خيرهم لخير مجموعة اكبر ، لا يبقى اي سبب شرعي يمنعهم من معانقة الجنس البشري بأسره . ما يجعل ميول الناس الى التضحية تتوقف عند حدود وطنهم هو في الواقع admixture دُفْعَة من التكبر القومي . وهذه الدفعة تُسمِّم القومية وتجعلها فيما اذا قيست بالمعتقدات التي تهدف الى خلاص البشرية جمعاء ديانة دُنْيا . نحن لا نستطيع ان نهرب من الحقيقة ، كلنا يحب وطنه اكثر من بقية الأوطان الأخرى ، وليس من مبرر لهذا التهرب كما ليس من مبرر لافتراض ان من الضروري ان نُحب كل النساء والرجال في العالم بشكل متساو . ولكن

واجب كل ديانة على اقل تعديل ، الديانة التي تحترم ذاتها ، ان تقودنا الى ان نعرف كيف نوفق بين محبتنا للأفراد غير المتساوية وبين شعورنا بانصافهم ، وان نعرف كيف نجعل اهدافنا عالمية لنحقق مطالب يشترك فيها كل انسان . لقد ادخلت المسيحية هذا التغيير على اليهودية ، ومن الضروري ان يدخل هذا التغيير على اية وطنية دينية قبلما تنقى من شرورها الأخرى .

يتصدّى للوطنية ، في الواقع اعداء كثيرون . فنمو الكوسموبوليتية شيء محتم بسبب التعرف على البلدان الاجنبية من خلال التعليم والتجول . وبالاضافة الى ذلك هناك نوع من الفردية التي تنتشر باستمرار ، فردية مبنية على الاعتقاد بان كل انسان يجب ان يملك اكبر قدر من الحرية لاختيار غايات هو المسؤول الأول عن تحديدها وليس غايات يفرضها عليه وجوده العرضي في بيئة معينة . تقف الاشتراكية والسنديكالية وكل حركات مقاومة الرأسمالية بشكل عام ضد الوطنية ، وتذكّر هذه الحركات الناس بان الدولة تدافع حالياً أول ما تدافع عن امتيازات الاغنياء ولهذا يرجع كثير من الاختلاف بين الدول الى المصالح المالية لحفنة قليلة من الحكام الاثرياء . قد تكون مقاومة تلك الحركات للوطنية مقاومة وقتية ، او قد تكون احدى نقاط الصراع العمالي من اجل الاستيلاء على السلطة ليس الا . اننا نرى اوستراليا حيث احرز العمال انتصاراً لا خوف عليه من الانحدار ، مملوءة بالتعصب الوطني والعسكري ، ويرجع هذا التعصب الى اصرار العمال على منع العمل الاجنبي مشاركتهم ارباحهم الناتجة عن وضعهم المتميز . واذا اصبحت انكلترا دولة اشتراكية ، فلا يبعد عن التصور ابداً ان تملأها موجة مماثلة من التعصب القومي مع فارق وحيد اذ من المحتمل ان تكون قومية دفاعية

فقط . قلما تَرسم خططَ الغزو الخارجي ، التي تؤدي الى خسارة فادحة في حياة الأمة المهاجمة ، الا ايدي اولئك الذين تَغَذَّتْ غرائزُ حب السيطرة فيهم على السلطة المتولدة من الملكية الخاصة ومن مؤسسات الدولة الرأسمالية .

ان الشر الذي أصاب العالم المعاصر بسبب طفحان كيل سلطان الدولة هو كبير جداً ، والغريب في الأمر ان لا يدري به غير القليلون .

ان اهم الاضرار التي تجلبها الدولة هي جعل الحرب شديدة الفعالية فاذا زادت كل دولة قوتها العسكرية ، لا يتغير ميزان القوى ولا تحصل لأيٍ منها مناسبة للانتصار اكبر مما كانت قبل . عندما توجد وسائل الهجوم ، تصبح الرغبة في الهجوم عاجلاً ام آجلاً مغرية جداً حتى ولو كان الهدف الأولي من ايجادها دفاعياً فقط . هكذا تؤدى الوسيلة التي تجلب الأمن في الداخل الى عدم الأمن في الخارج . ان منع استخدام العنف في الداخل وتحريضه في الخارج هما من جوهر الدولة . تضع الدولة فاصلاً اصطناعياً بين الناس وبين واجباتنا نحوهم . فنحو مجموعة ما نحن مقيدون بالقانون ونحو مجموعات اخرى لا تقيدنا الا دراية قطاع الطرق . ان ما يجعل الدولة شراً هو تفضيلها مجموعة ما على مجموعات اخرى ، اضف الى ذلك انه عندما تأخذ الدولة شن حرب عدوانية على عاتقها ، يصبح رجالها مزيجاً من القتلة واللصوص . ان جهاز الدولة الحاضرة لا تتحكم به اية ظاهرة من ظواهر العقل والمنطق لان الفوضى chaos الداخلية والفوضى الخارجية يجب ان يكون كلاهما صحاً معاً او خطأ معاً . لكن هذا الجهاز يجد دعماً من الجميع لأنهم يعتقدون بانه الطريق الوحيدة الى الأمان ولانه يولد لذة الانتصار والسيادة التي لا يمكن ان يتم الحصول عليها في مجتمع حسن ، فلو تخلى الناس عن طلب تلك الملذات ، او لو

استحـال الحصول عليهـا ، لسهـل ايجـاد حـل لمشكلة الخـوف من الغـزو الخارجي .

ان الدولة المعاصرة بصـرف النظر عن الحـرب ، ضارة وذلـك بسبب كبرها الـذي يُرهب الفـرد ويُذهله . لا يقـدر المواطن ، الـذي لا تُرضيـه اهداف دولته ، ان يتأمل في اقناعها بتبني غايات تَظهر له افضل غاياتها الا اذا تمتـع بمواهب نـادرة . يَحُلُّ في البلدان الـديمـوقـراطيـة عـددٌ قليـل من المواطنين البارزين كلَّ المشاكل ما عدا جـزء بسيط منها . ويُتـرك تقريـرُ ما تبقى من مشاكل الى نتـائج الاقتـراع العام الـذي تسوده فـوضى الجماهـير المتحمِّسـة ، لا الانطلاقـة الفرديـة . تـظهـر هـذه الحقيقـة في دولـة مثـل الولايات المتحدة حيث يشعر اكثر الناس عـلى الرغم من انهم يعيشـون في بلد ديموقراطي ، بعجز شبه تـام ازاء كل المسـائل الكبيـرة . في دولة بمثـل هذا الحجم ، تُعتبر الارادة الشعبية كاحدى القوى الطبيعية وتصبح كتلك القـوى خارجـة عن نطاق سيـطرة الانسان . تقـود هذه الحـالة ، ليس في اميركا وحدها بـل في كل الـدول الكبيرة ، الى الكلل وضيعـان الشجاعـة التي نَقرنُها بأواخر عهد الامبرطوريـة الرومانية . تترك الدول الحديثة مجالاً صغيـراً للانـطلاق الفردي اذا مـا قِيسَتْ مع الـدول الصغيـرة في اليـونـان القديمة وفي ايطاليا القرون الوسـطى ، ولهذا فهي تعجـز عن تنمية شعـور الناس بقدرتهم على توجيه مصيرهم السياسي . من يحصل عـلى السلطة في الدول الحديثة هم رجال ذوو طموح يفوق العـادة ، رجال متعـطشون الى تلك السيطرة الممتزجة بصناعة الحنكة في السياسة واصـطناع الغمـوض في المفاوضات . وما تبقى من الناس يَقْصِف طموحَهم شعورٌ بالعجز (وعدم المقدرة) وثبوط العزيمة .

من المخلَّفات التركية التي تركها لنا التفكير المَلَكي القديم عن الدولة

الاعتقاد بان ، في رغبة اي جزء من الشعب في الانسلاخ عن بقية الأمة ، شيئاً فريداً شرّه ، فلو رغبت ايرلندة او بولندة بالاستقلال ، فمن المحتم ان تُقاوم هذه الرغبة بشدة وان تعتبر اي محاولة لتحقيقها « خيانة عظمى ». ان المثل الوحيد المخالف الذي استطيع ان اتذكره هو انسلاخ النروج عن السويد التي وجدت من يشجعها ولكن لم تجد من يقلدها . ليس في حالات اخرى ما يحدو الدول على ضم اراضي دول أخرى سوى الانهزام في الحرب . على الرغم من ان هذا المصير مطمح عام ، فليس هو بالشيء الذي يجب ان يُتبنى ، لو كان للدولة غايات أسمى . يعود سبب هذا التبني الى ان غاية الدول الكبرى الرئيسية هي السيادة وخاصة السيادة في الحرب . وغالباً ما تزداد السيادة في الحرب بالسيطرة على مواطنين غير قانعين بتلك السيطرة . لو كانت سعادة المواطنين غاية بحد ذاتها ، لتُركَت مسألةُ ضم مقاطعة ما أوْ عدم ضمها طوعياً الى قرار تلك المقاطعة نفسها . لو تتبنى كل دولة مثل هذه الغاية ، لانعدم اهم سبب في الحروب وزال العامل الاكثر اذى في الدولة .

يرجع مصدر الاذى في الدولة الى ان السيادة هي غايتها الرئيسية . تختلف الحال عن هذا في اميركا لان اميركا في منأى من الغزو الخارجي[1]، ولكن غاية الدولة الرئيسية في كل الدول الباقية هي الحصول على اكبر قدر ممكن من القوة الاستعراضية . وبسبب هذه الغاية تكبح حريات المواطنين والدعاية الموجهة ضد العسكريين تُراقَب وتعاقَب بصرامة . تجد هذه الغايةُ جذورَها في التكبر والخوف : التكبر الذي لا يترك مجالاً للمسالمة ، والخوف الذي يمقت رؤية تكبر الغرباء المناهض لكبريائنا . ان طغيان هذين الميلين على سياسة الدولة الخارجية هو شيء

(1) كتبت هذه الملاحظة في سنة 1915 .

عرضي تاريخي ولا يعني ان حياة الانسان العادي السياسية تنبع من هذين الميلين فقط . إقْضِ على التكبر ، يُقضى على الخوف ، لان خوف امة ما هو نتيجة للتكبر المزعوم في امة اخرى . ان التباهي بالسيادة وعدم قبول حل المنازعات الا باللجوء الى القوة او التهديد باللجوء الى القوة ، هي عادة في التفكير تغذيها الشهوة الى السلطة بدرجة كبيرة . ان اولئك الذين يتمرسون على السيادة ثم يتفردون بها ، يُصبحون سريعي الغضب وغير قادرين على اعتبار اي انسان مواز لهم الا كمنافس . يذيع الصيت بان اجتماع الرؤوساء يحفل بالمخالفات اكثر من كل المجالس الاخرى. يحاول كل رئيس مجلس ان يعامل الرؤساء الاخرين كما يعامل مستخدميه، لكنهم يمقتون معاملة من هذا النوع ومن ثم يمقت مقتهم لهم . لا يَصْلُح الرجالُ الذين اعتادوا على السيادة للقيام بمشاورات ودية ابداً . ولكن العلاقات الرسمية بين الدول هي ، بشكل رئيسي، في ايدي اناس لهم سلطة كبيرة في بلادهم . هذه هي طبيعة الحال وبشكل خاص اينما وجد ملك ذو سلطة فعلية . ولكنها تقل صحة عندما تتولى الحكم جماعة صغيرة وتقل صحتها ايضاً اكثر فأكثر عندما تتفتح الطريق امام ديموقراطية صحيحة. ان هذا الصيت صحيح الى درجة بعيدة لأن رؤساء الوزراء ووزراء خارجية كل الدول هم بحكم الضرورة اناس ذوو سيادة . الخطوة الأولى لأصلاح هذه الحالة تتوقف على اهتمام المواطن العادي بالشؤون الخارجية اهتماماً صحيحاً . والخطوة الثانية هي اقتناعه بان الافتخار بالوطن لا يجوز له ان يعطل مصالحه الاخرى . عندما تُثار حميةُ المواطن خلال الحرب ، يَقبل بان يضحي بكل شيء في سبيل ذلك الافتخار، ولكن يجب ان يكون في أيام السلام اكثر تهيئاً من رجال الحكم للاعتقاد بان الشؤون الخارجية يجب ان تُسوى كالشؤون الخاصة بود طبقاً لأسس وليس باستخدام القوة او

التهديد باستخدام القوة .

تَظهَر نتائجُ التحيز الشخصي جلية ، فيمن يشكل حكومة ما ، في مناقشاته مع العمال . يؤكد السنديكاليون الافرنسيون ان الدولة ليست الا حصيلة الرأسمالية وليست الا احد الاسلحة التي يستخدمها رأس المال في منازعاته مع العمال . هناك كثير ما يدعم هذه النظرة حتى في الدول الديموقراطية اذ غالباً ما يُستَخْدَم الجنودُ لقمع الاضرابات العمالية . وبالرغم من ان عدد المستخدمين هو اقل بكثير من عدد العمال، وبالرغم من ان قمعهم اسهل بكثير، فلا احد يستخدم القوة ضدهم . عندما تشل المشاكلُ العمالية صناعة الدولة ، يلام العمال على قلة وطنيتهم بينما يبقى ساداتهم بعيدين عن الملامة مع العلم ان المسؤولية تقع على عاتق كليهما بشكل واضح . يعود السبب الرئيسي لموقف الحكومات هذا الى ان الرجال الذين يؤلفونها ينتمون ، ان لم يكن من خلال نجاحهم الشخصي ، فمن خلال أصلهم العائلي ، الى ذات الفئة التي يتشكل منها كبار ارباب العمل . ان تحيز افراد الحكومة نحو ارباب العمل ومعاشرتهم لهم تتضافر معاً لتجعل الحكومة تنظر الى اضرابات العمال والى امتناعهم عن العمل من وجهة نظر الاغنياء . يتكاتف الرأي العام مع حاجة الحكومة الى دعم شعبي لسياستها في تصحيح مؤثرات الطبقة الثرية في البلدان الديموقراطية ، ولكن يبقى هذا التصحيح جزئياً دائماً . ان المؤثرات التي تغطي وجهات نظر الحكومات في المسائل العمالية هي نفس المؤثرات التي تغلف وجهات نظرها في الشؤون الخارجية مع اضافة فارق واحد ، ليس في صالح المواطن العادي ، وهو ان الوسائل التي تمكنه من تشكيل رأي مستقل في السياسة الخارجية تبقى بعيدة جداً عن متناول يده .

ان اهم اسباب البؤس في العالم العصري ، بل واحد اهم عوامل

الرعب الذي يطغى على الناس ويمنع نموهم العقلي الى درجة اكتماله ، هو تضخم سلطة الدولة الناتج عن تعسفها في الداخل وبشكل اهم عن الحرب او الخوف من الحرب . ثمة وسيلة يجب ان توجد لمعالجة هذا التضخم في سلطة الدولة اذا ما اريد للناس الا يندفعوا زرافات في هوة اليأس كما حدث زمن الامبراطورية الرومانية .

للدولة ، على وجه العموم ، غاية نبيلة الا وهي وضع القانون في مجال التعاون بين الناس موضع القوة . لكن لا يمكن ان تتحقق هذه الغاية بشكل تام الا اذا وجدت دولة عالمية المدى تبقى العلاقات الدولية من دونها بعيدة عن مجال القانون . وعلى الرغم من ان القانون افضل من القوة بكثير ، فالقانون ليس افضل طريقة لحل المنازعات . القانون جامد لدرجة كبيرة واكثره يدافع عما هو في سبيله الى الزوال والقليل المتبقي منه يدافع عما هو في سبيل النمو . ولطالما يبقى القانون صاحب السيادة نظرياً ، فلا بد ان تحصل ، من وقت الى آخر ، ثورات داخلية او حروب خارجية تَفْرِض تعديله . لا يمنع حدوث هذه المُعدِّلات سوى الاستعداد المستمر لتغيير القانون وفقاً لتغيير ميزان القوى الحاضرة . واذا لم يتم هذا التغيير ، فلن يكون هناك اي امل في مقاومة دوافع اللجوء الى القوة ، ستَحُلُّ الدولةُ العالمية او المتحد الفيدرالي الدولي ، اذا أتيح لها النجاح ، الازمات ، ليس على نسق المراسيم القانونية التي تطبقها محكمة لاهاي العليا ، بل بقدر المستطاع على نفس الطريقة التي يمكن ان تقررها الحرب . ان مهمة السلطة هي جعل اللجوء الى القوة غير ضروري لأن تُصدر قرارات مخالفة للحلول التي يمكن ان تتحقق من جراء استخدام القوة .

وقد يعتقد البعض ان هذه النظرة منافية للاخلاق . وقد يقال ان

الحضارة يجب ان تهدف الى تحقيق العدالة لا الى اعطاء النصر الى القوة . لكن اذا سلم احدنا بهذا الرأي المخالف ، لتناسى اصحابه ان حب العدالة ذاته يمكن ان يقدح شرارة اللجوء الى القوة . سيعطي مجلس تشريعي ، يرمي الى الفصل في قضية ما بنفس الطريقة التي يَفصُل بها فيما لو كان سيلجأ الى استخدام القوة ، اعتباراً للعدالة بحكم الضرورة ـ فيما اذا كانت العدالة بشكل لا جدل فيه الى جهة معينة ، حتى ان فئات أخرى محايدة تستعد لحمل السلاح والمدافعة عنها . فاذا اعتدى رجل قوي على رجل ضعيف في شوارع لندن ، سيظهر ميزان القوى بجانب الرجل الضعيف لأن لو لم يظهر البوليس للدفاع عنه لانبرى بعض المارة لحمايته . إن من الغباوة بمكان ان نتحدث عن مزاحمة القوة للحق ومن ثم نأمل في انتصار الحق . اذا كانت المسابقة بين القوة والحق مسابقة حقيقية فهذا يعني ان الحق سَينْهزم . ان المقصود من استعمال هذه اللغة الغامضة هو ان الفئة القوية تستمد قوتها من شعور الناس بانهم على حق . لكن شعور الناس بالحق هو شيء ذاتي لدرجة كبيرة وليس هو الا احد العوامل التي تقرر سيادة القوة . ما هو مرغوب ومنتظر من المجلس التشريعي ، ليس مقدرته على التقرير بواسطة الشعور بالحق بل مقدرته على التقرير بشكل يجعل اللجوء الى القوة غير ضروري .

طالما اني بحثت فيما يجب على الدولة ان تمتنع عن القيام به ، فسأنتقل الأن الى التحدث عما يجب عليها ان تقوم به .

بصرف النظر عن الحرب وحفظ النظام الداخلي ، تُحقِّق الدولة الآن بعض المهام الايجابية ، ولا يزال هناك مهام ايجابية اخرى يُفترض بالدولة ان تحققها .

يمكن ان تضع بخصوص هذه الواجبات الايجابية مبدئين أساسيين .

أولاً : هناك مسائل تتعلق برفاهية المجتمع بأكمله وعليها يتوقف حصول كل مواطن على حد ادنى ، ويحق للدولة في حالات كهذه ان تلح على تحقيق ذلك الحد .

ثانياً : هناك مناسبات يجب ان تلح الدولة فيها على حفظ النظام . ولكنها إنْ لم تفعل اكثر من ذلك ، لَسهُلَتْ وقوعَ مظالم مختلفة من الممكن تجنبها بالسماح لضحايا تلك المظالم بالتَّعْبير عن غضبهم . يجب ان تمنع الدولةُ قدر المستطاع وقوع مثل هذه المظالم .

ان ابرز مثال عن الشيء الذي تتوقف فيه الراحة العامة على حد ادنى عمومي هو النظافة العامة وحجب الأمراض المعدية . اذا اهملت حالة واحدة من مرض الطاعون ، فقد تسبب كارثة للمجتمع باكمله . لا احد يدَّعي بجدية ان انساناً مصاباً بالطاعون يجب ، بناء على متطلبات الحرية ، ان يبقى حراً يزرع وباءه طولاً وعرضاً . تنطبق هذه الاعتبارات نفسها على استصلاح الأراضي وعلى انتشار الحمى وعلى بقية الأمور المشابهة . يبقى التدخل في الحريات شراً ولكنه في بعض الحالات اقل شراً من انتشار المرض الذي تتيح الحرية انتشاره . فمحو آثار الملاريا والهواء الاصفر الذي ينتج من جراء قتل البراغيث هو ربما افضل مثل يضرب عن الاشياء الجيدة التي يمكن ان تتم بهذه الطريقة . ولكن عندما يكون الخير المجتنى قليلاً او عندما يكون جنيه غير مؤكد ، بينما يكون التدخل في الحريات كبيراً ، سيكون من المفضل ساعتئذ ان يحتمل قسم بسيط من الأمراض التي يمكن اتقاؤها على الرضوخ الى طغيان علمي .

من الضروري اعتبار التعليم الاجباري كالصحة العامة . فوجود

حشود جاهلة بين الناس هو خطر على المجتمع . اذ انه عندما تكون نسبة كبيرة من السكان غير مثقفة ، فمن الواجب ان تأخذ كل آلة الحكومة هذه الواقعة بعين الاعتبار . يستحيل وجود الديموقراطية في شكلها المعاصر في دولة حيث جماعة كبيرة لا تحسن القراءة . ولكن ليس في هذه الحالة ما يدعو الى ايجاد نفس المستوى العمومي الموجود في الصحة العامة . ان الغَجَر (النَوَرْ) الذين اصبحت طريقة حياتهم مستحيلة من جراء السلطات التعليمية ، يمكن ان يسمح لهم أن يبقوا حالة شاذة ذات علائم مميزة . ولكن بصرف النظر عن حالات شاذة غير مهمة كهذه ، فالحجة التي تدعم الدعوة الى التعليم الألزامي لا تقاوم .

ما تقدمه الحكومة الآن من عناية بالاولاد هو اقل مما يجب عليها القيام به ، ليس اكثر . لا يستطيع الاولاد رعاية مصالحهم ، اضف الى ذلك ان العناية الوالدية في مسائل شتى هي غير كافية . من الواضح اذن ان باستطاعة الدولة وحدها ان تلح على ضرورة تمتع الاولاد باقل معدل ممكن من الثقافة والصحة التي يتمناها ضمير المجتمع في الوقت الحاضر .

يأتي تشجيع البحث العلمي كمسألة طبيعية اخرى يجب ان ترعاها الدولة لان منافع الاكتشافات تعود الى المجتمع كله ، بينما الابحاث باهظة وليس من المؤكد انها ستؤدي الى اية نتيجة من خلال العمل الافرادي وانكلترا تتأخر عن بقية الدول المتحضرة في هذا الشأن .

النوع الثاني من السلطات الذي يجب ان يكون في حوزة الدولة هو ما يرمي الى تخفيض التظلم الاقتصادي . هذا هو النوع الذي يشدد عليه الاشتراكيون . يخلق القانون او يسهل الاحتكارات الفردية والاحتكارات الفردية تقدر ان تفرض على المجتمع الضريبة التي تريدها . افظع مثل عن

هذا هي ملكية الأراضي الخاصة . تسيطر الدولة في الوضع الحالي على شركات سكك الحديد اذ ان الأجور ثابتة بحكم القانون ، ومن الواضح انه لو لم تكن تحت سيطرة الحكومة لأكتسبت درجة كبيرة من القوة"[1]. لو وُجدت هذه الاعتبارات وحدها ، لكانت كافية لان تثبت صحة الاشتراكية الكاملة . ولكن العدالة بمفردها هي ، بحسب تقديري ، كالقانون عديمة الحركة ، ولذا لا تصلح لان تكون الاساس الاول في السياسة . فهي لا تحتوي على اية بذور لحياة جديدة ولا على اية دوافع للتقدم حتى ولو اتيح لها ان تتحقق بشكل تام . فلهذا السبب يُصبح السؤال ، عندما نريد تصحيح ظلامة ما ، عما اذا كان عملنا هذا سيقتل الدوافع الى الأعمال الحيوية المفيدة للمجتمع هاماً جداً . لا تتعلق ، حسب اعتقادي ، الملكية الخاصة او اي مصدر للأجار الاقتصادي بتلك الدوافع الحيوية المفيدة للمجتمع . واذا كانت الحال كذلك وجب التسليم بان على الدولة ان تكون القابض الوحيد للأجارات .

ولكن اذا سلمت كل هذه السلطات الى الدولة ، فماذا يحدث بمحاولة انقاذ الحرية الفردية من عسف الدولة ؟

هذا السؤال هو جزء من المعضلة العامة التي تقف في وجه كل من لا يزال يؤمن بمُثُل الليبرالية . والمعضلة هي كيف يتم جمع حرية الفرد ورغبته في الابداع مع المُنَظَّمة . يتزايد في السياسة والاقتصاد تسلط المنظمات الكبيرة تزايداً مخيفاً يترك الفرد في وحدة من اليأس المميت . والدولة هي كبرى المنظمات واشدها تهديداً للحرية . وعلى الرغم من هذا التهديد الواضح ، فعلى ما يبدو ، يجب ان تتشعب مهام الدولة لا ان تتقلص .

---

(1) يصح ذلك حتى ولو كان الحكم سنديكالياً ايضاً .

هناك طريقة واحدة للتوفيق بين المنظمة والحرية وذلك بمنح سلطات للمنظمات الاختيارية التي تتكون ممن اراد ان ينضم اليها لكونها تجسد الهدف الذي يعتبره كل الاعضاء اساسياً ، لا الهدف الذي يُفرَض عليهم بحكم الظروف او بحكم قوة خارجية ، ولما كان للدولة كيانٌ جغرافي ، فهي لا تستطيع ان تكون اتحاداً اختيارياً بالكلية . لهذا السبب بعينه وجب ايجاد رأي عام قوي يضعها عند حدها حينها تستخدم سلطاتها بشكل تعسفي . لا يتكون هذا الرأي العام ، في اغلب الاحيان ، الا من اناس تجمعهم بعض المصالح والرغائب المشتركة فقط .

يجب أن تُنجز اهدافَ الدولة الايجابية غير المتعلقة بحفظ النظام منظماتٌ يُشترط فيها ان تبقى مستقلة وآمنة من تَدَخُل الدولة طالما لا تنزل تحت الحد الادنى الضروري الذي تطلبه الدولة . يتم حالياً انجاز هذا الشرط الى درجة ما في التعليم الابتدائي . يمكن اعتبار الجامعات ايضاً كأنها تحل مكان الدولة فيما يختص بالتعليم العالي والابحاث العلمية غير انه في هذه الحالة لا يُطلَب انجاز أي حد ادنى . يجب ان تحتفظ الدولة بقدرتها على الضغط في الحقل الاقتصادي ، ولكن يجب عليها ايضاً ان تترك أمام الآخرين مجالاً للابداع . ليس ما يمنع تكثير فُرَص الابداع وافساح اكبر مجال ممكن لمقدرة كل شخص على الابداع . لو لم تَسِر الامور على هذا الشكل ، لطغى في المجتمع شعور عام بالعجز واسترخاء العزيمة . لهذا يجب ان تُترك دائماً مهام الدولة الايجابية في ايدي منظمات اختيارية تُشرف الدولة على دقة تصرفها وسلامته كما تشرف على حل المشاكل الداخلية والخارجية التي تحصل بينها حلاً ودياً . يجب على الدولة ان تُظهر بالاضافة الى ذلك اكبر قدر ممكن من التساهل ازاء « الشواذات » وان تقلع الى ابعد حد ممكن عن طلب مؤسسات ذوات نمط موحد .

يمكن ان يتضاعف انتاج المهن والمناطق الزراعية ضمن حكومات محلية . هذه هي افضل الافكار التي ابتكرتها النظرة السنديكالية . انها فكرة بليغة الأهمية لانها تخدم كلجام للتعسف الذي يميل المجتمع الى فرضه على بعض الفئات من اعضائه . يجب ان يُرحَّب ، تفادياً لعسف المجتمع ، بكل منظمة قوية تجسد شطراً من الرأي العام ، كالنقابات العمالية والتعاونيات والمهن والجامعات لكونها صمامات أمان للحرية ومناسبات للابداع . بالاضافة الى ذلك ، يجب ان يكون هناك رأي عام متحمس للحرية . قد يُظَنُّ ان المعارك القديمة التي شُنَّت في سبيل حرية التفكير وحرية الكلام تم انتصارها بشكل فاصل ، ولكن اكثر الناس لا يزال مستعداً لمنح الحرية فقط لتلك الافكار الشائعة . لهذا يجب ان تخاض المعارك في سبيل حرية التفكير وحرية الكلام من جديد . لا تُحترِم المؤسساتُ الحريةَ الا اذا وجد اناس يعتبرون الحرية باهظة القيمة وهم على اتم الاستعداد لتحمل الضيقات في سبيل المحافظة عليها حية مضيئة .

هناك اعتراض تقليدي على كل قائد وآمر imperio in imperium ولكن هذا الاعتراض هو من ابتداع غيرة الحكام الظالمين فقط. ان الدول المعاصرة تضم في الواقع مؤسسات عديدة يستحيل على الدولة التخلص منها الا في حالات نادرة عندما يتحرك الرأي العام ضدها. لقد كان صراع لويد جورج ضد المهن الطبِّية حول مرسوم الضمان صراعاً محفوفاً بتقلبات حظ هوميروسي . كذلك انهك عمال المناجم في مقاطعة والش في سنة 1915 كل قوى الدولة تدعمهم في ذلك امة مُغْتاظة . اما بالنسبة للممولِّين ، فليس من حكومة تُحْلُم بمخاصمتهم . وعندما تناشد الدولة مختلف الطبقات الشعبية بضرورة الشعور بالوطنية ، تسمح للمولِّين بالاحتفاظ بفائدة تبلغ 4,5 % وارتفاع في قيمة ممتلكاتهم . يفهم الجميع ان اي

مناشدة لوطنيتهم تظهر جهلاً كبيراً بحقيقة العالم . ان اقتناص الدولة اموالاً من المموِّلين بالتهديد بِرَفْع حماية البوليس عنهم هو امر مخالف لتقاليدها . ولا يعود الاحجام عن هذا الاغتصاب الى صعوبة عمل كهذا ، بل الى ان للثروة الكبيرة بريقاً يأخذ ألْبَابَ الناس ولذا لا يستطيع احد ان يتحمل رؤية رجل غني تُساء معاملته .

لا يُقلِّل من اهمية وجود منظمات قوية داخل الدولة كمنظمات النقابات العمالية مثلاً ، الا الموظَّف الذي يطمح الى سلطة لا حد لها او المنظمات المبنية على المنافسة كتعاونية ارباب العمل التي تطمح الى رؤية خصم غير منظم . ولما تصبح الدولة قوية جداً ، لا يجد الناس منفذاً سياسياً الا في منظمات هامشية تهدف لتحقيق غايات محدودة جداً ، ولكن عندما ينعدم وجود منفذ للابداع السياسي ، يفقد الناس حماسهم الاجتماعي واهتمامهم بالمسائل الهامة ويصبحون فريسة للساسة الماكرين ومهيجي الأحاسيس الخداعين الذين اجادوا فن اصطياد اصحاب الانتباه السقيم .

يكمن دواء هذه الآفة السياسية في اعطاء سلطات اكثر للمنظمات الاختيارية لا في التسلط عليها ، وفي افساح مجال العمل السياسي امام كل فرد بشكل يتناسب مع منافعه وقواه ، وفي حصر مهام الدولة قدر المستطاع في صيانة الامن وفي التوفيق بين المنافع التضاربة. ان فضيلة الدولة الاساسية هي ردعها للعنف بين المواطنين . ولكن مضارها الاساسية هي تشجيعها لأستخدام العنف في الخارج وارهابها لكل فرد بحجمها الكبير الذي يثير فيه شعوراً بالعجز التام في مقاومتها حتى في البلدان الديموقراطية . سوف اعود الى مناقشة مسألة منع استخدام العنف والحرب فيما بعد . لا يمكن ازالة شعور الفرد بالعجز من خلال المطالبة بالعودة الى

المدينة الدولة اذ انها مطالبة رجعية مثل المطالبة بالعودة الى ايام ما قبل الآلة . لا تتم ازالة ذلك العجز الا وفق اسلوب يأخذ الاتجاهات الحاضرة بعين الاعتبار . يتكون هذا الاسلوب من جراء تحويل الكثير من وظائف الدولة الايجابية الى منظمات طوعية هدفها القيام بتلك الوظائف . ولا تبقى الدولة الا كسلطة فدرالية او كمحكمة عليا لفض المنازعات . فينحصر دورها عندئذ بالالحاح على فرض حل ما للمصالح المتضاربة . ودَعامتُها في فرض حل كهذا هي محاولتها لايجاد حل يُرضي كل الجهات المختصة بوجه عام . هذا هو المنحى الذي تميل اليه كل الدول الديموقراطية في حالة السلم ، اما في حالة الحرب او الخوف من الحرب فتميل عنه . ولطالما تبقى الحرب خطراً حقيقياً يداهمنا في كل يوم ، فلا بد ان تبقى الدولة كالآلة « مولوخ » Moloch تُضحّي بحياة الفرد حيناً وتدفع دائماً بنموه الصحيح الى ميدان معركة التسابق نحو السيادة مع بقية الدول الاخرى . ان الحرب داخلية كانت ام خارجية هي اكبر اعداء الحرية .

الفصل الثالث

الحرب كمؤسسة

على الرغم من ان اكثر الأمم تعيش في اغلب الأوقات حالة سلم ، فالحرب هي احدى المؤسسات المستديمة الوجود في كل المجتمعات الحرة تماماً كما ان البرلمان هو احد مؤسساتنا الدائمة الوجود بالرغم من ان انعقاده غير دائم . اني اريد ان اناقش الحرب كمؤسسة : لماذا يتسامح الناس بوجودها ولماذا يجب ان لا يتسامحوا بها ، لماذا نأمل بان الناس سوف يقنعون بوجوب عدم التسامح بها وكيف يستطيعون هدمها اذا شاؤوا .

ان الحرب هي اشتباك بين مجموعتين من الناس تحاول كل جهة منهما ان تقتل او تشوه اكبر عدد ممكن من الجهة الاخرى رغبة في تحقيق بغيتها . والبغية المنشودة هي على العموم اما سلطة او ثروة . التسلط على الآخرين لذة مثلها العيش على جني اتعابهم لذة ايضاً . يستطيع من ينتصر في الحرب ان يتنعم بهذه الملذات وان يُحرِّم المنهزمين منها . ولكن الحرب هي مثل كل تصرفات الانسان الغريزية لا تحدث بسبب الغاية التي تنشدها اكثر مما تحدث بسبب الميل نحو التصرف ذاته ، غالباً ما يرغب الناس في غاية ما ليس من اجل الغاية ذاتها بل لان طبيعتهم تتطلب الافعال التي تقود الى هذه الغاية . وهكذا هي الحال مع الحرب . فالغايات التي يُطمح الى تحقيقها عن طريق الحرب تبدو تحت تأثير الرغبة في الحرب اكثر اهمية مما تظهر عندما يتم تحقيقها وذلك لان الحرب نفسها

تشبع ناحية من طبيعتنا . فلو ان اعمال الناس تنبعث عن رغائبهم فيما يجلب لهم السعادة ، لكانت الحجج العقلية ضد الحرب كفيلة وحدها بوضع حد للحرب . ولكن ما يجعل حصر الحرب صعباً هو انها تنبع من الميل وليس من جراء حسبان الارباح التي ستدرها الحرب .

تختلف الحرب عن استخدام البوليس للقوة ، ويرجع هذا الاختلاف الى ان افعال البوليس تُنفِّذ اوامر سلطة حيادية ، بينما يقوم الفرقاء في الحرب انفسهم باستخدام القوة . ليس هذا التمييز تمييزاً مطلقاً لان الدولة في المنازعات الداخلية ليست دائماً حيادية تماماً . فعندما يُرمى المضربون بالرصاص فمعنى ذلك ان الدولة تأخذ جانب الاغنياء . وعندما تعاقب الافكار المخالفة للحكومة الحاضرة ، فمعنى ذلك ان الدولة ايضاً اصبحت طرفاً في النزاع ويتراوح تدخل الدولة بدرجات مختلفة من الضغط على رأي الفرد حتى الحرب الاهلية . لكن ، بوجه عام ، حينما تُستخدم القوة وفقاً لقوانين وضعها المجتمع مسبقاً ، وجب تمييزها عن القوة التي يستخدمها مجتمع ضد مجتمع آخر في مناسبات يجعل فيها نفسه الحَكَم الاوحد . اني أوجه اهتمامي الى هذا التمييز لاني لا اعتقد ان استخدام البوليس للقوة يمكن الغاؤه الغاء تاماً ، لا بل اني اعتقد ان استخدام قوة مشابهة في الأمور الدوليّة هو اقوى أمل لتحقيق سلام دائم . يجري تصريف الأمور الدولية في الوقت الحاضر على أساس ان كل دولة يجب ان لا تتدخل في شؤون دولة أخرى الا اذا تأثرت مصالحها . يمنع التعاون الدبلوماسي التدخل لمجرد المحافظة على القانون الدولي . يمكن ان تحتج اميركا عندما تُغرِق الغواصات الالمانية بعض المواطنين الاميركيين ، ولكن لا يمكنها ان تحتج عندما لا يغرق اي اميركي ، تشابه هذه الحالة الوضع في الشؤون الداخلية عندما يحق لرجل البوليس ان يتدخل في القتال

فقط عندما يُقتل رجل آخر من البوليس . لكن طالما تُصَرِّفُ العلاقات بين الدول على هذا الاساس ، فلا يمكن لسلطة حيادية ان تستخدم نفوذها استخداماً فعالاً لتمنع نشوب الحرب .

تتآلف في كل دولة متحضرة قوتان لتبدأ السير نحو الحرب . يوجد في الأحوال العادية عدد ضئيل من الناس ، اذا ما قيس بمجموع عدد السكان ، يترقب نشوء الحرب ولا يتوانى في التنبوء بوقوعها من دون ابداء اي أسف على نتائجها المرعبة . عندما لا تكون الحرب خطراً مداهماً ، فالقسم الاكبر من السكان لا يلتفت الى هؤلاء الرجال ـ فلا يدعمهم بحمية ولا يقاومهم بحماسة . ولكن عندما تدق الحرب على الأبواب تنتشر حمى الحرب في كل اجزاء الشعب ويجد الاشخاص الذين كانوا يترقبون الحرب قبلاً انفسهم مدفوعين بحماسة من الجميع الا من نفر صغير لا يؤبه له . تختلف الميول التي تجلب حمى الحرب عن ميول اولئك الناس الذين يترقبون الحرب في الأوقات العادية . لا يَطلُب الحرب في الظروف العادية الا رجال مثقفون يعرفون الدول الاخرى معرفة جيدة ويفهمون مدى الدور الذي يمكن ان تلعبه امتهم في شؤون العالم . ولكن ما يميز هؤلاء الأشخاص من بقية المواطنين الغارقة في الجهل هي معرفتهم وليست طبيعتهم .

ان سياسة المانيا توفر أفضل مثل عما اقول . لم تكن سياسة المانيا في السنوات المباشرة لاندلاع الحرب غير ميالة للحرب ولم تكن على علاقة ودية مع انكلترا . ان من الأهمية بمكان ان نحاول فهم الحالة الفكرية التي ادت الى نشوء هذه السياسة .

ان الرجال الذين يرسمون سياسة المانيا هم ، في الدرجة الأولى ،

وطنيون الى حد غير معروف تقريباً لا في فرنسا ولا في انكلترا . تبدو لهم مصالح ألمانيا بلا شك المصالح الوحيدة التي يجب ان يرعوها . وما يصيب الأمم الأخرى من جراء هذه السياسة من اضرار : تهدم مدن ، تُشرد جماعات ، وينزل بالبشرية كلها خسائر لا تعوض ، هي اشياء لا يهمهم امرها . فاذا كان بمقدورهم ان يُضفوا على المانيا شيئاً ما يعتبرونه نافعاً ، فكل شيء بعد ذلك الى الجحيم .

النقطة الثانية التي يجب ان تلاحظ في سياسة المانيا هي ان تفسيرها للمصلحة الوطنية هو تفسير مبني على المزاحمة . ما يعتبره حكام ألمانيا هاماً هو غنى المانيا النسبي في مجال التسابق مع بقية الأمم المتحضرة وليس غنى المانيا الضمني مادياً او معنوياً . لهذا يبدو لهم ان تدمير الأشياء الحسنة خارج بلادهم يساوي تقريباً من حيث اهميته بناء الأشياء الجيدة في داخل المانيا . تُعتبر فرنسا في اكثر انحاء العالم ، الأمة الاكثر حضارة في العالم . ففنهم وادبهم وطريقة حياتهم تجذب الأجانب بشكل لا تعرفه هذه الأشياء الألمانية . كذلك تَفوَّق الانكليز في تطوير الحرية السياسية وفي فن تعهد امبراطورية وحكمها بأقل حد ممكن من القهر ، ولكن المانيا لم تُبدِ الى الآن اي ميل الى اسلوب سياسي كهذا . ان صيت فرنسا الفني وامتياز انكلترا السياسي هما موضع للحسد . ويطمح الحسد الى تهديم ما هو جيد في الأمم الأخرى . يرى قادة الألمان العسكريون بحق ان احسن ما يوجد في فرنسا وانكلترا يمكن ان تُحطِّمه حرب كبيرة حتى ولو لم يكن ممكناً دحر فرنسا وانكلترا على أرض المعركة . لقد رأيت قائمة باسماء الفنانين الافرنسيين الذين قتلوا في ساحة الوغى ، ولربما رأتها السلطات الألمانية ايضاً واغتبطت لأن سنة اخرى من فُقدان فنانين آخرين هي كفيلة بان تزيل الادب الافرنسي الى جيل وربما الى الابد اذا ما ظهر ان هذا التقليد

الادبي قد انعطب في صميمه . كل ثائرة ضد الحرية نقرؤها في جرائدنا المتلهفة الى سفك الدماء ، وكل تشجيع لقتل الألمان العزّل من السلاح ، وكل اثر لنمو الشراسة في مواقفنا ، يجب ان تُبهج قراءته مواطني المانيا لأنها تثبت لهم نجاحهم في تحطيم افضل ما عندنا وفي اجبارنا على تقليد اسوأ ما عندهم في بروسيا .

ان اكثر ما يحسدنا عليه الألمان هما القوة والثروة : القوة التي نجنيها من سيادتنا على المضايق والبحار ، والغنى الذي اجتنيناه خلال قرن من التفوق الصناعي . وفي كلا الحالين يعتبر الألمان صحاريهم افضل مما لدينا . لقد وجهوا حذاقتهم اكثر منا نحو التنظيم العسكري والصناعي . ان ذكاء العامة منهم ومعرفتها تفوقنا بدرجات كبيرة وتفوق مقدرتهم على ملاحقة غايتهم وتحقيقها بتصميم وتعاون مقدرتَنا بما لا يقاس . لكننا ، على ما يعتقدون ، قد اصبنا امبراطورية واسعة جداً ، اوسع مما حققوا لمجرد اننا بدأنا السباق قبلهم ، ولهذا فقد حققنا درجة كبيرة من السيطرة على رأس مال كبير جداً . لا يتحمل الألمان رؤية سباق كهذا ، ولكن لا شيء يغير حصيلة هذا السباق سوى الحرب .

اضف الى كل هذا أن اكثر الألمان وخاصة اولئك الذين يعرفوننا معرفة تامة يكرهُننا كرهاً شديداً لأجل تكبرنا . لقد فتش فاريناتا أوبارتي الجحيم ، come avesse to Inferno in gran dispitto — تفتيش من يكن للجحيم احتقاراً كبيراً . هكذا تُظهِرنا تقارير الألمان . يتطلع العساكر الانكليز السجناء نحو سجانهم بازدراء كأن اعداءهم مخلوقات نجسة لا يقربها المرء طائعاً بل ينفضُ عنها بقرف اذا ما ارغم على لمسها ولو لبرهة واحدة . من السهل ان نتصور كيف ان الشياطين كرهت فريناتا وصبت عليه من العذاب اكثر ما صبت على جيرانه آملة ان ترغمه على ملاحظة

وجودها ولو بنظرة واحدة ، ولكن استمراره في التنكر لوجودها قد دفع بها الى ابعد حدود الجنون . وهكذا يطير الألمان جنوناً من رسوخنا المعنوي . نحن ننظر ضمنياً الى الألمان كما يُنظر الى الذباب في يوم حار ، ليس الذباب الا مصدر ازعاج يريد الواحد منا التخلص منه . لكن لا أحد منا يعتقد ان بامكان الذباب القضاء عليه . عندما بدأت تأكيداتنا الأولية بالانتصار على الألمان ان تتلاشى ، بدأنا نشعر بتأثير الألمان فعلياً ، فلو تتابعت هزائمنا العسكرية ، لكنا أرغمنا على اعتبارهم بشراً وليس مجرد ظرف مؤلم . ساعتئذ ربما كان ينبغي لنا ان نكرههم كرهاً لا يمكنهم ان يأسفوا عليه . واذا ما تم حقد كهذا ، لاستطعنا قطع مسافة كبيرة نحو مصالحة حقيقية .

المشكلة التي يجب حلها اذا ما اريد لمستقبل العالم ان يكون أقل تعاسة من الآن ، هي منع تدهور الأمم الى ذات الحالة النفسية التي تدهورت اليها بريطانيا وألمانيا قبل اندلاع الحرب . يمكن ان تُعتبر هاتان الأمتان بمثابة ممثلين اسطوريين تقريباً للتكبر والحسد . تكبر بارد وحسد حار . انتفضت المانيا لتقول بحمية « انت يا انكلترا المنتفخة والهرمة تعطلين نموي باكمله ، واغصانك الملوثة تمنع الشمس من تدفئتي والمطر من انعاشي . فيجب ان تُقَلَّم اغصانك المتطاولة ، وقامتك المتناسقة يجب ان تُحطَّم ، حتى استطيع ان انمو بحرية وحتى تنبت حيويتي دون ان تعيقها كتلتك الهشة». وانكلترا الضجِرَة والمتعالية ، حاولت ان تلقي جانباً هذا الشبح الذي يقطع عليها حَبْل تأملها العميق . لكنها لم تستطع طرده بالكلية بل استطاع ان يحقق بعض النجاح وان يسجل مطلبه بشدة . بينما المطلب ذاته ، كمقاومته ، خطأ . اذ ليس لألمانيا اي عذر في حسدها ، كما انه ليس لنا اي عذر في مقاومة مطالب ألمانيا التي لا تشكل خطراً

علينا . هل هناك اية وسيلة لمنع تكرار مثل هذه الغلطة في المستقبل ؟ .

انا اعتقد انه لو كان بامكان الانكليز والألمان ان ينظروا الى الأشياء من وجهة نظر صالح الانسان الحي وليس من وجهة نظر الفخر القومي لأدركوا ان اصوب شيء يجب فعله في اية لحظة خلال الحرب هو عقد صلح على افضل وجه يمكن التوصل اليه . وانا مقتنع ان هذا الحل هو افضل شيء لكل امة على انفراد وللحضارة كلها بوجه عام . ان اكبر شر يمكن ان يُنزله العدو من خلال صلح غير متكافىء هو شيء بسيط اذا ما قيس بالشرّ الذي تُنزله الأمم المتحاربة على نفسها بمتابعتها للقتال . يعمينا التكبر عن رؤية هذه الحقيقة الظاهرة ـ التكبر الذي يجعل الاعتراف بالهزيمة مستحيلاً اذ انه يرتدي رداء العقل ويدّعي ان اعترافنا بالهزيمة سيجلب علينا كل صنوف الشر . ولكن شر الهزيمة الحقيقي هو العار ، وما العار الا شيء شعوري : لا نشعر بالعار اذا ما اقتنعنا باننا اخطأنا في ذهابنا الى الحرب . وبانه من الأفضل لنا ان نسعى في سبيل تحقيق اهداف لا تتوقف على التسلط على العالم . فلو استطاع الانكليز والألمان الاعتراف بهذه الحقيقة ، لقُبِلَ اي سلام لا يهدم الاستقلال الوطني من دون نقصان في احترام النفس الذي هو ضروري لكل حياة فضلى .

ان الحالة النفسية التي خاضت بها المانيا الحرب تدعو الى القرف . لكنها تولدت من الحالة النفسية الدائمة في انكلترا . لقد اكلَنا الغرورُ بأراضينا وثروتنا . كنا دائماً على استعداد لان ندافع عما كسبناه في الهند وافريقيا بقوة السلاح . فلو ايقنا بعدم جدوى الامبراطوريات ، ولو اظهرنا استعداداً لأن نتخلى الى ألمانيا عن بعض مستعمراتنا من دون ان ننتظر لجوءها الى التهديد باستعمال القوة، لكنا في وضع نستطيع به اقناع الألمان بجنون مطامحهم وبأن تقدير العالم لا يُكتَسب بسياسة امبريالية .

لكن مقاومتنا لهم قد ظهرت اننا نشارك مبادئهم . ولما كنا في مكان السيادة على المستعمرات ، فقد وقعنا في غرام الوضع العام ، وكنا على اتم استعداد لنعلن الحرب حتى نمنع وقوع تلك المستعمرات في حوزة المانيا . وكان اقتناعنا بقدسية الوضع العام قوياً جداً لدرجة اننا لم نبحث عن مدى منفعته لنا ولا عن مدى تسببنا بنشوب الحرب لمجرد الحاحنا في الحفاظ على ذلك الوضع العام . وفي عالم تنشأ فيه امم وتزول ، عالم تتبدل فيه القوى ويعج بالسكان ، تصبح المحافظة على الوضع العام شيئاً غير مرغوب فيه . اذا ما أرادت الأمم ان تحافظ على السلام ، فلا بد لها من ان تتعلم قبول تغييرات غير مرضية لها في خريطتها الجغرافية دون ان تشعر بان تغييراً كهذا لا يمكن ان يتم الا اذا خسرته في الحرب ودون ان تشعر بان قبولها بذلك التغيير من دون حرب هو ذل وعار .

ما دفع الألمان الى التطرف العسكري هو الحاح محبي القانون واصدقاء السلام على ضرورة المحافظة على الوضع العام . فلألمانيا الحق في الحصول على امبراطورية تماماً كما لأي من الدول الأخرى ، ولكن لا يمكنها ان تحصل على تلك الامبراطورية الا من خلال الحرب . وكثيرون هم الذين يمزجون حب السلام بالايمان بعلاقات دولية جامدة . يعرف الجميع حق المعرفة ان كل ما هو حيوي في الطبقة العمالية مناقض « للسلام الصناعي » حيث يكون توزيع الثروة المالي بعيداً عن العدالة . يحاول الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة بارزة دعم مراكزهم بالدعوة الى الحفاظ على السلام ويرفعون اصابع الاتهام نحو من يدعو الى الصراع بين الطبقات . ولكن لم يخطر على بال الرأسماليّين ان بمقاومتهمْ لِلْتغيير من دون اعتبار عدالة ذلك التغيير يشاركون في المسؤولية عن حرب الطبقات . وبنفس الطريقة ، تشارك انكلترا مسؤولية حرب بدأتها المانيا . لو أراد

النـاس وضع حـد نهائي للحرب لكـان من الضروري اكتشـاف اسـاليب سياسية تحقق النتائج التي لا يمكن تحقيقها الا من خلال القتال فقط وقبول الأمم طوعياً لأحكام مخالفة لها حينما تُظهـر الدراسـة المحايـدة عدالـة تلك الأحكام .

لا يمكن وضع حد للتصرف العسكري الا بـاصدار قـرار يعطي الحق لبرلمان كل امة بادخال تغييـرات في حدودهـا الجغرافيـة . قد تُغـيِّر الحرب الحاضرة نفسية الدول الغربية واتجـاهها السيـاسي تغييراً كـافياً لجعـل شيء مماثل لذلك البرلمان ممكناً . قد يكون من الضروري ايضاً ان نعرف حروباً اكـثر وتدميـراً افظع قبلما تثـور ثائـرة اكثر النـاس المتحضرين عـلى وحشية الحـرب العصـريـة وتـدميـرهـا غـير المجـدي . ولكن اذا لم تُصَبْ اسسنـا الحضارية وقوانا على التفكير البناء بعجز دائم ، فانا لا اشك ابداً بـانتصار العقـل فينا ، عـاجلاً ام آجـلاً ، على الميـول العميـاء التي تقـود الأمم الى الحروب . اذا صمّمت اكثرية الدول الكبرى تصميماً اكيـداً على المحـافظة على السلام ، فلا تبقى اية صعوبة في اختراع الآلة السياسية التي تجد حلاً للمنازعات او في انشاء بنية تـربويـة تستطيـع ان تغرس في عقـول النشء مقت حب القتال الذي يتعلمون التباهي به الآن مقتاً لا يمحوه الزمن .

اضـف الى القوى التي تقود الى الحرب بوعي وتصميم مشـاعر العـامة من النـاس غير المتبصـرة التي تكـون مستعـدة في اغلب الـدول المتحضـرة لتتحول الى حمى حرب عند أول اشارة يرميهـا عليهم رجال السيـاسة . لا يصبح السلام وطيداً الا اذا وُضع حد لانتشار عدوى حمى الحرب بشكل من الاشكال يجدر بمن يأمل بنجاح هذه المشاريع الوقائية ان يتفهم اولاً ما هي حمى الحرب وعما تنتج .

تسيطر على اصحاب النفوذ الهام في العالم ، أكان ذلك النفوذ خيراً ام شراً ، ثلاث رغائب : أولاً الرغبة في مهمة تحرك افضل ما فيهم من قوى ، ثانياً السعي الى تخطي المقاومة بنجاح ، وثالثاً احترام الآخرين بسبب النجاح الذي أحرزوه . قد تكون الرغبة الثالثة غائبة في بعض الأحيان لأن بعض الناس قد بلغوا العظمة من دون ان يشعروا « باللحظة الحاسمة » بل اقتنعوا بنجاحهم او بالأحرى فرحوا بما بذلوا من جهد في تذليل المصاعب . ولكن القاعدة هي ان تكون كل الرغائب الثلاث حاضرة معاً . تتجه عبقرية بعض الرجال نحو شيء معين ، ولذا يختارون المهمة التي تتفق مع طبيعة قواهم الشخصية . أما بعض الناس الآخرين فيظهرون في يفاعتهم استعداداً كبيراً للقيام بمهام شتى ، غير ان اختيارهم لمهمة ما فتُحدِّدُهُ الدَرَجات المختلفة من الاحترام الذي يوزعه الرأي العام على مختلف انواع النجاحات .

توجد هذه الرغائب ذاتها ، ولكن بدرجات متراوحة عادة، في رجال لا يظهرون اية عبقرية يجدر ذكرها . لا يستطيع هؤلاء الرجال تحقيق ما يجدر ذكره بجهودهم الشخصية ، ولذا يستحيل عليهم ، كأفراد ، ان يحصلوا على الشعور بالعظمة او الشعور بتخطي عقبة قوية . تبقى طرق معيشتهم الشخصية مملوءة بالضجر وبعيدة عن سبل المجازفة . ينهضون في الصباح ليذهبوا الى المكتب او الى الحراثة ، وفي المساء يعودون الى رتابة المنزل منهكي القوى . ولما كان ايمانهم بأهمية الضمانة ايماناً قوياً ، فقد اتخذوا كل الاجراءات ليحصلوا على ضمان ضد المرض وضد الموت ، مثلما بذلوا جهدهم للحصول على وظيفة لا يضطرون على الصرف منها او على التأمل بترفع كبير فيها . ولكن عندما تتحقق الضمانة تحققاً تاماً تجلب معها نعمة الضجر . ان للمخاطرة والمجازفة والخيال مطالبيها ، ولكن

كيف يمكن ان يحقق الكادح اليومي مطاليب كهذه ؟، ولو فرضنا ان بامكانه ان يحققها ، لبقي عليه ان يحقق مطاليب امرأته واولاده اولاً .

حالما تعصف بالبلاد ازمة ، يكتشف من وقع فريسة الروتين اليومي والمنظمات الجيدة ، في لحظة خاطفة انه ينتمي الى امة ما ، وان امته تستطيع ان تقوم بمجازفات كبرى وتنخرط في مهام صعبة فهي تستطيع ان تلهب الميول الجارفة الى معركة غير اكيدة وان تهيّج حب المخاطرة برسم خطط غزو عسكري لجبل سينا او لجنة عدن . يصبح ما تفعله امته ، بمعنى من المعاني ، فعله الشخصي وما يؤلمها ألمه كذلك . ويحل محل السنوات الطويلة التي قضاها بالتحفظ انجراف تام في الجنون العام . لا تنفع كل الواجبات المرة والتقتير والتنظيم والعناية التي تعلمها في شؤونه الخاصة في تصريف الشؤون العامة . ان من صميم الروح الوطنية ان يكون الفرد شرساً في سبيل الأمة ، على الرغم من ان الشراسة في الأمور الذاتية شر . وهكذا تتطاول رؤوس الشهوات القديمة والبدائية التي نبذتها الحضارة ، وترجع الغريزة الى عصورها البائدة في لحظة . ها قد فلت انسان الغابات المتوحش من السجن الذي زُجّ فيه ! هذا هو المعنى العميق لتحليل معنى حمى الحرب تحليلاً نفسياً .

بالاضافة الى ذلك العنصر الغريزي واللاعقلاني في حمى الحرب ، هناك ايضاً بعض التعليلات شبه العقلية التي تدعى رمزياً ، على أقل تعديل كمحرر للميول البدائية ، فكراً . قلما تمسك حمى الحرب بأمة غير واثقة من الانتصار . لا أحد يشك بان الناس تغالي في وقت تهيجها بمقدرتها على الفوز . ولكن هناك نسبة ما بين ما يطمح اليه الرجل العاقل وبين ما يتوقعه . ان هولندة مثلاً تحب الانسانية مثلما تحبها انكلترا . ولكن لم يكن عند هولندة ميل لاعلان الحرب رغبة في مساعدة بلجيكيا لأن

امكانية خسارتها كانت واضحة وضوح الشمس . ولو علم سكان لندن كيف ستتطوّر الحرب ، لما اغتبطوا كما اغتبطوا يوم اعلان الحرب في ذلك اليوم المشهور من أيام آب . اذا ما شهدت امة ما حرباً في حاضرها ، واذا ما ايقنت ان الحرب تجلب آلاماً تفوق كل الآلام التي توقعتها في بداية الحرب ، لارتفعت مناعتها لمقاومة حمى الحرب ارتفاعاً كبيراً ، على أقل تعديل ، الى ان يأتي جيل آخر . يعرف رجال الحكومة ورجال الصحافة الذين يرغبون في الحرب معنى العنصر اللاعقلاني في حمى الحرب ، لأنهم يحاولون دائماً تقليل اهمية نتائج مخاطر الحرب التي ينوون تحريكها . لقد صُرف السير وليم بتلر Sir William Butler من منصبه في بداية الحرب في جنوب افريقيا ، لأنه اعتقد بأن ستين الف رجل وثلاثة اشهر من القتال لا تكفي لأخضاع جمهوريات البوير . لمّا بدا ان الحرب طويلة وصعبة ، انقلبت الأمة على من قام بتلك الحرب . انا اعتقد انه بامكاننا ان نفترض ، ومن دون ان نعطي للعقل مكانة عالية في تصريف شؤون الانسان ، انه لا يمكن ان تقع امة ما فريسة لحمى الحرب فيما اذا اعتبَر كل انسان عاقل ان هزيمة أمته محتملة .

تظهر اهمية هذا الاعتبار من الحقيقة التالية : انها تجعل الحرب العدوانية بعيدة الاحتمال في حال ان امكانيات chances نجاحها قليلة جداً . لو كانت الأمم المحبة للسلام قوية لدرجة كافية لِهَزْمِ الامم المستعِدّة لشن حروب عدوانية هزيمةً واضحة ، لكان بامكانها ان تشكل اتّحاداً واحداً وتحارب يداً بيد كل امة ترفض ان ترفع مطاليبها الى مجلس دولي . كان بامكاننا قبل نشوء هذه الحرب الحاضرة ان نتأمل تأملاً معقولاً في ضمان سلام في العالم عن طريقة مشابهة ، ولكن قوة المانيا العسكرية قد برهنت على ان وسيلة كهذه لا حظ لها في النجاح في الوقت الحاضر .

ربما تصبح في وقت ليس بعيد جداً اكثر احتمالاً نتيجة لتطورات التخطيط السياسي في اميركا .

لو وُجدت في كل الأمم المتحضرة ارادة قوية الى السلام ، لسهل لجم القوى الاقتصادية والسياسية التي تدعو الى الحرب . ولطالما ان العامة معرضة لحمى الحرب ، فمن المحتم ان يبقى كل جهد من اجل السلام متضعضعاً . اذا كان تحريك حمى الحرب مستحيلاً ، لم يعد بامكان العوامل السياسية والاقتصادية القيام باي حرب او بحروب رهيبة . ان المشكلة الأولية التي تواجه دعاة مقاومة الحرب هي كيفية القضاء على ميول الحرب التي تعصف بمجتمعات كاملة من وقت الى آخر . لا يمكن القضاء على هذه الميول الا بتغييرات جذرية في التربية ، في بنية المجتمع الاقتصادي ، وفي الوضع الاخلاقي الذي يسمح للرأي العام ان يكبل (ارواح) الرجال والنساء من المواطنين[1] .

ان عدداً كبيراً من الميول التي تقود الأمم الى الحرب الآن هي بحد ذاتها ضرورية لأي حياة نشيطة ومتطورة . فمن دون الخيال وحب المغامرة يصبح المجتمع عاجلاً ام آجلاً عقيماً ويبدأ في الانحلال . المسابقة ضرورية للمجتمع طالما انها غير هَدّامَة او وحشية . انها تدفع الناس نحو نشاطات كثيرة وتحقق النصر لما هو حي على ما هو ميت ومجرد تقليد . لا يرغب الرجل الحكيم في تحطيم امل انسان ما بنجاح قضيته ، ولا في قتل احساس الفرد بضرورة شد ازر الصفوف المحتشدة من الناس . ليست هذه الميول شراً الا عندما تقود الى الدمار والهلاك والكراهية . المسألة

(1) سأتكلم في مواضيع أخرى عن التغييرات التي يُرغب في تغييرها من اجل ذاتها وليس فقط من اجل القضاء على الحرب .

هي : كيف يمكن الاحتفاظ بهذه الميول دون ان نجعل الحرب المنفذ الوحيد لها .

كل المدن الفاضلة التي تم اقتراحها حتى الآن هي مضجرة الى حد لا يحتمل . يُفضّل اي انسان فيه ذرة واحدة من الحيوية العيش في هذا العالم بكل ما فيه من أهوال مرعبة على ان يعيش في جمهورية افلاطون او بين الحوريات التي وصفها جونثان سويفت . يتفضل بناة المدن الفضلى برسم مدنهم بعدما قدّموا افتراضاً خاطئاً عما يكوّن الحياة الفاضلة . يعتقدون ان من الممكن تصور مجتمع ما وطريقة حياة ما تلقب بالفاضلة للمرة الأولى ومن بعدها تبقى فاضلة هكذا الى الابد . ولكن يفوتهم ان الجزء الاكبر من سعادة الانسان يتوقف على الحركة والعمل بينما لا يتوقف الا جزء قليل من سعادته على التمتع الصامت . ان الملذات الناتجة عن التمتع الصامت ذاتها لا تولّد في الناس حالة رضى الا اذا حصلت في مناسبات تتخلل العمل . يشابه المصلحون الاجتماعيون بناة المدن الفاضلة ، في تَغَافُلِهم عن هذه الحقيقة الواضحة للطبيعة الانسانية . يطمح المصلحون الاجتماعيون في ضمان وقت اطول للراحة وفي فرص اكثر للتمتع بهذه الراحة ، اكثر مما يطمحون لجعل العمل ذاته اكثر كغاية واكثر تناسقاً مع الميل الى العمل ، ولا يفطنون للمطالبة بجعل العمل منفذاً افضل للابداع والرغبة في استخدام كل قوى الانسان الطبيعية ، ليس العمل في كل انحاء العالم المعاصر ، وعند كل من يعتمد على اجرة يومية تقريباً ، الا كمجرد عمل وليس هو بتحقيق للرغبة في الحركة والنشاط . قد يكون من المحتمل ان هذا الوضع حتمي الى درجة كبيرة . ولكن اذا كان في الامكان تخطي هذا التدهور ولو الى درجة ، لكان من الضروري ان نتخطاه حتى نستطيع ايجاد منفذ سليم لبعض الميول التي تقود الى الحرب .

لـو لم يكن في العالم نشـاط وحيويـة ، لكان بـالطبـع إحـلال السـلام سهلاً . عندما كانت الامبراطورية الرومانية هادئة ، كان عطاؤهـا قليلاً . بينما كانت اثينا في عصر بركليس اكثر مجتمعات العالم عطاءاً ، عـلى الرغم من ان التاريخ لم يشهد مجتمعاً محباً للحرب مثلها . ان الصناعـة التي برع بها عصرنا واجاد هي صناعة العلم . وفي صناعة العلم هذه لم تتفوق ايـة دولة اخرى على المانيا . ولكن لا تتفوق ايضاً اية دولة كبرى في العـالم على ألمـانيا في حبهـا للحرب . ان تكثير الامثلة لا يجـدي اذ من الواضـح ان الـطاقة التي تـأتي بكل مـا هو حسن فينـا ، هي نفس الطاقـة التي تصنـع الحرب وحب الحرب . هذا هو اساس معارضة الدعوة الى مقاومـة الحرب الذي يقدمه اناس كثيرون ، اناس ليست اعمالهم ولا مطامحهم وحشية او بربرية . غالبـاً ما تعني الـدعوة الى مقـاومة الحـرب انعدام القـوة بالكليـة وليس رفض استخـدام القوة في كسر شـوكـة الآخـرين . فـاذا أراد دعـاة مقاومة الحـرب النصر والمصالحـة ، وجب عليهم ان يجدوا منفـذاً يتفق مع الشعـور الانسـاني للدفق الحيـوي الـذي يقـود الأمم الآن الى الحـرب والدمار .

لقد عالج وليم جايمس هذه المسألة في كلمة بليغـة جداً عن « البـديل الاخلاقي للحرب »، ألقاها امـام مجتمع من دعـاة مقاومـة الحرب خـلال الحرب الاسبانية الاميركيـة عام 1898 . لا يمكن ان يُضـاف الى معالجتـه لتلك المسألة ، وهو على حسب تقديري ، المفكر الوحيد الذي عالج هـذه المشكلة معالجة صحيحـة . ولكن الحل الـذي قدمـه لتلك المشكلة لم يكن صحيحـاً ، وربما ليس هنـاك من حل صحيـح لها . المسـألـة ، عـلى كـل حـال ، هي مسألـة درجات ، ان كـل زيـادة في المنافـذ السلميـة للطاقـة الانسانية ، تزيد في انخفـاض القوة التي تـدفع الأمم الى الحـرب وتجعلها

اقل حدوثاً واقل حدّة . وبما انها مسألة درجات ، فهي تُفسح المجـال امام حلول اقل واكثر شمولاً .

يحتـاج كل انسـان حيوي الى نـوع من المسـابقـة او الشعـور بتخـطي المقاومة ليُحِسَّ ان قواه سليمة وحية . ظهرت نـظرية من جـراء تأثـير علم الاقتصـاد تقول بـان ما يـرغبه النـاس هو الثـروة وقد مـال الكثيـرون الى التحقق من صحتها نتيجة كون اعمال الناس في الغالب محدّدة بما يؤمنـون انهم يرغبون فيـه وليس بما يـرغبونـه حقاً . يـطلب اعضاء المجتمـع الاقل نشاطاً الثروة حقاً ، لما تهيّئهُ لهم من تمتع بما يؤثـرون دون تكلف او عناء ، ولمـا تَضْمنُه لهم من احتـرام بلا مشقـة ، أو عذاب . امـا الرجـال الاكـثر نشاطاً ، الرجال الذين يكسبون امـوالاً طائلة ، فـلا يطلبـون الثروة بحـد ذاتها الا نادراً . انهم يرغبون الحصول على شعور بالقوة يتولد من المسابقـة والابتهاج بعمل ناجح . لهذا غالباً ما نجد ان من يكسب اموالاً طائلة بلا شفقة ، يبعثرها بلا رحمـة ، وهناك امثلة مشهـورة عن هذه الـوضعية بـين اصحاب الملايين من الاميركان . ان العنصر الحقيقي الوحيـد في النظريـة الاقتصادية التي تقول بان الناس تحركهم رغبتهم في المال هو الآتي : بما ان المال هو الشيء الذي يُعْتَقَد انه مرغوب فيه بحد ذاته ، يصبح كسب المال معياراً للنجاح . ما يُطمح اليه في هذه الحالة هو نجاح ملموس غـير قابـل للجدل ، ولكن هذا النجـاح لا يمكن ان تُحققه الا حفنـة قليلة من الناس اذ تحصل على غـاية يتمنى الكثيـرون الحصول عليهـا . ولهذا نجـد الرأي العـام يؤثّر تـأثيراً كبيـراً في توجيـه نشاطـات الرجـال الحيويـين . يُحترم في اميركا الرجل صاحب الملايين اكثر من الفنان الكبير ، ويقود هذا الاحترام الشبـان الذين يمكن ان يصبحـوا هذا او ذاك الى اختيـار طـريق اصحـاب الملايين . كان الفنانون الكبار محترمين اكثر من اصحاب الملايين في ايطاليا

ايام النهضة ، ولهذا كانت النتيجة مخالفة لما يحدث في اميركا .

ان بعض دعاة مقاومة الحرب وكل المتطرفين العسكريين ، يمقتون المناورات السياسية والاجتماعية . والعسكريون هم من وجهة نظرهم بالطبع ، على حق في ذلك . اما دعاة مقاومة الحرب فهم في نظري على خطأ . لا تقود مخاصمات الاحزاب السياسية والمنازعات التي تنشأ بين اصحاب رؤوس الأموال وبين العمال ، وبشكل عام كل مخاصمة في المبادىء ، بل تخدم مقاصد عديدة نافعة ولا تسبب اي ضرر يذكر . فهي تُذكي اهتمام الناس بالشؤون العامة وتخدم كمنفذ بريء لحب المسابقة وتساعد على تغيير القوانين والمؤسسات كلما دعت الظروف المتغيرة او المعرفة المتزايدة الى تغييرها . يدفع كل ما يضاعف الاهتمام بالحياة السياسية الى خلق اهتمام بالسلام مشابه للاهتمام الذي يقود الى الرغبة في الحرب . في كل بلد ديمقراطي تُعطي الاسئلة السياسية كل منتخب شعوراً بالمسؤولية والسلطة يضيف الى حياته شيئاً من روح المغامرة . يجب ان يرمي دعاة مقاومة الحرب الى اعطاء الناس مزيداً من التسلط على حياتهم السياسية وبوجه خاص لادخال الديمقراطية الى ادارة القطاع الصناعي على الشكل الذي يدعو اليه النقابيّون .

يتشعب السؤال الذي يجب ان يطرحه على نفسه كل فرد من (افراد) دعاة مقاومة الحرب الى فرعين : اولاً ، كيف يضمن السلام لدولته ، ثانياً كيف يضمن السلام في العالم . يستحيل ضمان السلام في العالم فيما اذا كانت الأمم كلها معرَّضة للانزلاق في نفس الحالة النفسية التي آلت اليها المانيا قبل إشْهارِها الحرب ـ الا اذا وُجِدت امة قوية جداً لا تستطيع كل الأمم الاخرى مجتمعة مقاومتها ، تصبح الحرب عندئذ غير ضرورية بالنسبة لهذه الأمة العاتية ، كما تصبح بلا جدوى بالنسبة للأمم الاخرى .

بما ان هذه الحرب الحاضرة لا تزال تَجُرُّ وراءها ذيلها الطويل ، فلا بد ان يكون قد تساءل اناس كثيرون عمّا اذا كان ثمن الاستقلال الذاتي يوازي ما يُبذل في سبيله . اليس من الأفضل ايجاد سلام عالمي حتى ولو جاء نتيجة سيادة قوة واحدة ؟ كان بمستطاع الانهزاميين في حركة مقاومة الحرب ان يقولوا خلال العامين الاولين من الحرب« بما ان ضمان سلطة فيدرالية في العالم يتطلب بعضاً من التعقل في الحكام وفي جماهيرهم ، فوجود سلطة فدرالية من هذا النوع هو بعيد عن التطور . اما ضمان السلام في العالم مقابل اعطاء ألمانيا حق املاء شروط الصلح على اوروبا فهو سهل للغاية » . بمستطاع هذا الرجل الذي يطلب السلام باي ثمن ان يتابع قوله : طالما انه ليس هناك اية طريقة اخرى لانهاء الحرب ، فدعنا اذن نتبنى الطريقة التي هي في متناول ايدينا الآن . ان اهمال هذه النظرة شائع بين الناس ، ولكن يجدر بنا البحث عن مدى صحتها قبل كل شيء .

هناك مثل تاريخي مشهور عن سلام تَمَّ تحقيقه على هذا النحو واعني به سلام الامبراطورية الرومانية . نحن نتبجح الآن في انكلترا « بالسلام البريطاني » الذي فرضناه بهذه الطريقة على الهند ودياناتها المختلفة . فاذا كان تبجحنا حقاً ، وإذا كنا في الحقيقة قد ادينا الى الهند خدمة جليلة لما فرضنا عليها السلام ، فبامكان الألمان ايضاً ان يتبجحوا عن حق فيما لو استطاعوا فرض سلام الماني على اوروبا . كان يصح الاعتراض على تشبيه اوروبا بالهند قبل بداية هذه الحرب عندما كانت الهند اقل حضارة من اوروبا ، اما الآن فارجو ان لا يرتكب احد ما هذه البلاهة بافتراض شيء سخيف كهذا . جرت في التاريخ المعاصر محاولات عديدة لتوحيد اوروبا بسيطرة دولة واحدة عليها ، ولكن بريطانيا حاولت باستمرار منع اجتناء لذة اتحاد كهذا بناء على مبدأ « ميزان القوى » ومحافظة على ما دعاه

السياسيون « حريات اوروبا ». هذه هي المهمة التي نقوم بها الآن . انا اعتقد ان ليس بين ساستنا او أي جماعة منا مَنْ اظهر جهداً كبيراً لمعرفة ما اذا كانت هذه المهمة تساوي ما يبذل في سبيل تحقيقها .

لقد كنا على خطأ تام في مقاومتنا للثورة الفرنسية . فلو تمت السيطرة لفرنسا على القارة الاوروبية وعلى بريطانيا ، لكان العالم اكثر سعادة واكثر حرية وبالطبع اكثر سلاماً . لكن فرنسا الثورة (كانت) حالة فريدة من نوعها لان حملاتها الاولى كانت تحمل لواء الحرية ضد الطغاة وليس ضد الشعوب ففي كل مكان كانت الجماهير تستقبل الجيوش الافرنسية استقبال المحررين ولم يقاومها الا الحكام وعملائهم . اما من ناحية فيليب الثاني ، فقد كنا على حق تام مثلما كنا على خطأ تام عام 1793 . ولكن يجب ان لا نُقيس اعمالنا في كلا الحالين بمقياس ديبلوماسي مجرد كمقياس « حريات اوروبا »، بل باهداف القوة التي تبغي السيادة على اوروبا وبنتائجها المُرتَقبة على مصالح العامة من رجال اوروبا ونسائها .

ان «السيادة» هي كلمة غامضة ، وكل شيء يدور حول درجة تَدَخُلِها في الحرية . هناك درجة من التدخل في الحرية تقتل اشكالاً متعددة من الحياة القومية كما حصل في ايطاليا مثلاً عندما كانت تحت وطأة اسبانيا والنمسا في القرنين السابع والثامن عشر . فلو تمكن الالمان من ضم مقاطعات افرنسية كما فعلوا عام 1871 ، لانزلوا ربما تغييرات قاتلة لتلك المقاطعات ولجعلوها اقل افادة بشكل عام للحضارة كلها . ولهذا السبب نجد الحرية الوطنية مسألة هامة جداً . فلو حكمت المانيا اوروبا ، لكان من المحتمل ان تقِلَّ حيوية اوروبا ويجف عطاؤها . ولكن اذا عنت « السيادة » فقط مجرد ارتفاعٍ للوزن في تقرير المسائل الدبلوماسية ، وازديادٍ في محطات الفحم الحجري والممتلكات في افريقيا ، واضطراد في

القوة على ضمان معاهدات تجارية رابحة ، فمن الصعب جداً القول بان سيادة كهذه يمكن ان تسبب ضرراً قوياً للأمم الاخرى - وبالتأكيد لا يمكن ان تسبب اضراراً مساوية للأضرار التي تسببها الحرب الحاضرة . لا اريد ان اشك ولو للحظة واحدة بان سيادة من هذا النوع كانت قد أرضت الألمان قبل اعلان الحرب ارضاءً تاماً . ولكن قد زادت الحرب كل المخاوف التي اعلنت رجاء في تفاديها . ليس لدينا الآن سوى الاختيار بين ان نستنفد كل قوى اوروبا في محاربة المانيا او ان تترك الحياة الوطنية في فرنسا فريسة لطغيان المانيا . هذه هي المسألة كما تظهر الآن من وجهة نظر الحضارة والمصلحة الانسانية ، ليس من وجهة نظر النفوذ الوطني .

لو فرضنا ان الحرب لا تنتهي باستيلاء دولة واحدة على كل الدول الأخرى ، تبقى الوسيلة الوحيدة لانهاء الحرب مرة واحدة والى الابد في انشاء فدرالية عالمية . ولكن طالما توجد دول متعددة ولكل منها جيشها الخاص ، فليس من ضمانة ضد الحرب . يجب ان لا يبقى في العالم الا جيش بري واحد وبحرية واحدة قبلما يوجد اي سبب للاعتقاد بان قد وُضع حد نهائي لكل الحروب . هذا يعني انه اذا اعتبرنا فقط المهام العسكرية للدولة ، فلن يكون هناك الا دولة واحدة يشمل حكمُها العالَم اجمع .

ليس لمهام الدولة المدنية كالتشريع والادارة والقضاء ايةُ علاقة ضرورية بالمهام العسكرية . ليس ما يوجِب ان ترتبط كل هذه المهام بنفس الدولة . يوجد بالحقيقة كل سبب للاعتقاد بان من الواجب ان تختلف الدولة المدنية عن الدولة العسكرية . ان الدول المعاصرة الكبرى هي منذ الآن اكبر مما يتطلب تنفيذ اكثر المقاصد المدنية ، لكنها ليست كبيرة كغاية للمقاصد العسكرية اذ انها لا تشمل بعد العالم اجمع . يدعو

هذا الاختلاف حول تحديد الدائرة المرغوب فيها لكل من هذين الشكلين للدولة الى الحيرة والتأفف . يرجع هذا الى عدم الاعتقاد بان ليس من علاقة ضرورية بين مهام شكلي الدولية - تشير بعض الاعتبارات الى ضرورة ايجاد دول صغيرة بينها تشير بعض الاعتبارات الاخرى الى ضرورة انشاء دول كبيرة . لو وُجد جيش دولي وبحرية دولية ، لوجدت بالطبع سلطة دولية لتوجيهها . لكن لا تحتاج هذه السلطة لان تتدخل في شؤون الدول القومية الداخلية . كل ما تحتاج اليه هو اصدار القوانين التي يجب ان تسيِّر علاقاتها وان تقضي ، بناء على مشاورات قضائية ، متى يجب ان تُستخدَم القوة الدولية في معاقبة من يخالف تلك القوانين مخالفة تستوجب استخدام القوة . تَظهر سهولةُ وضع حدود للسلطة الدولية من امثلة واقعية متعددة .

غالباً ما تختلف عملياً الدولة المدنية والدولة العسكرية في حقول متعددة . ان جمهوريات اميركا الجنوبية هي سيدة نفسها في كل الامور ما عدا علاقاتها باوروبا اذ تعتمد على جيش الولايات المتحدة وبحريتها . ان دول الدومنيوم التابعة لنا تحكم ذاتها بذاتها . ولكنها لا تعتمد على نفسها في مجالات الدفاع بل على اسطولنا البحري . لا ترمي اكثر الحكومات في هذه الأيام الى ضم مقاطعة تأمل استغلالها ، بل الى فرض حماية عليها ، ويعني ذلك سيادة مدنية ذاتية خاضعة لسيادة عسكرية . ان سيادة ذاتية كهذه هي بالطبع غير كاملة لانها لا تترك « للمحميات » قدرة على اتخاذ اجراءات ترفضها الدولة صاحبة السيادة العسكرية . ولكنها قد تكون شبه تامة ، كما هي الحال عندنا في دول الدومنيوم صاحبة الاستقلال الذاتي . وقد تصبح هذه السياسة من ناحية اخرى مجرد مهزلة كما هي الحال عندنا في مصر . بينما في حالة الحلف السياسي ، فهناك مجال لان تتمتع كل دولة

متحالفة بسيادة تامة كما تتمتع ايضاً بحصيلة اتحاد قوى الحلف العسكرية .

ان المكسب الكبير من وجود دولة عسكرية كبيرة هي وجود مساحة واسعة لا يمكن ان تحصل فيها حرب ، جل ما يمكن ان يحل بها هو ثورة . عندما يحدث اي خلاف بين كندا وانكلترا ، يُسعى الى حله بطبيعة الحال ، بالمناقشة ليس بالقوة . كذلك هي الحال ، لا بل الى درجة اكبر ، عندما يحصل اي خلاف بين مانشستر وليفاربول ، بالرغم من ان كلا منها يتمتع باستقلال ذاتي في امور محلية كثيرة . لا يخطر ببال احد ان ليفاربول يمكن ان تعلن الحرب حتى تمنع بناء قنال لسفن مانشستر ، على الرغم من ان اي دولتين كبيرتين يمكن ان يعلنا الحرب من اجل مسألة لها ذات الأهمية تقريباً . لو لم تكن روسيا وانكلترا متحالفتين ، لكان من المحتمل ان تعلنا الحرب على بعضهما البعض رغبة في الحصول على ايران . وقد توصلتا بالرغم من ذلك دبلوماسياً الى نفس النتيجة المحزنة التي كان بامكانهما التوصل اليها بالحرب . لو استقلت اوستراليا واليابان استقلالاً تاماً لكان من المحتمل جداً ان تتحاربا ، ولكن حرية كليهما تعتمد على الاسطول البريطاني ، وهما بالتالي مضطرتان الى تسوية خلافاتهما تسوية سلمية .

ان الآفة الرئيسية في دولة عسكرية كبرى هي ان المساحة التي تتأثر من جراء حرب خارجية هي كبيرة جداً . يُشكِّل الحلف الرباعي في الوقت الحالي وَحْدَة عسكرية نتيجتها ان بلجيكيا تُهدَّم وان ابناء النمسا تُقتل في مضايق الدردنيل بسبب النزاع بين النمسا والصرب . وآفتها الثانية انها تسهل الاضطهاد . ان دولة عسكرية كبيرة هي بالواقع كلية القدرة ، اذ يمكنها ان تفرض ارادتها على الدول الصغيرة ، كما فعلت مثلاً

انكلترا وروسيا في ايران وكما تفعل النمسا وهنغاريا في الصرب . من المستحيل ان توضع بشكل آلي موانع اكيدة ضد الاضطهاد ، فليست الحماية الحقيقية الا شعور انساني ليبرالي . كان بمستطاع انكلترا ان تضطهد ايرلندة بالرغم من وجود الديمقراطية وحضور اعضاء ايرلنديين في البرلمان البريطاني . لم يمنع وجودُ بولنديين في البرلمان الألماني من اضطهاد البروسيين لبولندة . ولكن الديموقراطية والتمثيل النيابي يمكن ان يجعلا الاضطهاد بلا ريب اقل احتمالاً ، اذ انهما تضعان وسيلة تحت تصرف المضطهَدين ليرفعوا شكواهم الى الملأ ، كما انهما تجعلان من المؤكد ان لا احد يُضطهد سوى الاقلية ، وذلك فقط اذا كانت الاكثرية الساحقة تتمنى اضطهادهم . بالاضافة الى ذلك ، يُعطي تنفيذ الاضطهاد الى الطبقات الحاكمة التي تأمر بمثل هذا الاضطهاد لذةً اكثر مما يعطي الجماهير العامة من السكان . ولهذا السبب قد تكون الجماهير اقل ظلماً وطغياناً ، اذا ما توصلت للحكم ، من حفنة صغيرة من الحكام او البيروقراطيين .

لكي يتم وضع حد نهائي للحرب والحفاظ على الحرية في الوقت ذاته ، كان من الضروري ان يتم ايجاد دولة عسكرية واحدة في العالم تتصرف وفقاً لسلطة مركزية .لتحل اي نزاع ينشب بين الدول . وهذا هو كل ما يُطلب تحقيقه من اتحاد عالمي كهذا ، اذا ما حصل تكوينه في يوم من الايام . ولكن احتمال تكوينه بعيد جداً ومن المفيد ان نبحث عن سبب بعده .

ما يؤلف الوحدة في الأمة هي عادات متشابهة ، محبة غريزية ، تاريخ مشترك ، وافتخار متبادل ، تنتج وحدة الأمة من العلاقات الضمنية (المستترة) بين المواطنين من ناحية اولى ومن ضغوط العالم الخارجي عليها ومقارنة نفسها به من ناحية اخرى . فلو وُجدت امة ما بمعزل عن عالم

خارجي ، لما تولد فيها ذات الشعور بالألفة والوطنية . تشد اميركا وانكلترا بعضها الى بعض نفس الأسباب التي غالباً ما تولد الوحدة الوطنية . لغة واحدة الى درجة كبيرة ، مؤسسات سياسية متشابهة ، واهداف مماثلة في السياسة الدولية . ولكن انجذبت انكلترا وفرنسا وروسيا نحو بعضها فقط بسبب الخوف من المانيا ـ لو مّحتْ المانيا من الوجود نازلةٌ طبيعية . لبدأوا حالاً في كره بعضهم البعض كما فعلوا قبلما اصبحت المانيا دولة قوية . لهذا السبب لا نجد في تعاون الحلف ضد المانيا ما يعطينا اي امل بان تتعاون كل دول العالم في تشكيل اتحاد سلمي يدوم ابد الدهر . ان الخوف هو الدافع المشترك الى التضامن في الوقت الحاضر وسوف يزول هذا الدافع يوماً ما ولا يمكن استبداله بأي دافع آخر الا اذا تغيرت افكار الناس واهدافهم عمّا هي عليه الآن .

ان الحقيقة الأخيرة التي تصدر عنها الحرب ليست اقتصادية ولا سياسية ولا تتوقف على اية صعوبة آلية في ايجاد وسيلة لحل المنازعات الدولية حلاً سلمياً . الحقيقة الأخيرة التي تصدر عنها الحرب هي الحقيقة المبنية على الواقع الذي يدل على ان قسماً كبيراً من البشرية يميل الى المخاصمة عوضاً عن المصالحة ولا يمكن دفعه الى التعاون مع الآخرين الا في مقاومة او مهاجمة عدو مشترك . هذه هي الحال في الحياة الخاصة كما هي في العلاقات بين الدول . عندما يشعر اكثر الناس انهم اقوياء الى درجة كافية ، يبدأون في فرض سطوتهم على الآخرين بدلاً من اظهار رغبة في التودد إليهم : لقد جرت القاعدة على ان لا يَطلُب كسبَ ود الآخرين الا مَنْ لم يحصل بَعْدُ على سلطة ثابتة . ان الميل الى المنازعة والتشديد على النفس ، واللذة في متابعة السيل بالرغم من مقاومة الآخرين ، هي في اكثر الناس اشياء طبيعية . ما يسبب الحرب ويضع عقبات كبيرة في وجه

تحقيق دولة عالمية هو هذا الميل الى المنازعة ، وليس اي دافع آخر مبني على تخطيط في المصلحة الذاتية ، لا ينحصر هذا الميل في امة واحدة ، بل يوجد على درجات مختلفة في كل الأمم الحيوية في العالم .

وعلى الرغم من ان هذا الميل قوي للغاية ، فليس من سبب لأن يُترك المجال له ليقود الى الحرب . الميل الى المنازعة هو نفس الميل الذي كان يقود الى المبارزة . ولكن الناس المتحضرين في هذا العصر يحلون منازعاتهم من دون اللجوء الى سفك الدماء . اذا بُدِّلت الحرب في داخل الدولة العالمية بالمسابقة السياسية ، فسوف تتعود المخيلة على الوضع الجديد كما تعودت على نسيان المبارزة . تستطيع البشرية ، ومن دون اجراء اي تعديل جذري في الطبيعة الانسانية ، ان تتعلم من خلال المؤسسات والعادات ان تطرح وراءها الحرب طرحاً تاماً كما تركت خلفها احراق الهراطقة او تقديم ضحايا حية على مذابح الآلهة . لو اشتريتُ مسدساً ببضع ليرات حتى اقتل رفيقي رغبة في ستة فرنكات من جيبه ، لحسبني الناس غير حكيم وغير آدمي . ولكن اذا كان بامكاني تجميع خمسة وستين مليون من الناس تشاركني القيام بهذه السخافة الاجرامية ، فسأصبح ابناً من ابناء امة مجيدة اضحي بنبل بمسدسي ولربما بحياتي ، حتى احصل على الستة فرنكات في سبيل شرف امتي . سيمتدحني المؤرخون الذين هم غالباً عبدة المنتصر ، وسيمتدحون شركائي اذا ما نجحنا وسيصفونا باننا نحن الخلفاء الحقيقيون لابطال الماضي الذين سحقوا بأس روما الامبريالية . ولكن اذا انتصر أخصامي بعدما بذلوا في الدفاع عن ستة فرنكاتهم ما كلف كل فرد منهم مئات عديدة من الليرات وقسماً كبيراً من السكان حياته ، فسيصفني هؤلاء المؤرخون بالمغامر (الذي هو وصفي الحقيقي) وسيمتدحون روح البسالة والتضحية في من قاومني .

تخلع على الحرب كلٌ من التقاليد وملاحم هوميروس والعهد القديم والتربية الابتدائية والاساطير المحاكة حول اهمية قضايا الحرب وقداسة الموت في ساحاتها ، هالةً من العظمة . فَيِفْتاحُ اصبح اسطورة بطولية لانه ضحى بابنته ، ولكنه كان قد ابقى عليها لو لم تخدعه تلك الاسطورة . يُخدَعن ايضاً النساء اللواتي يُرسلن اولادهن الى المعركة بفخر واعتزاز كما خدع يفتاح . لو لم يكن في المفهوم الخيالي الذي يأتي بالأساطير ، خيوط من البربرية ، لكان بالامكان التخلص من تلك البطولة التي تقود في كلا الحالين الى قساوات لا تتصور . لا يمكن ان يَعْبُدَ الهاً يرضى ان تُضحى ابنةٌ بريئة من اجله ، الا أناسٌ لا يُرعِبُهم التفكير بقبول ضحية كهذه . ان امة تعتقد انها لا تستطيع ضمان مصلحتها القومية الا بارتكاب مئات الآلاف من الجرائم الرهيبة المماثلة لتلك التضحيات ، هي امة تجهل اجل معنى من معاني المصلحة القومية . كم هو مفضل بمئات المرات ان نتخلى عن الراحة المادية ، عن السلطة ، عن الافتخار ، وعن كل مظاهر الابهة على ان نَقتُل ونُقتَل ، على ان نكره ونُكره وان نَطرح جانباً في هَبَّةٍ من الجنون كل ما خلَّفْته لنا الاجيال السابقة من حضارة ورقي . لقد تعلمنا تدريجياً ان نتحرر من الاله الذي قدمه لنا الاسرائيليون القدماء وآباء الكنيسة الأولون . لم يبق منا الا القليل الذي يؤمن بان الله يتلذذ برؤية اكثرية الجنس البشري تتلظى بنار جهنم . ولكننا لم نتعلم بعد تحرير مُثُلنا القومية من هذه اللطخة القديمة ، ان عبادة الأمة هي ربما اعمق ديانة واكثرها شيوعاً في عصرنا الحاضر . وهي مثل الديانات القديمة ، تقوم باضطهادات وإبادات وقساوات رهيبة ، وهي مثلها ايضاً نبيلة ، بدائية ، وحشية وجنونية . والآن كما في الماضي ، تتغلغل من خلال التقاليد الثقيلة الى الضمائر الشخصية وتسرق من قلوب الناس الرحمة ، ومن عقولهم

حب الحقيقة ، اذا اريد الخلاص للعالم وَجُبَ على الناس ان تتعلم كيف تكون نبيلة بلا قساوة ، كيف تكون ممتلئة بالايمان ، وبنفس الوقت ، منفتحة على حب الحقيقة ، وكيف تندفع وراء اهداف عظيمة من دون ان تكره من يحاول تغيير هذه الأهداف . ولكن قبلما يتعلم الناس تحقيق كل هذا ، يجب عليهم اولاً ان يتعلموا الحقيقة المُرَّة وهي ان الآلهة التي يحنون رؤوسهم لها هي آلهة مزيفة وان الضحايا التي يقدمونها لها ذاهبة سدى .

الفصل الرابع

الملكية

ربما يكون جيسنغ اكثر روائيي المدّرسة الواقعية المتشائمين تشاؤماً ، فهو ككل شخصياته يعيش تحت ثقل ضغط كبير - سلطة الشيء المُرعِب الذي هو ، مع كل هذا ، المال الصنم المعبود . ففي احدى قصصه النموذجية « فدية حواء »، ترمي البطلة بأعذار مختلفة ومشينة حبيبها الفقير لتتزوج رجلاً غنياً تحب مدخوله أكثر مما تحبّه . فعندما يجد الرجل الفقير ان مدخول الرجل الغني قد ملأ عليها حياتها واضفى عليها شخصية افضل مما لو كان بامكان حبه ان يوفر لها ، يقر بانها فعلت الشيء الأفضل وانه يستحق هذه المعاقبة لفقره . يصور جيسنغ في هذه القصة ، كما في بقية كتبه ، سلطان المال الفعلي والعبادة اللا انسانية التي يفرضها على مجموعة كبيرة من العالم الراقي تصويراً دقيقاً .

على الرغم من ان الحقائق التي كتب عنها جيسنغ لا تنكر ، فان موقفه يثير الاشمئزاز في كل قارىء تعتمل فيه دوافع حيوية ورغائب تتوق الى الاستقلال . يرتبط حبه للمال باحساسه بانهزام داخلي . وفي العالم المعاصر بوجه عام ، قد جلب انحطاط الحياة ديانة مادية ، والديانة المادية بدورها قد عجلت بهدم الحياة التي كانت تنمو عليها بقوة . قد يتوقف الرجل الذي يعبد المال عن طلب السعادة إنْ في جهوده الخاصة او في اعماله اذ يعتبر السعادة كتلذذ لا يطلب الجهد بالملذات التي توجد في

العالم الخارجي . لا يعبد الفنان او العاشق في لحظات هيامه المال لان رغائبه محددة وموجهة نحو اشياء لا أحد سواه يستطيع ابداعها . وبالمقابل لا يستطيع متعشق المال تحقيق عظمة كعظمة الفنان والعاشق .

ما زال الاخلاقيون يتشكون من حب المال منذ ان وجد العالم . ولا اريد اضافة شيء الى مواعظهم الاخلاقية التي لم تكن فعاليتها في الماضي مشجعة . كل ما اريد اظهاره هو كيف تكون عبادة المال نتيجة وبنفس الوقت سبباً لحيوية متناقضة ، وكيف يمكننا بالتالي ان نُغير مؤسساتنا حتى نجعل عبادة المال تأخذ في النقصان بينما نجعل الحيوية العامة تأخذ في التزايد . ليست الرغبة في المال كوسيلة لتحقيق غايات معينة بموضع للتساؤل . قد يرغب فنان ناهض في المال لكي ينصرف كلياً الى فنه ، ولكن هذه الرغبة محدودة ويمكن لكمية متواضعة من المال ان تشبعها كلياً .ان عبادة المال ، الاعتقاد بأن كل القيم يمكن ان تقاس من وجهة نظر المال ، وان المال هو المقياس الأول والأخير للنجاح في الحياة ، وهو ما أريد معالجته . تُطبِّق جماهير مؤلفة من الناس هذا الاعتقاد بالفعل ان لم يكن بالقول ـ مع انه لا يتفق والطبيعة الانسانية اذ هو يتجاهل حاجات حيوية مثلما يتجاهل الاتجاه الغريزي لشكل معين من النمو . انه يدفع الناس ليعتبروا رغائبهم ، التي تخالف الرغبة في تجميع المال ، غير مهمة ، مع ان هذه الرغائب هي ، كقاعدة ، اساسية للحياة الفضلى اكثر من اي زيادة في المدخول . انه يقود الناس اولاً الى ان يشوهوا طبائعهم من اجل نظرية تخطىء في تصور حقيقة النجاح ، وثانياً لان يعجبوا بمغامرات لا تضيف شيئاً الى السعادة البشرية . انه يشيع في الخلق والمقصد نمطاً مشتركاً جامداً واضمحلالاً في الفرح بالحياة وضيقاً وشدة تترك مجتمعات باكملها منهكة ، خائرة ومكسورة العزيمة .

يعتبر الكثيرون ان اميركا ـ التي هي رائدة التقدم في العالم الغربي ، تجسد عبادة المال بأتم شكل . كالاميركي الناجح الذي يملك مالاً اكثر مما يحتاج لاشباع كل متطلباته المعقولة ويتابع عمله غالباً في مكتبه بمواظبة لا يُتساهل بها الا في الحالات التي يكون فيها الموت جوعاً ، المنفذ الوحيد .

ولكن الانحناء أمام عبادة المال في انكلترا ، باستثناء جماعة صغيرة ، شائع كشيوعه في اميركا تقريباً . يأخذ حب المال في انكلترا عادة شكل الرغبة المتكبرة للمحافظة على طبقة اجتماعية معينة بدلاً من الجري وراء ارتفاع غير محدود في المداخيل . يؤجل رجال كثيرون زواجهم الى ان يمكّنهم معاشهم من ان تحوز بيوتهم على غرف كثيرة وخدّام عديدين يتناسبون مع ما يشعرون بان عزتهم تتطلبه . يُحتِّم عليهم هذا الشعور ان يراقبوا احاسيسهم في مرحلة الشباب لئلا تقودهم الى مزلة ، ولهذا يكتسبون عادةَ الحرص العقلي والخوف من ان « يسلموا انفسهم للشرير » التي تجعل العيش بحرية وحيوية مستحيلاً . يتصورون انهم في تصرفهم هذا فاضلون لانهم يعتبرون من القسوة ان يطلبوا من امرأة ان تتنازل الى طبقة اجتماعية ادنى من طبقة اهلها ، كما يعتبرونه انحطاطاً لهم ان يتزوجوا من امرأة تنتمي الى طبقة اجتماعية لا توازي طبقتهم . لا يجري تقييم الأشياء في الطبيعة بالمقابلة مع المال . لا تُحسَب قسوةً على المرأة ان تُرغم على الرضى باهتمام محدود ومحاذر كتجربتها الوحيدة في الحب مع انسان فقد المقدرة على الحب خلال سنوات من الانضباط الواعي والعلاقات المؤلمة مع نساء لم يكن لهن اي احترام . والمرأة نفسها لا تدرك ان ذلك قسوة لانها هي ايضاً قد تربت على الانضباط خوفاً من ان يسقط حجمها في الميزان الاجتماعي ، وقد نُقش في صدرها منذ الصغر على ان العواطف القوية لا تليق بمثيلاتها . وهكذا يتحد الاثنان لينزلقا عبر الحياة

جاهلين كل ما هو جدير بالمعرفة . ان الخوف من نار جهنم لم يُفلِح في ضبط شهوات اسلافها ، ولكن خوفاً اسوأ قد نجح في تقييدهما تماماً الا وهو الخوف من النزول الى العالم .

ان ذات الدوافع التي تقود الناس الى الزواج مؤخراً تقودهم ايضاً لأن يجددوا عائلاتهم . يتمنى اصحاب الحرف ان يرسلوا اولادهم الى مدرسة خاصة على الرغم من ان التعليم الذي سيتلقونه هناك لا يفضل تعليم مدرسة حكومية كما ان الرفاق الذين سيعاشرونهم هم اكثر اذية . ولكن الكبرياء قد حكمت بان المدارس الخاصة هي افضل ، وليس من هذا الحكم إفلات . ما يجعلها افضل هو كونها اغلى . يجري نفس الصراع الاجتماعي وبأمْثِلة مختلفة في كل الطبقات ما عدا العليا والسفلى . يَبذل الناس في سبيل تحقيق هذه الغاية جهوداً اخلاقية كبيرة ويُظهرون قوة مدهشة في الضغط على النفس . ولكن كل جهودهم وكل سيطرتهم على النفس ، لكونها لا تستخدم في سبيل اي مقصد ابداعي ، تخدم لتجفيف منبع الحياة في داخلهم وتجعلهم ضعفاء وبلا امل ولا معنى . ليس في تربة كهذه يجد الميل المنتج للعباقرة غذاء . لقد بَذَّل الناسُ البريةَ بغرفة الاستقبال واصبحوا محصورين ، جميلين ومشوهين كارجل النساء الصينيات . بالكاد تقوى أهوال الحرب على ان توقظهم من كبرياء مسيرهم في نوم الاحترام . لقد اودت عبادة المال بشكل رئيسي بكل ما هو عظيم في الانسان الى رقاد شبيه بالموت .

في فرنسا تأخذ عبادة المال شكل التقتير . ليس من السهل ان يجمع المرء ثروة في فرنسا ، ولكن الثراء المتوارث شائع جداً ، وحيثما توجد الثروة ، يكون الهدف الأول في الحياة توريثها غير منقوصة ان لم يكن مضافاً اليها . والوارث الغني في فرنسا هو احدى القوى الكبيرة في

السياسة الدوليّة ، اذ تصبح من خلاله فرنسا قوية في الدبلوماسية وضعيفة في الحرب لان بامكانه ان يرفع رصيد فرنسا المالي ويخفض تموين الرجال الافرنسيين . لقد جعلت ضرورة تجهيز البنات ، وتقسيم الملكية بقانون الوراثة ، العائلة كمؤسسة اقوى قوة من مثيلاتها في اية دولة متحضرة اخرى . يفضل ان تبقى العائلة صغيرة لكي تبقى على ازدهارها وغالباً ما يُضحى الاعضاء في سبيلها . تجعل الرغبة في المحافظة على العائلة الرجال غير مقدامين وغير مغامرين ، فلا تحيا الروح المغامرة التي صنعت الثورة وقادت العالم في سبيل الفكر والعمل السياسي الا في الطبقة العاملة المنظمة . تصبح من خلال تأثير المال قوة العائلة عقبة في الدولة لانها تترك عدد السكان ثابتاً أو منخفضاً . ان نفس حب الضمان قد بدأ يعطي نفس النتائج في مواضع اخرى ولكن لا تزال فرنسا في هذا المجال كما في مجالات حسنة أخرى رائدة الطريق .

ان عبادة المال في المانيا هي اكثر حداثة مما هي في فرنسا وانكلترا واميركا ؛ والحقيقة انها بالكاد وجدت هناك قبل الحرب الافرنسية البروسية . ولكن تبنتها المانيا بنفس الحماس والتقبل القلبي الذيَ يميز كل المعتقدات الألمانية . انه شيء نموذجي ان ترتبط عبادة المال في فرنسا بالعائلة وفي المانيا بالدولة . علم ليسزت liszt مواطنيه في ثورته التي وجهها ضد الاقتصاديين الانكليز ، ان من يفتح تجارة يجب ان يعتبر نفسه كما سيعتبره الآخرون ، انه يقدم خدمة للدولة . يعتقد الألمان ان عظمة انكلترا تعود الى تصنيعها والى امبراطوريتها ، وان نجاحها في هذا الشأن يعود الى قومية شديدة . وينظرون الى الأمميّة الظاهرة في سياستنا التجارية الحرة كمجرد رياء من جانبنا . لقد وطدوا انفسهم على تقليد ما يعتقدون انه يمثلنا على حقيقتنا وحذفوا كل ما يعتبرونه رياء فنياً . ويجب علينا ان

نعترف بان نجاحهم في هذه الناحية كان مدهشاً . ولكنهم مع الأسف قد دمروا في اثناء هذه العملية كل ما يجعل المانيا تقريباً ذات قيمة في نظر العالم ، ولم يتبنوا ما قد يكون حسناً فينا طالما قد جرف كل شيء في تيار التهمة الكلية للرياء . وفي تبنيهم هذا لأسوأ ما عندنا من غلطات فقد زادوها سوءاً بسبب نظامهم ووحدتهم في الرأي التي نعجز لحسن الحظ عن تقليدهم فيها . ان لديانة المانيا اهمية كبيرة في العالم لان عند الألمان قوة حقيقية على الايمان وطاقة كبيرة على اقتناء الفضائل والرذائل التي تتطلبها عقائدهم . فمن اجل العالم ومن اجل المانيا نفسها ، يجب ان نرجوا بان يطرح الألمان عاجلاً عبادة المال التي قد كسبوها لسوء الحظ منا .

ليست عبادة المال شيئاً جديداً . ولكنها اصبحت الآن اكثر ضرراً مما كانت عليه قبل وذلك لأسباب عدة . فالتصنيعية قد جعلت عمل الانسان الذي يطلب العمل من اجل المال اكثر ارهاقاً وازعاجاً . والمقدرة على تحديد النسل قد فتحت حقلاً جديداً لاشكال التقتير . كما جعل الارتفاع العام في مستوى التعليم وتنظيم الذات ، الناس اكثر قدرة على متابعة مقصدنا برغم النكسات ووهن العزيمة . وعندما يكون هذا المقصد موجهاً ضد الحياة ، يصبح اكثر تدميراً ويزيد من يتبناه تصلباً . يخولنا ازدياد الانتاج الناتج عن التصنيع صرف جهد كبير ورأسمال اكبر على الجيش والبحرية لحماية ثروتنا من حسد جيراننا ولاستعمار الشعوب المتأخرة المستغلة من الحكم الرأسمالي استغلالاً لا يعرف الرحمة . يأكل الحرص والقلق الناتجان عن الخوف من فقدان المال قدرة الناس على السعادة ، ويصبح التخوف من حلول المصائب نفسه مصيبة اكبر من الشيء المخاف . ان اسعد الناس ، كما نستطيع كلنا ان نشهد على ذلك من اختيارنا الشخصي ، هم اولئك الذين لا يبالون بالمال اذ ان عندهم

مقصداً ايجابياً يطرد المال خارجاً . وبالرغم من هذا ، نجد ان كل تفكيرنا السياسي ، أكان امبريالياً او راديكالياً او اشتراكياً ، شاغلٌ ذاته كلياً تقريباً برغائب الانسان الاقتصادية كما لو انها هي وحدها ذات اهمية حقيقية .

عندما نريد ان نعطي حكمنا في نظام صناعي ما ، أكان ذاك الذي نعيش فيه او الذي يقترحه علينا المصلحون ، هناك اربعة امتحانات اولية يمكننا تطبيقها. يمكننا البحث عما اذا كان النظام يضمن (1)الحد الاقصى من الانتاج(2)عدالة في التوزيع(3)حياة سهلة للمنتجين و(4)اكبر قدر ممكن من الحرية والتحريض على الحيوية والتقدم . يمكننا القول بوجه عام ان النظام الحاضر يهدف فقط الى تحقيق النقطة الاولى بينما تهدف الاشتراكية الى تحقيق النقطتين الثانية والثالثة . يعتبر بعض المدافعين عن النّظام الحاضر ان الملكية الفردية في الصناعات تخدم التقدم التقني بشكل افضل مما لو كانت الصناعة في ايدي الدولة ، والى هذا الحد يعترفون باهمية النقطة الرابعة . ولكنهم يعترفون بها كما لو كانت تقف بجانب البضائع والرأسمالي فقط وليس الى جانب العامل ايضاً . انا اعتقد ان النقطة الرابعة هي اكثر البضائع التي يطمح الناس اليها اهمية ، وان النظام الحالي يميتها تماماً كما ستثبت الأيام الآتية ان الاشتراكية الارثوذكسية ليست باكثر رأفة بها .

ان احدى بديهيات النظام الرأسمالي ، التي قلما تتعرض للشك هي ان كمية الانتاج يجب ان تتزايد بكل الوسائل الممكنة من خلال اصناف جديدة من الآلات أو باستخدام النساء والأولاد في العمل ، او بجعل ساعات العمل طويلة الى ابعد حد متفق ومبدأ الفعالية . يرغم سكان افريقيا الوسطى ، الذين اعتادوا العيش على ثمار الأرض وفاقوا سكان مانشستر بتخليهم عن الثياب ، على العمل من اجل ضريبة عالية لا

يمكنهم دفعها إلا اذا عملوا تحت سلطة الاوروبي الرأسمالي . يعترف الجميع ان هؤلاء الافريقيين يكونون سعداء جداً طالما انهم يعيشون بعيداً عن النفوذ الاوروبي ، وان التصنيع لا يجلب لهم بؤس الانحجاز غير المرغوب فيه فحسب ، بل ايضاً الموت من امراض اصبح الرجل الأبيض في مأمن جزئي منها . يعرف الجميع ايضاً ان افضل العمال الزنوج هم « السكان الاصليون » الذين خرجوا من الغابة حديثاً ولم تلطخهم بعد تجربة كسب المعاش ولكن لا يطالب احد منا جدياً بابعادهم عن الهوة التي ندفعهم اليها طالما لا احد منا يشك جدياً بسلامة الافتراض برفع الانتاج بأي ثمن كان .

ان في الاعتقاد باهمية الانتاج شيئاً من اللا عقلانية المتطرفة ومن انعدام الرحمة . طالما ان هناك شيئاً مُنتَجاً ، يبدو الشيء المنتَج كأنه مسألة ليست بذات اهمية . يشجع نظامنا الاقتصادي كله هذه النظرة لأن الخوف من البطالة يجعل اي نوع من العمل نعمة في اعين طالبي الراتب اليومي . لقد ابعد الانكباب على رفع الانتاج عقول الناس عن مسائل اكثر اهمية ومنع العالم من جني المنافع التي يمكن ان تحصل نتيجة لارتفاع انتاجية العمل .

عندما يكون لدينا ما يكفينا من الغذاء والكساء والمبيت ، فاية زيادة في الأمور المادية تُطلب من اجل الزينة فقط او لاتباع الطمع بالامتلاك الذي يستحق الاعجاب ، بالرغم من انه غريزي والى حد ما لا يمكن التخلص منه كلياً . يستطيع قسم من السكان ، بواسطة وسائل الانتاج الحديثة ومن دون ان يمضي ساعات طويلة في العمل ، انتاج كل ما هو ضروري للحياة . ويمكن صرف جزء من الوقت الذي يستغرقه تحضير الكماليات في اللهو او في القيام برحلات استجمامية وصرف جزء آخر في

تربية افضل ، او في عمل غير يدوي او غير متعلق بعمل يدوي . من الممكن ، لو اردنا ان نصيب علماً اكثر وفناً اكثر ، ونشراً اوسع للمعرفة ، ونضوجاً عقلياً اكبر ، ووقتاً اطول للراحة من العمل وقدرة اكثر من اجل الملذات العقلية حالياً لا يمكن تحصيل الأجور فقط ، بل ايضاً كل المداخيل المكتسبة تقريباً الا بالعمل ساعات اطول بكثير مما يفترض بالناس ان يعملوا . ولا يستطيع رجل يكسب 800 ليرة استرلينية سنوياً في عمل شاق ان يكسب عادة 400 ليرة استرلينية فيها لو قام بنصف ذلك العمل . لا يستطيع على الارجح هذا الرجل ان يكسب اي شيء اذا لم يكن مستعداً لأن يعمل كل يوم تقريباً النهار كله . فبسبب الاعتقاد المغالي بقيمة الانتاج ، يُعتبر شغل الناس ساعات طويلة حقاً وصحاً ، ولهذا فالخير الذي يمكن ان ينتج من شغل ساعات اقل يبقى بعيداً عن الادراك . لا تثير كل مظالم النّظام الصناعي ، ليس فقط في اوروبا بل في المناطق الاستوائية ايضاً ، احتجاجات ضعيفة وفي مناسبات معدودة من بعض محبي الانسانية . يرجع هذا الى ان رغائب الناس الواعية لا تغطي الا جزءاً بسيطا ، وليس هو بالجزء الاكثر اهمية ، من الحاجات الحقيقية المتأثرة بالعمل الصناعي ، وذلك بسبب التمويه الذي تخلقه اساليبنا الاقتصادية الحاضرة في أمور كهذه . اذا اردنا معالجة هذه الناحية فلا بد من بناء نظام اقتصادي آخر تكون فيه علاقة العمل بالحاجة اكثر بروزاً واقل استتاراً .

اذا بقي النظام الصناعي الحاضر على حاله ، فلن يتم على المدى البعيد تحقيق الغاية التي تهدف الى رفع الانتاج الى اكبر حد ممكن . يبعثر النظام الحاضر المجهود الانساني اولاً من خلال تعطيل صحة وفعالية العمال الصناعيين ، خاصة باستخدامه للأولاد والنساء ، وثانياً من خلال

الحقيقة الظاهرة في ان امهر العمال يميلون الى انشاء عائلات صغيرة وان الأعراف الأكثر رقياً هي في خطر من الانـدثار التـدريجي . كل مـدينة هي مـركز للتـأخر العـرقي . ففي حالـة لندن مثـلاً ، اثبت السيد هـ . لفلين سـميث[1] H . Llewelyn Smith هـذه الحقيقـة بحجـج غنيـة بـالتفـاصيـل الاحصائية ، وليس من السهل الشك بان هذه الحقيقة قد تنـطبق ايضاً في حـالات مشابهـة . يصح نفس الشيء بـالنسبة للثـروات الـطبيعيـة ، اذ تستخـرج المعادن وتستغـل الغابـات البكر وحقـول القمـح في كـل العـالم استغلالاً حديثـاً وبحماس طـائش يدل بشكـل شبه حتمي عـلى المصاعب التي ستواجهها أجيال المستقبل .

يـرى الاشتراكيـون الدواء في امتـلاك الدولـة لـلأرض ولـرأس المـال بالاضافة الى ايجاد نظام اكثر عدالة في التوزيع . لا يمكن الدفاع عن نظام التوزيع الحالي من اية وجهـة نظر كـانت ، بما فيهـا وجهة نـظر العدالـة . ينظم القانون نظام التوزيع عندنا وهو قابل للتغيير من نـواحي عدة تـظهر بسبب الألفة كأنها طبيعيـة وحتمية . يمكننـا ان نميز اربعـة مصادر رئيسيـة للحقوق القضائية المعروفة للملكية الخاصة . (1)حق الانسان فيما صنعت يداه(2)حق كسبه فائدة على مال اقرضه(3)حق امتلاك الأرض(4)الوراثة . تزيد هذه الاشكال الاحترام بشكل متصاعد : فالمال هو اكثر احتـراماً من العمل ، والأرض اكثر احتـراماً من المـال ، وأي شكل من الغنى هـو اكثر احتراماً عندما يكون موروثاً مما لو كان جُنِيَ بالمجهود الشخصي .

لم يجد حق الانسان بمـا تنتجه يـداه في الواقـع الا احترامـاً محدوداً من القانون . كان الاشتراكيون الأوائل ، وخـاصة الانكليـزيون الـذين سبقوا مـاركس يلحّون عـلى هذا الحق كقـاعدة انـطلاق لنظام تـوزيعي عادل ، ولكن تعقد المشاريـع الصناعيـة الحديثـة يجعل تحـديد مـا ينتجه انسـان ما

مستحيلاً . فأي قسم من البضائع التي ينقلها قطار ما في نقلة واحدة يخص الحمالين ؟ وعندما يُنقِذ طبيب جرّاح حياة انسان في عملية ما ، فاي قسم من الاشياء التي ينتجها ذلك الانسان بعد العملية يمكن ان يُطالب بها الجراح ؟ يستعصي حل هذه المشاكل . وليس هناك ، حتى ولو كانت هذه المشاكل قابلة للحل ، اية عدالة في ترك كل انسان يأخذ ما ينتج . بعض الناس هم اقوى وأحسن صحة وأذكى من الآخرين ، ولكن ليس هنالك اي مبرر للاضافة الى هذه الظّلامات الطبيعية ظلامات اصطناعية قانونية . يطرح هذا المبدأ ذاته من جهة ما كوسيلة لالغاء الغنى الفاحش ومن جهة اخرى كطريقة لحث الناس على العمل . ولكن يمكن تحقيق الجهة الأولى تحقيقاً افضل بطرق اخرى ، بينما تبطل الجهة الأخرى ان تكون موضوعاً مرغوباً فيه حالما نتخلى عن عبادة المال .

تنشأ طبيعياً رغبة في اختيار مجتمع لا تحد الملكيةَ الخاصة فيه ايةُ حدود وتُعاقَب السرقة فيه بصرامة ، لان بعض اكبر المشاريع الاقتصادية تأخذ وقتاً طويلاً لتنتهي ، واولئك الذين يقومون بتنفيذ هذه المشاريع قد لا تكون لديهم سبل اخرى للعيش في خلال فترة تنفيذها . تولِّد امكانيةُ قرض المال لاصحاب رؤوس الأموال ثروةً ونفوذاً كبيرين ولهذا تصبح فيما اذا تُرِكت من دون ضوابط غير متوافقة مع الحرية الصحيحة لبقية المواطنين . ان نتائجها في الوقت الحاضر هي سيئة جداً على العالم الصناعي والسياسة الدولية لدرجة يبدو ان من الضروري اكتشاف وسيلة لوضع حد لقوتها .

ليس للملكية الخاصة في الأراضي الا مبرر تاريخي واحد الا وهو قوة السيف . لقد حاز بعض الناس في بداية عهد الاقطاع على قوة عسكرية كافية لطرد كل من لم يرغبوا في وجوده في بقعة معينة من الأرض . ومن

احبوا تركه في الأرض جعلوه خادماً لهم وارغموه على العمل عندهم مقابل السماح له بالبقاء في الأرض . وكـان من الضروري ، بـوجه عـام ، كي يتم وضـع القانـون موضـع القوة الشخصيـة ، ترك الحقـوق التي اكتسبت بحد السبق بلا تغيير . فالأرض اصبحت ملكاً خاصاً لمن اغتصبها بـالقوة والخدام سُمح لهم بدفع اجور بدلاً من الخـدمة المجـانية . ليس من تبـرير للملكية الخاصة في الأرض سوى الضرورة التاريخية الموجهة الى استرضـاء السارقين المزعجين الذين يصعب تطبيق القانون عليهم بـطريقة اخـرى . نشـأت هذه الضـرورة في اوروبا منـذ قرون غـابرة ، امـا في أفريقيـا فهي حـديثة للغـاية . ويحـدث عـلى النحـو ذاتـه ، ولكن مـع شيء من التسـتر وبـالـرغم من حقـوق الأهـالي الاصليـين ، استمـلاك منـاجم كمبـارلي Kimberly للؤلؤ ومنـاجم راند Rand للذهب . هـذا هو مثـل فـريـد عن الجمـود الانساني الـذي يظهـر كيف لم ينقـطع النـاس عن متـابعـة تحمـل الطغيان والتمويه اللذين تسببهما حفنة صغيرة من الناس لمجرد كونها مالكةً للأرض . لا ينتج اي شيء حسن عن اي شكل او نوع للملكية الخاصـة في الأرض . ولـو تعقل النـاس لاصدروا مـرسومـاً بالغـائها فـوراً تاركـين لأصحابها الحاليين تعويضاً لا يزيد على مدخول متواضع .

ان مجرد الغاء الاجار لا يلغي الظّلامة لانه لا يزال يدر ارباحاً طـائلة لمن يحوز افضل المواقع واخصب الأراضي . من الضروري ان يكون هناك ايجار ، ولكن يجب ان يُدفع الى الدولة او الى من يقوم بالخدمات العامة . وعندما يفوق مجموع الايجارات ما تتطلبه هذه الغاية، قد تُدفع الى صندوق عام ثم تقسم فيما بعد على مجمـوعة السكـان بالتسـاوي . لا تساعـد هذه الـطريقة العـادلة عـلى تخفيف وطأة الفقـر فحسب ، بل تمنـع ايضـاً تـرك الأرض بلا استعمال ، وتُزيل طغيان المتولين في الحقول الأخرى الفرعية .

ان كثيراً مما يبدو كأنه سلطة رأس المال هـو بالحقيقـة سلطة مالكي الأرض كسلطة شركات الحديد واصحـاب المناجم . تتـزايد الشـرور والمظالـم في النظـام الحالي بشكـل صارخ . ولكن تحمُّـل الناس لهـذه الشـرور غـيرِ الضـرورية التي اعتـادوا عليها ، هـو شيء مدهش حقـاً . ولهذا يستحيـل تقدير الزمان الذي سيحاولون فيه وضع حد لهذه السخافات الغريبة .

يَعتبر اكثر الناس الوراثة ، التي هي مصدر القسم الاكبر من المدخول غير المكتسب بالعمـل في العالم ، كحق طبيعي . ينشـأ هذا الحق في بعض الاحيان ، كما هو في انكلترا ، من صاحب الملكية ذاتـه الذي يستـطيع ان يتصرف بها بأية طـريقة تنـاسبه . يَحُـدُّ حقَّ الفرد في بعض الاحيـان ، كما هي الحال في فرنسا ، حقُّ عائلته التي يجب ان ترث على اقل تعديل قسـماً من ورثته . ولكن ليس لحق التصرف بالملكية عـلى حساب الارادة او لحق وراثة الاولاد لأهاليهم اي اساس خارج غريزة الامتلاك والتكبر العـائلي . قـد يكون هنـاك عذر لتـرك الرجـل الـذي يـأتي عمله بنتـائج متفـوقـة ، كالمخترع مثلاً ، يتنعم بمدخول اكبر من مدخول الـرجل العـادي ، ولكن ليس هنـاك من مبرر لتـرك هـذا التمييـز ينتقـل الى اولاده او احفـاده حتى النهاية . تكون النتيجة ايجاد طبقة خاملة وغنية الى حد غير معـروف ترمي شباكها على المجتمع من خلال اموالها وتقاوم كل اصلاح خشيـة ان يكون موجهاً ضدها . يَخشى افراد هذه الطبقة ان يتركوا العنـان لتفكيرهم ، إذ يخافون ان يُضـطروا الى الاقتناع بـأن موقفهم لا مبـرر له ، ومـع هذا كله نجـد كل افـراد الطبقـة الوسـطى تقريبـاً يتسارعـون بدافـع من العنجهية والرغبة في كسب الود للتمثل بعاداتهم وتبني آرائهم . وهكذا يصبح افـراد هذه الطبقة سُمّاً يتغلغل في مفاهيم كل المثقفين تقريباً .

يقال ان الناس في بعض الاحيان لا يعملون بشكل متحمس من دون

دافع الوراثة . يذكرون لنا مثلاً ان ارباب الصناعة العظام تحركهم الرغبة في تأسيس عائلة كبيرة ، ولولا الأمل باشباع هذه الرغبة ، لما صرفوا حياتهم في بذل الجهود التي يبذلون . انا لا اعتقد ان اي جزء كبير من العمل النافع يتحقق فعلاً عن هذا الدافع . يقوم الناس بالأعمال العادية من اجل كسب عيشهم ، واما الأعمال غير العادية فتعمل من اجل المتعة التي تنتج من العمل ذاته . يدفع حب السلطة ولذة المخاطرة في بناء ورشات كبيرة حتى ارباب الصناعة الذين يظن انهم يهدفون الى تأسيس عائلة كبيرة . ولو حدث انخفاض في عدد هذه الورشات الكبيرة ، لكان ذلك شيئاً عظيماً اذ انه يقود ربما الى التخلص من الثراء الخامل ومن الظلم والاستعباد ، ومن الفساد الذي تسببه .

لا يرتكز نظام التوزيع الحالي على اي اساس . فبعدما فرض الغزو هذا النظام ، اتى القانون وأضفى على ترتيباته ، التي شيدتها مصالحه ، صفة الشرعية المطلقة . ومن ثم لم يعاد بناؤها بأي شكل جذري . فما هي إذاً الأسس التي يجب ان ترتكز عليها اعادة البناء ؟

ترمي مبدئياً الاشتراكية ، التي هي اكثر تخطيطات اعادة البناء انتشاراً ، الى تحقيق العدالة . فتودُّ الغاء عدم التكافوء غير العادل الحالي في الثروات . ليس أساسياً في الاشتراكية ان يحصل الناس على مدخول متساو ، ولكن من الضروري تبرير اللا مساواة في كل حالة ، إما باجراء تعديلات في حاجات الانسان او في الخدمات المطلوبة . لا يختلف اثنان على ان السيستام الحالي هو غير عادل الى درجة كبيرة ، وان كل ما هو غير عادل تقريباً هو مضر . ولكن لا اعتقد ان العدالة وحدها هي اساس كاف لارساء اعادة البناء الاقتصادي عليه . يكتفي شرط العدالة حينما يتساوى الجميع في التعاسة تماماً كما يكتفي عندما يتساوون في السعادة . لا

تحتوي العدالة حينما تتحقق وحدها ، اي منبع لحياة جديدة . لم يتحدث ، ولو عن طريق التصور الخيالي ، اصحاب التفكير القديم من الاشتراكيين الثوريين الماركسيين عن حياة المجتمعات بعد تحقيق الغبطة الابدية millenium. يماثل تصور ماركس من هذه الناحية تصور الحكايات الخرافية للأمير والأميرة اللذين يعيشان في سعادة ابدية بعد زواجهما . ان تحقيق مثل هذه الحالة هو مستحيل على الطبيعة البشرية . فالرغبة والنشاط والغاية هي ضرورية لحياة يمكن احتمالها . أما الغبطة الأبدية فلا يمكن احتمالها حتى ولو تحققت بالرغم من لذة التفكير فيها .

من الحق ان يقال ان الاشتراكيين الاكثر حداثة قد فقدوا كثيراً من الحماس الديني الذي ميّز روّاد حركتهم ، اذ هم يعتبرون الاشتراكية اتجاهاً معينا وليس غاية محددة. ولكنهم لا يزالون يحتفظون بوجهة النظر القائلة بأن الشيء الاكثر اهمية في السياسة هو مدخول الانسان وان الهدف الرئيسي للسياسي الديموقراطي يجب ان يكون رفع اجور العمال . انا اعتقد ان هذه النظرة تضم اعتقادا مبسطا كثيراً عن حقيقة السعادة . من الصح ان يقال ان مجموعات كبيرة من سكان العالم الصناعي هي فقيرة جدا ولا يمكنها توفير امكانية العيش بصورة لائقة ، ولكن ليس من الصحيح القول بان حياة جيدة يمكن ان تنتج تلقائياً لمجرد تخفيض عدد الفقراء . ينعم في الوقت الحاضر عدد قليل من الطبقات الثرية بحياة جيدة ، ولربما تحل الاشتراكية شرور من هم فوق الحاجة محل الشرور التي تنتج عن الفاقة .

في الحركة العمالية المعاصرة ، هناك على الرغم من كونها احد اهم مصادر التغيير الحيوية ، بعض الاتجاهات التي يجب ان يأخذ المصلحون حذرهم منها . ان الحركة العمالية هي في جوهرها الى جانب العدالة التي

تشاد على الاعتقاد بان تضحية الكثيرين من اجل القلة ، لم تعد ضرورية الآن مهما كان حالها في السابق . فعندما كان العمل اقل انتاجا والتعليم اقل انتشارا ، كان تشييد حضارة ارستقراطية ممكناً ، اذ ربما كان عندئذ من الضروري ان ترعى الكثرة حياة القلة التي تشغل ذاتها في نقل وزيادة تراث العالم في الفن والفكر والحضارة . ولكن قد زالت هذه الضرورة ، او انها في طريق الزوال ، ولم يبق هناك اي اعتراض مقبول على دواعي العدالة . فمن الوجهة الاخلاقية ، لا تجدر مقاومة الحركة العمالية ، ولا يقاومها الآن الا من اعماه التعصب والعناد الابله . ان كل تفكير حيوي هو الى جانبها ، ولا يقاومها الا التقليد والموت . ولكن بالرغم من كونها حية في ذاتها ، فليس هناك ما يؤكد على انها تقود الى الحياة .

يقود تيار من الفكر السياسي القوة العمالية في اتجاهات قد تنقلب خطرة وقمعية فيما اذا ارادت ان تحافظ على قوتها بعد انتصار العمال . تقاوم مطامح الحركة العمالية ، بشكل عام ، اغلبية الطبقات المثقفة لانها تشعر اولا بتهديد راحتها الشخصية وثانياً بتهديد الحياة الحضارية التي ينتمون اليها مؤمنين بجدية انها تهم العالم كله . يميل العمال الثوريون ومتدفقي الحماس الى احتقار كل ما تمثله الطبقات المثقفة وذلك لان هذه الطبقات تقاومهم ولكن عندما يكون العمال اكثر تنوراً ، كما هي الحال في قادة الحركة العمالية في انكلترا ، يمتص تأثير الرجال المثقفين المُحْكَمُ وغيرُ الواعي عصبَ الحيوية الثورية مثيراً الشك وعدم اليقين عوضاً عن الثقة السهلة الناعمة التي قد يتم النصر بها . قد يؤدي عطف اخلص الرجال الاثرياء ، الذي يظهرونه نحو العمال ، واستعدادهم للقبول بعدالة المطالب العمالية الى اضعاف مقاومة رؤوساء العمال للوضع العام والى فتح اذهانهم الى الاقتراح القائل باستحالة اي تغيير جذري . ولما كانت

هذه المؤثرات تؤثر في الرؤوساء اكثر بكثير مما تؤثر في الاعضاء العاديين ، فانها تجعل الاعضاء العاديين يفقدون الثقة برؤسائهم ، وتدفعهم الى الرغبة في التفتيش عن رؤساء جدد يكونون اقل استعداداً للتسليم بمطالب الطبقات الاكثر ثراء . قد تكون النتيجة في النهاية ايجاد حركة عمالية معادية للحياة الفكرية كما يتهمها الآن بعض اصحاب الممتلكات المنقصفين رعبا .

قد تَدْعَمُ دواعي العدالة ، عندما تفسر تفسيراًضيقاً ، هذا الاتجاه . وقد يعتبر انَّ من غير العدل ان يحصل بعض الناس على مدخول اكبر او ان يعمل بعضهم ساعات اقل مما يعمل الاخرون . ولكن فعالية العمل العقلي ، بما فيه العمل التربوي ، تتطلب بالتأكيد عناية اكثر ومناسبات للراحة اكثر مما تتطلب فعالية العمل الجسدي ، لان العمل العقلي ، على اقل تعديل ، لا يتم فيزيولوجيا دفعة واحدة . واذا لم نعترف بهذا الفرق ، فستعاني الحياة العقلية من قلة النظر اكثر مما تعاني من العداوة المقصودة .

تتأخر التربية في الوقت الحاضر ، ويمكن ان تتدنى اكثر بسبب رغبة الاهالي في ان يبدأ اولادهم بكسب المال باسرع وقت ممكن . يعرف كل انسان ان نظام العمل نصف الوقت ، مثلا ، هو غير فعال ، ولكن سلطة التنظيم العمالي تبقي عليه . من الواضح ان علاج هذه الآفة ، كما يظهر من يهتم بمسألة السكان ، هو حل الاهل من عبء تربية اولادهم ومنعهم في الوقت نفسه من الاحتفاظ بحق التصرف بمكسب اولادهم .

لا تكمن طريقة منع اي مقاومة خطيرة على الفكر في مقاومة الحركة العمالية ذاتها اذ هي اقوى من ان تقاوم بعدالة . الطريقة الصحيحة هي ان نُظهر للعمال ان الفكر عملياً نافع لهم ، وان اهدافهم الايجابية لا

يمكن تحقيقها من دون الفكر ، وان هناك اناسا في عالم الفكـر ، مستعدون لبذل كل جهودهم لمساعدتهم في كفاحهم . فلو تبنى رجال حكماء مخلصون هـذه الطريقـة ، لتمكنوا من منـع العمال من هـدم ما هـو حي في العـالم الفكري .

يوجد في الأهداف الايجابية للتنظيم العمالي خطر آخـر : خطر تفشي المحـافظة في وسـائل الانتـاج . يجلب تحسين الآلات او التنـظيم مكـاسب كبيـرة للمستخدمـين ، ولكنها تسبب خسـارة وقتيـة لكـاسبي الاجـور وفي بعض الاحيان خسارة دائمـة . وهكذا لمجـرد مقت غريـزي لاي تغيير في العادات تكون المنظمات العمالية القوية غـالبا عقبـة امام التقـدم التقني . يجب ان تكون القاعـدة المطلقـة لكل تقـدم اجتماعي ازديـادا في الفعاليـة التقنية وانتاجا اكثر لقيمة معينة من العمل . لو ابدى العمال مقاومة فعـالة لهذا النوع من التقدم ، لشلوا على المدى البعيد كل التقدمـات الاخرى . لا يمكن اسكات مقاومـة العمال بـالعداوة والمـواعظ الاخلاقيـة ، باعـطاء الحركة العمالية الفائدة المباشرة في المجالات الاقتصادية التي يسيطر عليهـا الآن ارباب العمل . يجب ان يتم هنـا ، كما في كـل موضـع آخر ، فـرز الجزء غير التقدمي في اية حركة هي في جوهرها تقدمية ، ليس بذم الحركة كلها وانما باعطائه دفعة كبيرة يقدر ان يصبح بها اكثر تقدميـة ويطالب حتى بتغيير في بنية المجتمع اكبر مما تصوره عند نشوئه .

ان اهم مقصد يمكن ان تحققه المؤسسات السياسيـة هو ان تُبقي عـلى ابداع الافراد وحيـويتهم ونشاطهم ، وفـرحهم بالحيـاة الحية . لقـد بلغت هـذه الاشياء في انكلتـرا العصر الاليزابيثي مثـلا ، درجة لم تبلغهـا الآن . لقـد دفعت الى المغامـرة والشعر والمـوسيقى وفن البناء الـرفيـع ، واطلقت الحركات التي تفرعت منها عظمة انكلترا في كل النواحي التي ابدعت فيها

بريطانيا . وبالرغم من ان هذه الاشياء قد نمت الى جانب الظلم ، فانها تفوقت عليها وصنعت حياة قومية جديدة بالاعجاب اكثر مما يمكن ان يحدث في ظلال الاشتراكية .

ما يحتاج الناس اليه من اجل المحافظة على حيويتهم هو الفرصة وليس الضمان وحده . الضمان هو مجرد ملجأ من الخوف ، بينما الفرصة هي مصدر الامل . ليس المحك الرئيسي لنظام اقتصادي هو ما اذا كان يجعل الناس اكثر ثراء ، او يضمن عدالة في التوزيع (مع ان كليهما مرغوب فيه) بل فيما اذا كان لا يعيق نمو الانسان الغريزي هناك شرطان يجب توفرهما لتحقيق هذا المقصد . عدم مضايقته لعواطف الانسان الخاصة وافساح اكبر مجال ممكن امام الميل الى الابداع . ففي اكثر الناس ، الى ان يتلفها عدم الاستعمال ، غريزة للبناء ، امنية لصنع شيء ما . تكون هذه الغريزة على العموم اقوى ما تكون في الرجال الذين يُعطون انتاجا اعظم كالفنانين ، ورجال العلم والسياسة وبناة ناطحات السحاب وارباب الصناعة وهكذا وفقاً لاعراض المزاج والمناسبة . يوحي هذا الميل بأكثر المهن نفعاً أو ضرراً . ومن دونه ، ينحدر العالم الى مستوى التبيت ، (Tibet) ، اي مجرد عيش لا يراود المرء فيه الا ميل لتطبيق حكمة اسلافه ، وكل جيل يهوي اكثر فأكثر في تقليد لا حياة فيه .

ولكن لا يعرف الرجال العظام وحدهم هذه الغريزة الى البناء ، مع انهم هم الذين يعرفونها بقوة اكبر . ان وجودها شامل في كل الاطفال تقريباً . وتظهر في الرجال بدرجات متراوحة وفقاً لنوعية المنفذ الذي تستطيع ان تجده . كل عمل توجيه هذه الغريزة هو مكف حتى عندما يكون منهكا وصعباً لان كل جهد هو طبيعي كالجهد الذي يبذله الكلب في مطاردة ارنب بري . والعاهة الرئيسية في النظام الرأسمالي الحاضر هي ان

العمل المبذول من اجل مرتب ما قلما يترك اي مجال للميل الى الابداع . لا حيازة للرجل الذي يعمل من اجل المرتب فيما يعمل ، اذ يصدر ابداع في مجرى العمل من رب العمل الذي يطلب التنفيذ الحرفي . لهذا يصبح العمل مجرد اداة خارجية تؤدي الى نتيجة معينة ، اي الى كسب المعاش . يثور غضب المستخدِمين عندما تطالب النقابات العمالية بتحديد الانتاج ، ولكن لا حق لهم في هذا الغضب طالما انهم لا يسمحون للرجال الذين يستخدمون بالمساهمة في وضع الغاية التي يسعى العمل الى تحقيقها . وهكذا تُجَزِّءُ عمليةُ الانتاج ، التي يفترض بها ان تكون دورة غريزية واحدة ، الى مقاصد منفردة لا تستطيع فيها بعد اشباع غريزة مَنْ يقوم بالعمل .

هذه النتيجة هي من صنع النظام الصناعي ، ولا يمكن تجنبها في اشتراكية الدولة . تكون الدولة في المجتمع الاشتراكي المُستخدِمَ بينما يكون العامل ، كما هو الآن ، في مكان لا يخوله الا توجيه جزء بسيط من عمله . وهذا التوجيه البسيط لا يَتَحقَّق الا بشكل غير مباشر ، اي من خلال الطرق السياسية ، ولهذا فهو خافت جداً ومتباعد لدرجة لا توفر اي اكتفاء مرضي . ما نخشاه هو ان لا يتم في اشتراكية الدولة الا ازدياد في التدخل المتبادل عوضاً عن ازدياد في التوجيه الذاتي .

لا يبدو الغاء العمل الرأسمالي الفردي ، الذي تتطلبه الاشتراكية الماركسية ، الغاءاً كلياً ، ضرورياً . ان اكثر الناس الذين يبنون أنظمة اصلاحية جارفة او يدافعون عن الوضع العام ، لا يتركون مجالا كافياً لأهمية الاستثناءات ولعدم الرغبة في بناء انظمة جامدة . فلو تم وضع حد لدائرة الرأسمالية ،وأنقذ جزء كبير من السكان من سلطانها ، لما عاد هناك اي سبب لتمني الغائها . فقد تخدم قصداً مفيداً كمنافس ومزاحم في منع

تدهور الاعمال الاكثر ديموقراطية الى الرتـابة والتقليـدية الشكلية . ولكن من الاهمية بمكان ان تصبح الرأسمالية استثناءاً بدلا من ان تكون القاعـدة وان يُدار الجزء الاكبر من صناعات العالم وفق نظام اكثر ديموقراطية .

ان اكثر ما يصح قولـه ضد الـروح العسكريـة في الدولـة ، يصح ان يقال ايضاً ضد الرأسمـالية في المجـال الاقتصادي . يـزداد عدد المـنظمات الاقتصـادية بـاضطراد ، وذلـك من اجل ازديـاد الفعالية ، ولا سبيل الى عكس هذا الاتجاه . واسباب تزايدها هي تقنية ، ومن الضروري ان تقبل المنـظمات الكبيـرة كجزء أسـاسي في المجتمعات الـراقية . ولكن ليس من سبب لتكون حكوماتها مـركزيـة وملكية . يمنـع النظام الاقتصـادي الحالي النـاس من الابداع ، وهـذا هو احـد اسباب الضجـر العام الـذي يمتص حيوية سكـان القطاعـين الصناعي والمـدني ، ويقودهم الى التـرحيب حتى بانفجار الحرب كمنفذ للرتابة الكئيبة التي تعتمل في حياتهم اليومية .

اذا كنا نريد المحافـظة على حيـوية الامـة والابقاء عـلى القدرة لانتـاج افكار جديدة والابتعاد عن الغرق في حالة من الجمود الصيني الذي يأخـذ باطراف الاشيـاء التقليديـة ، وجب علينا طـرح التنظيم الصنـاعي الملكي جانبياً . ويجب ان تصبح كل التجارات الكبيرة ديمـوقراطيـة ذات حكومـة فيـدراليـة . ان نـظام المعـاشـات اليـوميـة كله شر ، وليس ذلـك بسبب اللاعدالات الاجتماعية التي يكرسها فحسب ، بـل ايضاً لانـه يفصل بـين الانسان الذي يقوم بالعمل وبين الغـاية التي يقـود العمل اليهـا . تتجمع الغاية الموجِّهة للعمل في رب العمل بينما تكون غاية كاسب الرواتب راتبـه وليس الانتـاج . يهدف رب العمل الى الحصول عـلى اكبـر قـدر ممكن من الانتاج لاقل ما يمكن من الاجور ، بينـما يهدف العـامل الى الحصـول على اكبـر قدر ممكن من المعـاش مقابـل اقـل مـا يمكن من العمـل . لا يمكننـا

التوقع بان يسير نظام كهذا ، نظام يضم تضارباً اساسياً في المصالح برشاقة ونجاح او ان يُنتج مجتمعاً نفتخر بفعاليته .

يوجد الآن حركتان ، واحدة منها متقدمة والاخرى لا تزال في طفولتها ولكنها تستطيع على ما يبدو اقتراح كثير مما نحن في حاجة اليه . الحركتان هما : الحركة التعاونية والنقابية . تستطيع الحركة التعاونية الحلول في حقول مختلفة محل نظام المعاشات ، ولكن ليس من السهل ان نعرف كيف يمكن تطبيقها في حقل كشركات السكك الحديدية . وفي حالات كهذه بالضبط يمكن تطبيق مبادىء النّقابية باسهل ما يمكن .

اذا ارادت التنظيمات ان لا تَسحَق الاعتزاز بالفردية ، يَتوجب ان تكون العضويةُ في تنظيم ما اختياريةً لا قسرية ، كما يلزم ان تَحمِل العضويةُ معها صوتا في الارادة . تختلف هذه الشروط عما هي في المنظمات الاقتصادية الحالية التي لا تعطي مجالا للافتخار والسرور اللذين يجدهما الانسان في العمل الذي يكون فيه سيِّدَ نفسه ـ بشرط ان لا يكون ذلك العمل رتيباً الى النهاية .

يجب ان نسلم بان اكثر العمل الآلي الضروري في الصناعة هو على الارجح غير قابل بحد ذاته لان يكون اكثر امتاعاً . ولكن يبدو انه يمكن ان يكون اقل وطأة مما هو عليه الآن فيما لو كان العمال الذين يقومون بهذا العمل يتمتعون بصوت اكبر في ادارة مصانعهم . يمكن ان يعطي الناس ، الذين يفضلون صرف وقتهم بعيداً عن العمل لا في بعض المهن ، فرصة لعمل شيء غير ممتع خلال بضع ساعات في اليوم مقابل أجر بسيط . يفتح هذا الحل مجالا امام كل من يتمنى القيام بنشاط غير مربح مباشرة . وعندما نفعل كل شيء يجعل العمل ممتعاً ، يجب ان نجعل كل شيء آخر

قابلاً للاحتمال ايضاً تماماً كما هي الحال في كل عمل في الوقت الحاضر تقريباً ، وذلك بتوزيع جوائز يمكن الحصول عليها بعيداً عن العمل . واذا كان لهذه الجوائز ان تولّد اكتفاء ـ فمن الضروري ان لا يمتص العمل الشاق كل حيوية الانسان ، وان توجد مناسبات للقيام بنشاطات يتراوح استمرارها في الاوقات الباقية . قد يحفل نظام كهذا بالفنانين والادباء . وبكل من ينتج ، رغبة في اشباع ميوله ، اعمالاً لا يعطيها الجمهور قيمة تَسُدُّ رمق مُنتجِها ، وقد يتيح ، بصرف النظر عن حالات نادرة كهذه ، للشبان والشابات ذوي المطامح الفكرية فرصة لكي يتابعوا تعليمهم بعد ترك المدرسة او ليحضروا انفسهم كي يصلوا الى مهن تتطلب وقتا طويلا من الاستعداد والتمرين .

تَنتُج شرور النظام الحالي عن الفصل بين المصالح المتعددة للمستهلِك والمنتج وصاحب المال . ليس لاي واحد من هؤلاء الثلاثة نفس المصالح ، مجتمعة ، او نفس مصالح اي من الاثنين الآخرين . يود نظام التعاونيات ان يدغُم مصالح المستهلك مع مصالح صاحب المال ، بينما تود النقابية ادغام مصالح المنتج مع مصالح صاحب المال . لا أحد منها يجمع مصالح الثلاثة معاً ، او يوحد مصالح اولئك الذين يُوجِّهون الصناعة مع مصالح المجتمع . لا احد منها ، اذاً ، يوقف كلياً الصراع الصناعي او يلغي الحاجة الى وجود الدولة من اجل التحكيم . ولكن اي واحد منها هو افضل من النّظام الحاضر ، وربما يمكن لمزيج من الاثنين ان يزيل شرور التصنيعية كما نعرفها الآن . من المدهش كيف ان رجالا ونساء كثيرين قد جاهدوا من اجل الحصول على ديموقراطية سياسية ، بينما يبذل القليل من اجل ادخال الديموقراطية الى الصناعة . انا اعتقد ان فوائد لا تحصى قد تنتج من ادخال الديموقراطية الى الصناعة ، اكان ذلك وفقاً لنموذج تعاوني او

بالاعتراف بمهنة ما او صناعة ما كوحدة مستقلة في تعاملها مع الدولة ، مع اضافة بعض « القواعد المنزلية » التي تطمح النقابية الى تحقيقها ، الى ذلك النموذج . ليس هناك اي سبب لان تكون كل الوحدات الحكومية جغرافية . وتنظيم كهذا كان ضرورياً في الماضي لان وسائل الاتصال والاعلام كانت بطيئة جداً ، ولكنه لم يعد الآن ضرورياً . ففي نظام مبني على ذلك النموذج يمكن ان يستعيد كثير من الناس افتخارهم بالعمل ، وان يجدوا منفذاً لميلهم الى الابداع ، الذي يُنكَر على الجميع الآن باستثناء قلة محظوظة . ولكن يتطلب نظام كهذا الغاء ملكية الارض ووضع حد لسلطة رب العمل ، ولكنه لا يتطلب مساواة في الرواتب . انه ، على خلاف الاشتراكية ، نظام غير جامد او نهائي ، وبالكاد يكون اكثر من اطار للحيوية والانطلاق . انا اعتقد انه لا يمكن الجمع بين نمو الفرد الحر والتنظيم التقني الكبير ، الذي جعلته التصنيعية ضرورياً الا بوسيلة كهذه .

الفصل الخامس

التربية

ما من نظرية سياسية تكون كاملة ان لم تكن قابلة لان تُطبق على الاولاد والرجال والنساء معاً . غالباً ما يكون واضعو النظريات بلا اولاد ، او اذا كان عندهم اولاد ، فيُحفظون بكل عناية من الازعاجات التي تثيرها ضجة الفتيان . لقد كتب بعضهم كتباً عن التربية دون ان يكون ، عادة ، متصوراً ابان كتابته أيا من الاولاد الفعليين امامه . اما اولئك النظريّون التربويّون الذين أحرزوا معرفة عن الاولاد ، مثل منشئي روضات الطفولة ونظام مونتاسوري ، [1] فلم يدركوا الهدف المطلق في التربية إدراكاً وافياً يُخوِّلهم معالجة التعليم العالي بنجاح . انا لا املك معرفة سواءً عن الاطفال او عن التربية تخولني لان أكمل النقائص التي توجد في كتابات الآخرين . ولكن هناك بعض الاسئلة التي تتعلق بالتربية كمؤسسة سياسية ، هي من صميم الامل باعادة اي بناء اجتماعي ، الا ان كتاب النظريات التربوية قد اهملوا عادةً اعتبارهما . وهذه هي الاسئلة ذاتها التي اريد مناقشتها .

ان قدرة التربية على تكييف الخُلُق والرأي كبيرة جداً ، كما ان الاعتراف بهذه الحقيقة شامل . يكتسب أكثر الأولاد المعتقدات المتأصلة ـ

---

(1) يبدو لي أن أساليب مدام مانتوساري في خصوص تربية الأطفال هي مفعمة بالحكمة .

ولكن بالطبع غير المصرَّح بها في اهـاليهم ومعلميهم . تبقى بعض هذه المعتقدات ، حتى لو تخلّوا عنها فيما بعد في حياتهم ، مغـروسة فيهم بعمق وجاهزة لأن تنبت في وقت الشدّة والأزمة . إن التربية عادة هي أقوى قـدرة تقف إلى جانب ما هو موجود وتقاوم أي تغيير جذري . تسيطر المؤسسات المهدَّدة بالانهيار ، عندما تكون في أوج سطوتها ، عـلى آلة التعليم وتغـرس في عقـول النشء القابلة لـلانطبـاع بسهولـة احترامـاً لامتيازاتهم . يحـاول المصلحون ، بدورهم ، إبعاد أخصامهم من مـركز الامتيـاز هذا . ولكن لا يـأخذ أي من الـطرفين الأولاد أنفسهم بعـين الاعتبار ـ فهم مجـرد مادة مُستعِـدَّة لتتبع هـذه الفئة أو تلك . فلو أخـذ الأولاد بعين الاعتبـار ، لما قصدت التربية إلى جعلهم ينتمون إلى هذه الفئة أو تلك ، بل إلى تمكينهم من الاختيار بين الفئات بشكل عقلاني ، وإلى جعلهم قادرين على التفكير الشخصي لا الالتزام بأفكار معلميهم . لو احترمنا حقوق الأولاد ، لما كان في إمكاننا استعمال التربية كسلاح سياسي . ومن يحترم الأولاد ، يعلمهم من أجل أن يغرس فيهم المعرفة والعادات الفكرية الضروريـة لتكوين آراء مستقلة ، ولكن تسعى التربية كمؤسسة سياسيـة إلى تكوين عـادات تخدم هذه السياسة وتحصر المعرفة في إطار معيّن لكي تُظهـر فئة معينـة من الأراء كأنّها حتمية .

ليس مبدءَا العدالة والحريـة ، اللذان يشملان مجـالاً كبيراً من إعـادة البنـاء الاجتماعي المـطلوب بكافيـين وحدهمـا في مجال التـربية . العـدالـة بـالمعنى الحرفي للحقـوق المتساوية، هي بكل وضـوح غـير ممكنـة بـالنـظر للأولاد . ومن ناحية الحرية ، فهي في جوهـرها سلبيـة من البدايـة . إنها تدين كل تدخل يمكن تجنّبه بالحـرية ، من دون أن تعـطي أي مبدأ إيجـابي لإعادة البناء . ولكن التربية هي في جوهرها بنائية وتتطلب فكرة إيجابية لما

يكوِّن حياة جيدة . على الرغم من أن الحرية يجب أنْ تُحترم بقدر ما تتوافق مع التعليم ، وعلى الرغم من أن قسطاً كبيراً من الحريـة ، أكبر ممـا جرت عليـه العـادة ، يمكن السمـاح بـه دون أيـة خسـارة في التعليم ، فـإنّ من الواضح جداً أن لا مفر من إجراء بعض الابتعاد عن تحقيق حرية كاملة ، إذا ما كان الأولاد ليتعلموا شيئاً ما ـ باستثناء تلك الحالات التي يكون فيها الأولاد متفوقي الذكاء ، فعند ذلك يجب عزلهم عن بقية زملائهم العـاديّ الـذكاء . هـذا هـو أحـد أسبـاب المسؤوليـة الكبيـرة الملقـاة عـلى أكتـاف المعلمـين . فـالأولاد هم بحكم الضـرورة تحت رحمة مـرشـديهم إلى حـد كبـير ، إذ لا يستطيعون أن يحموا مصـالحهم بأنفسهم . ولهـذا لا مفـر من وجـود بعض السلطة في التربيـة ، وعلى أولئـك الذين ينخرطون في سلك التربية أن يكتشفوا طريقة ما لتطبيق سلطتهم ، تَتفق وروح الحرية .

ما نحتاج إليه ، عندمـا لا يوجـد مناص من استعمـال السلطة ، هو الاحتـرام ، يجب على الـرجل الـذي يربي الجيـل تربيـة صحيحـة ويجعـل الفتيـان ينمـون ويتـطوّرون حتى امتـلاء قـامتهم أن يكـون ممتلئـاً بـروح الاحترام . ما ينقص أولئك الذين يدعون إلى بناء أنظمة حديدية وآلية هو احترام الآخرين . ما العسكريتاريّة والرأسمالية والمنظمة الغابيانية العلميـة وكل بقية السجـون التي يحاول المصلحـون رمي النفس الإنسانيـة فيها إلاّ مثـالاً على ذلـك . كيف لا يكون عـدم الاحترام للولـد شامـلاً ، عنـدمـا تَصـدر الأنظمـة المدرسيـة والبرامـج عن دار الحكـومـة ، وعنـدمـا تكـون الصفـوف كبيرة جـداً والمناهـج التعليمية لا تتغيـر مع الـزمان والأسـاتـذة مجهَدين من كثرة العمل ، وعندما تُصمِّم التربية على خلْق مستـوى جامـد من المقـدرة المتوسـطية المُـرتَجلة ؟ يتطلب الاحتـرام خيالاً ودفئـاً حيـويـاً . ويتطلب بشكل خاص خيالاً أكـثر من أجل أولئـك الذين يكـون انتاجهم

الفِعْـلي ومقـدرتهم أضعف مـا يمكن . الـولـد ضعيف وسخيف بشكـل غريب ، أما المعلم فقـوي ، ومن جهة التصـرف اليومي هـو أكثر حكمـة بكثير من الولد . من دون الاحترام يمكن أن يَحتَقر المعلّم أو الموظف الولد بسهـولة بسبب هـذا الضعف الظاهر . قـد يشعـر المعلم أن فن واجبـه أن « يقولب » الولد ، فيتصور نفسه كفخّار امام عجينته . وهكذا يُضفي على الـولد شكـلاً غير طبيعي ييبس مـع الـزمن منتجـاً عللاً وعـدم اكتفـاءات روحية ينمو منها الظلم والحسد والاعتقاد بضرورة فَرْض هـذه التشويهـات على الآخرين أيضاً .

لا يفكّر الإنسان الذي يحترم الآخرين بأنّ من واجبه أن يقولب الجيل الناشيء . إنه يشعـر بأن في كـل ما يحيـا ، وخاصـة في الكائن البشـري ، وفوق كل شيء الأطفال ، شيئاً مقدّساً غير قابل للتحديد والتعريف ، شيئاً فردياً وثميناً بشكل غـريب ، أساس النمـو في الحياة ، جـزءاً متجسداً من جهاد العالم الصامت . إنه يشعر إزاء الولد بتواضع لا تفسير لـه ـ تواضـع لا يُدَافَع عنه من أية وجهة نظر عقلية ، ومع هذا فهو بشكل ما أقرب إلى الحكمـة من الاعتداد البسيط بـالنفس الذي نجـده عنـد كثير من الأهـل والمعلمين . إن شعور الـولد بـالعجز الكـلي أمام العـالم الخارجي وشعـوره بضرورة الاعتماد على الآخرين يجعـلانه واعيـاً لمعنى مسؤولية التصـديق . (إن خياله يظهر لـه) يكشف له خيـاله مـا يمكنه أن يصـير في المستقبل ، أكـان ذلـك للخـير أم للشر ، وكيف يمكن لميـولـه أن تنمـو أو أن تُكسَّر ، كيف أن آمـاله ستُـطفأ يـوماً مـا ويفقد حيـاته ، كيف أن تصـديقه سـوف يترضرض ورغائبه السريعة سوف تحل مكانها إرادة زاهية . كل هذا يعطي المعلـم رغبة قوية في مساعدة الولد في معركته الذاتيـة . سيشعر بـأنه يجهّـز الولد ويقوّيه ، ليس من أجل غاية خارجية تقترحها الدولة أو أية سلطة لا

شخصية أخرى ، بل من أجل غايات تصبو إليها بغموض نفس الولد ذاته . يستطيع الإنسان الذي يحركه شعور كهذا أن يتقلد سلطة المربي دون أن يدوس على مبدأ الحرية .

لا تدير الدولة والكنائس والمؤسسات الكثيرة الخاضعة لها التربية بروح من الاحترام . ما يعتبر في التربية هو بالكاد البنت أوالصبي ، الشاب أو الشابة ، أن ما يجري اعتباره هو دائماً المحافظة بشكل ما على النظام الحاضر ، وعندما يُعتبر يكون ذلك من ناحية تقتصر تقريباً على النظر إلى النجاح الدُنْيوي ـ كسب المال وتحصيل مركز جيد . إن المثال الذي يُطرح أمام عقل الفتى هو أن يكون عادياً وأن يكسب فَنَّ السير مع الركب ، ما عدا بعض النادرين الذين يملكون طاقة كافية من الشك تمكّنهم من كسر النظام الذي ينتظر منهم أن يعملوا ضمنه . لكل تربية تقريباً دافع سياسي إذ هي تهدف من منافستها للجماعات الأخرى تقوية جماعة ما أكانت قومية أو دينية أو اجتماعية . هذا هو الدافع الذي يحدّد في الأغلب المواضيع التي يتم تدريسها والمعرفة التي تقدم للتلاميذ والمعرفة التي تُحجب عنهم . وتُقرر أيضاً العادات العقلية التي ينتظر منهم اكتسابها . بالكاد يُصرف أي جهد لتعزيز النمو الداخلي في العقل والنفس . وغالباً ما تتشوّه في الواقع الحياة العقلية والنفسيّة فيمن يحصل على أكبر قسط من التربية إذ يُفرّغون من الميل ولا تبقى فيهم إلا بعض الاستعدادات التلقائية التي تحل محل التفكير الحي .

يوجد هناك بعض الانجازات التي تقدمها التربية في الوقت الحاضر ، ومن الضروري أن تتابع تقديمها في أية دولة متحضرة . يجب أن يتعلم كل الأولاد القراءة والكتابة ، ويجب أن يكتسب البعض المعرفة الضرورية لتلك المهن كالطب والقانون والهندسة . وكذلك يجب أن يبقى اكتساب

التربية العالية ، والأساسية للعلوم والفنون ،-ضروريا لأولئك الذين توافق طبائعهم . إن التدريس الفعلي في كل المواد ، باستثناء التاريخ والدين وبعض المواد المشابهة ، هو غير كامل ولكنه ليس ذا ضرر إيجابي . وقد يتم التدريس فيها بروح أكثر ليبرالية مع محاولة أكبر لإظهار الحقول الأساسية لاستخدامها ، لأن كثيراً من التدريس الحالي هو بالفعل تقليدي وميّت . ولكن المهم في الأمر هو أن هذه المواد ضرورية ويجب أن تشكل جزءاً من أي نظام تربوي .

إن التعليم الحالي في التاريخ والدين وبعض المواضيع المثيرة للجدل هو مضر بشكل مؤكد . تمس هذه المواضيع المصالح التي تُبنى المدارس على أساسها ، وتدعم هذه المصالح بدورها المدارس من أجل غرس وجهات نظر خاصة عن هذه المواضيع . يدرس التاريخ في كل دولة بشكل يعظّم تلك الدولة . يعلم الأولاد كي يعتقدوا بأن دولتهم كانت دائماً على حق وتقريباً منتصرة دائماً،وانها قد أنتجت كل الرجال العظام تقريباً ، وانها تتفوق في كل النواحي الأخرى على كل الدول الأخرى . ولما كانت هذه المعتقدات مشبعة بالمدح فإن قبولها يتم بسهولة وبالكاد تستطيع أن تزحزحها المعرفة المتأخرة من براثن الغريزة .

لنأخذ مثلاً بسيطاً يكاد يكون تافهاً : إن الحقائق حول معركة واترلو معروفة في كل تفاصيلها وبدقة تامة ، ولكن هذه الحقائق تختلف كثيراً عندما تُدرَّس في المدارس الابتدائية في أنكلترا وفرنسا وألمانيا . يتصور التلميذ العادي في أنكلترا أن الألمان بالكاد قد لعبوا أي دور ، والتلميذ العادي في ألمانيا يتصور أن والينغتون قد هُزم فعلياً قبلما أنقذ بلوخر Blucher ماء الوجه بخيّالته . لو درست الحقائق بشكل مطابق للوقائع في كلتا الدولتين ، لما وجد التكبر القومي دعماً كبيراً ولما كان أي من الدولتين

ليشعر بحتمية النصر في حال نشوب الحرب ، ولكان الاندفاع لخوض الحرب أخف . وهذه هي النتيجة التي يجب منع وقوعها . كل دولة تتمنى أن تذكي نار الافتخار القومي ، ولكنها تعلم أن لا سبيل للحصول على هذه النتيجة إلا من خلال تحوير التاريخ . وهكذا يعلم الأولاد المساكين بالتحريف والتستير والاقتراح . تُشجَّع الأفكار غير الصحيحة التي تصف تاريخ العالم والتي تدرس في مختلف الدول ، على المنازعة ، وتخدم لترك القومية على شراستها . إذا رغبنا في إنشاء علاقات حسنة بين الدول ، وجب أن تكون إحدى أولى خطواتنا إخضاع كل تعليم للتاريخ إلى هيئة عالميّة منتدبة يفترض فيها أن تحضّر كتاباً مدرسياً حيادياً وبعيداً عن التحيز الوطني يدرّس في كل مكان[1] .

يطبق الشيء نفسه تماماً على الدين . المدارس الابتدائية هي واقعياً

---

(1) لقد وصلنا إلى درجة أدنى بكثير من تشويه عقول الأولاد . سوف يُنظم الأولاد حتى يصيروا وسائل بريئة للحقد والقساوة اللذين يغرسان فيهم من خلال العطف العائلي . من أجل معرفة الوسيلة التي سيتم فيها تنفيذ هذا التنظيم . انظر عالم المعلم ، 5 أيلول 1917. يتوجب على كل صبي وبنت في المدرسة أن يكتب في يوم معين رسالة إلى صديق في الخدمة العسكرية « يجب أن تعطى رسائلهم تحية طيبة قلبية لمستلميها ومصافحة بالأيدي قوية وحقيقة . يجب أن لا تقول الرسائل مجرد « كيف حالك ؟ ولكن أنتَ منتصر . نحن فخورين بك . سنرى النهاية معاً . كل واحد منا يساهم بالمساعدة « وهكذا الخ » . « بالدرجة الأولى يجب أن تكون الرسائل طبيعية ..... من الواجب أن يكتب الأولاد الكبار رسائلهم بأنفسهم من دون أية مساعدة . التلاميذ الأصغر سناً يجب ان يتلقوا أقل ما يمكن من المساعدة . أما التلاميذ الصغار جداً ، فيمكن أن يرسلوا تحية من سطر أو سطرين من نسخة المعلم التي توجد على اللوح » .

دائماً في أيدي هيئة دينية أو دولة لها موقفها الخاص نحو الدين . تتألف الجماعة الدينية من الحقيقة الظاهرة في أن أعضاءها كلهم يشتركون في بعض الاعتقادات المعينة في مواضيع لا يمكن أن يتوصل الناس إلى التثبّت من حقيقتها . تضطر المدارس التي تديرها هيئات دينية إلى منع الفتيان الذين من طبعهم البحث والتساؤل عن اكتشاف الحقيقة الظاهرة في أن هذه المعتقدات المعينة تتناقض مع اعتقادات أخرى لم تعد غير مقبولة ، وإن كثيراً من خيرة الرجال القادرين على إعطاء حكم يعتقدون بأن ليس هناك أي دليل صحيح يدعم أياً من تلك المعتقدات .

وعندما تكون الدولة متطرفة في علمانيتها ، كما هي الحال في فرنسا ، تصبح مدارس الدولة متطرفة في تعصبها مثل المدارس لتي تديرها الكنيسة (قد أخبرت بأن كلمة « الله » يجب أن لا يرد ذكرها في أي مدرسة ابتدائية في فرنسا) . النتيجة في كلتا الحالين واحدة : كبت البحث الحر ، وفي مسألة من أهم المسائل في الدنيا يُصدم الولد بعقيدة متصلبة أو بصمت متحجر .

لا توجد هذه الشرور في التربية الابتدائية فقط . إنها تأخذ أيضاً أشكالاً أكثر دهاء في التربية العالية وبرغم المحاولات الكثيرة التي تجري من أجل جعلها مستترة ، فهي جلية وظاهرة . يضع معهد أيتون Eaton ، واكسفورد Oxford خاتماً معيناً على عقل الطالب تماماً كما يفعل أي معهد يسوعي . بالكاد يمكن أن يقال أن لايتون أو لاكسفورد غاية مقصودة ، ولكن لهما غاية لا تزال قوية وفعالة بالرغم من كونها غير معلنة . لقد ولدا في كل من تعلم فيهما تقريباً عبادة « الشكل الحسن » ، وهذه العبادة مضرّة بالحياة والتفكير كضرر الكنيسة زمن القرون

الوسطى . يتوافق « الشكل الحسن » مع وجود انفتاح فكري سطحي واستعداد لسماع كل وجهات النظر وإظهار بعض التسامح مع الأخصام . ولكنه لا يتوافق مع انفتاح فكري جوهري أو مع استعداد شخصي لإعطاء الجهة الأخرى وزناً فعلياً . إنه مبني على الافتراض بأن الأهمية القصوى هي في نوع معين من التصرف الذي يقلّل الخلاف بين المتساوين إلى أدنى حد ممكن ويؤثر بلطافة على البسطاء الذين يقرّون بغلَظَتِهم الذاتية . لا يفوق هذه النظرة شيء كسلاح للحفاظ على امتيازات الثراء في ديموقراطية متعجرفة ، وله أهمية لا تنكر كأداة لانتاج بيئة اجتماعية ترتاح إليها أنفس الأثرياء الذين لا تعتمل فيهم معتقدات قوية أو رغائب فوق العادة . أما من كل ناحية أخرى ، فالشكل الحسن هو شيء ممقوت .

تنشأ شرور « الشكل الحسن » عن مصدرين : الثقة الكاملة بصحة موقف أصحابه واعتقادهم بأن التصرفات الحسنة يجب أن تُفضّل على الفكر والإبداع الفني أو النشاط الحيوي أو أي مصدر آخر من مصادر التقدم في العالم . الثقة الكاملة هي لوحدها كافية لأن تهدم كل تقدم فكري في أصحابها . وعندما يصحبها استهزاء بدقائق وغرائب التصرفات التي غالباً ما تصاحب القوة الفعلية الابداعية ، تصبح مصدراً لهدم كل من يحتك بها . « الشكل الحسن » هو بذاته ميت وغير قادر على النمو ، وبموقف أصحابه من أولئك الذين يُعدمونه ينتقل موته إلى الكثيرين الذين لولاه لكانت فيهم حياة مشعّة . لا يمكن أن يقدّر الضّرر الذي يجلبه على أبناء الطبقة العالية في انكلترا وعلى الرجال الذين قادتهم قدراتهم للتنبيه على هذا الضرر .

لا مفر من قتل البحث الحر طالما يكون هدف التربية خلق موقف بدلاً من خلق فكر ، ودفع النشء إلى التمسك بآراء إيجابية في مواضيع

يملؤها الشك بدلاً من تركه يكتشف هذه الحقيقة بنفسه بتشجيعه على تقليب رأيه بحرية . يُفترض بالتربية أن تغرس الرغبة في معرفة الحقيقة وليس الاعتقاد بأن عقيدة ما هي الحقيقة . ولكن ما يجمع الناس سوية في منظمات كالكنيسة والدولة والأحزاب السياسية هي العقائد . فاشتداد الإيمان بعقيدة ما هو ما يؤكد الشدة في القتال إذ يأتي النصر إلى من يشعر بيقين قوي في مواضيع يكون عدم اليقين بها هو الموقف العقلي الوحيد . ولكي ينتج الاشتداد في الاعتقاد والبأس في القتال ، كان من الضروري تمويه طبيعة الطفل وكسف وجهة نظره الحرّ من خلال تنمية المخاوف التي تعطل نمو الأفكار الجديدة . تكون النتيجة فيمن تغط عقولهم في رقاد عميق تعصباً كليّ القدرة ، بينما القلة التي لا يمكن قتل التفكير فيها تسلّم نفسها للشك باستهزاء وتصبح بلا أمل فكري إذ تقوم بنقد هدام يشوه كل ما هو حي ، وتعجز عن إحياء الميول الابداعية التي تقتلها في الآخرين .

إن النجاح في القتال الذي يتحقق نتيجة لقتل حرية التفكير قصير وبلا أهمية . الحيوية الفكرية هي على المدى البعيد أساسية للنجاح وللحياة السعيدة . إن اعتبار التربية كشكل من التمرين أو كوسيلة لإنتاج إجماع عن طريق الاستعباد هو شيء شائع الانتشار ويجد من يدافع عنه لأنه يقود بالدرجة الأولى إلى النصر . سيشير الذين يبتهجون بإجراء مقارنات في التاريخ القديم إلى انتصار اسبارطا على أثينا حتى ينصروا مبادئهم الأخلاقية على الآخرين . ولكن أثينا وليس اسبارطا هي التي كسبت السيطرة على عقول الناس ومخيلاتهم . يفضل كل واحد منا ، لو كان بإمكانه أن يولد ثانية في حقبة ما من التاريخ ، أن يولد في أثينا وليس في أسبارطا . إننا في حاجة ماسة في العالم المعاصر إلى استخدام أكبر للعقل خاصة في شؤوننا العملية لأن حتى مجرد الانتصار الظاهري ربما لا يمكن

كسبه إلا بالعقل وليس بالتواضع . تقود التربية القوى الظنية في الإنسان إلى الانهيار الفكري ، ولكن لا يتم تحقيق حتى الحد الأدنى من التقدم إلا بترك روح البحث الحرحيّة .

يفرض أولئك الذين ينهمكون في التربية بعض العادات العقلية كالطاعة والتنظيم (انضباط :Discipline) ، والتهافت على الصراع من أجل النجاح المادي والإيمان المطلق لحكمة المعلم وتقبلها بصمت كلي . ولكن هذه العادات كلها هي ضد الحياة . بدل الطاعة والتنظيم يجب المحافظة على الاستقلال والميل . وعوضاً عن التهافت القاسي يجب على التربية أن تنمّي العدل في التفكير . عوض الاستهزاء يجب أن نغرس الاحترام وبذل الجهد من أجل الفهم . ونحو آراء الآخرين ، يُفترض بها أن تنشيء ، ليس بالضرورة الاستكانة ، ولكن فقط تلك المعارضة التي تمتزج مع تفهم مفعم بالخيال والاستيعاب الواضح لأسس المعارضة . بدلاً من الإيمان ، يجب أن يكون هدف التربية تحريك الشك البناء ، حب المغامرة العقلية والشعور بوجود عوالم يجب أن تُخْضَع بالمغامرة والشجاعة الفكرية . ان الأسباب المباشرة لهذه الشرور هي القبول بالوضع العام وإخضاع التلميذ الفرد إلى أهداف سياسية لا تعير الأشياء العقلية أي اهتمام . ولكن خلف هذه الأسباب سبباً أعمق منها بكثير وهو أن التربية تعتبر كوسيلة للتسلط على التلميذ وليس كوسيلة لتذكية نموه الشخصي . وهنا بالذات تُظهر قلة الأحترام نفسها . ولا يتم أي إصلاح جذري إلا بمزيد من الاحترام .

يعتبر البعض أن الطاعة والتنظيم ضروريّان ولا يمكن الاسغناء عنهما فيما إذا كنا نريد المحافظة على النظام في الصف أو إعطاء درس . هذا صحيح ولكن إلى درجة ما . وهذه الدرجة هي أقل بكثير مما يظن أولئك

الذين يعتبرون الطاعة والتنظيم أشياء مرغوباً فيها بحد ذاتها . الطاعة ، أي تسليم إرادة الفرد إلى توجيه خارجي ، هي الوجه الآخر المكمِّل للسلطة ، وقد يكون كلاهما ضروريين في حالات معينة . فقد يتطلب الأولاد الذين يستعصون على النظام ، والمجانين والمجرمين ، وجود سلطة تجبرهم على الطاعة . ولطالما يكون هذا ضرورياً ، فإنه مجرد سوء حظ ، وما نرغب فيه هو إيجاد إمكانية الاختيار الحر للغايات التي يكون التدخل فيها ضرورياً . لقد أظهر المربون المجدِّدون أن هذا الاختيار ممكن أكثر بكثير مما كان يظن آباؤنا (1) .

ما يجعل الطاعة تبدو ضرورية في المدارس هي الصفوف الكبيرة والمعلمون (المشغولو الوقت كله) المرهقون ، ويتطلّب هاتين الآفتين اقتصادٌ غير صحيح . يعجز من ليس عندهم أية تجربة في التعليم عن تصور الجهد النفسي الذى يتطلبه أي تعليم حي وحقيقي . إنهم يعتقدون بأن المعلمين يستطيعون أن يـ[illegible]ا في العمل نفس الساعات التي يمضيها عمال البنوك . ويؤدي هذا إلى تعب شديد وضنك في الأعصاب وضرورة ماسّة لإنهاء المهمة اليومية آلياً . ولكن لا يمكن تنفيذ هذه المهمة آلياً إلا بفرض الطاعة .

لو أخذنا التربية بجد واعتبرنا المحافظة على حيوية عقول الأولاد مهمة كأهمية الحصول على النصر في الحرب ، لصرفنا شؤون التربية على وجه آخر ، ولكنا تأكدنا من تحقيق غايتنا حتى ولو كانت تكاليفها تفوق التكاليف الخاصة بمئات الأضعاف . يجلب التعليم في أوقات قصيرة البهجة لكثير

---

(1) ن تحققه مدام مانتوسوري من تخفيض الطاعة والتنظيم إلى أدنى حد
ة في التربية هو إلى حد ما عجائبي .

من الناس ، ويمكن أن تنهى هذه المدة بحمية وطيبة خاطر تثير اهتمام أكثر التلاميذ ولا تتطلب أي تنظيم . يمكن أن تُفْصَل القلة التي لا يثار اهتمامها عن بقية التلاميذ ، وتعطى مواضيع أخرى للدراسة . يجب أن يعطى المعلم في أغلب الأيام مقداراً معيناً من التدريس يتناسب مع السرور في العمل ومع الوعي لحاجات التلميذ العقلية . فتكون النتيجة علاقة مودة بين التلميذ والمعلم وليس عداوة ، ويتيقن جزء كبير من التلاميذ بأن التعليم يهتم بتنظيم حياتهم الخاصة وليس هو مجرد عبء خارجي يقطع عليهم لعبهم فارضاً عليهم ساعات طويلة من الجلوس الصامت . كل ما هو ضروري لإنجاز هذه الغاية هو تخصيص اعتماد أكبر من المال للحصول على أساتذة عندهم وقت أكثر للراحة ويهوون التعليم .

التنظيم كما هو حالياً في المدارس هو شر إلى حد كبير . هناك نوع من التنظيم ضروري لكل إنجاز تقريباً ، وربما لا يعيره أولئك الذين يقاومون مجرد التنظيم الخارجي في الطرق التقليدية اهتماماً كافياً . يأتي التنظيم المرغوب فيه من الداخل ، ويظهر في قدرة الإنسان على ملاحقة غاية بعيدة ملاحقة ثابتة ، مهملاً أو حتى مضحياً بأشياء كثيرة يصادفها على الطريق . يتطلب هذا التنظيم إخضاع الميول الفرعية إلى الإرادة ، كما يتطلب قوة فعل موجه تستمد من الرغائب الابداعية الكبيرة حتى عندما تبدو وكأنها غير حية بشكل بارز . لا يمكن أن يتحقق من دون هذا التنظيم أي طموح رزين ، حسناً كان أم رديئاً ، ولا تتم السيطرة على أي قصد مستديم ومستقيم . هذا التنظيم هو ضروري جداً ، ولا يمكن أن ينتج إلا من رغائب قوية في غايات لا يمكن تحقيقها مباشرة ، ولا يمكن أن تخلقه إلا تربية تحضن رغائب إبداعية كهذه ، على خلاف التربية الحاضرة

التي قلّما تقوم بخدمة كهذه . ينبع هذا التنظيم من إرادة الفرد الذاتية ، وليس من سلطة خارجية . لا تهتم أكثر المدارس بهذا النوع من الانضباط مع أنه هو ما لا أعتبره شراً أبداً .

على الرغم من أن التربية الابتدائية تشجع التنظيم غير المرغوب فيه والمبني على الطاعة الجامدة ، وعلى الرغم من أن التربية الحالية بالكاد تشجع التنظيم الأخلاقي للتوجيه الذاتي المستقيم ، فإن التربية التقليدية العالية تخلف نوعاً ما من الانضباط العقلي البحت . والنوع الذي أقصد هو ذاك الذي يُقوِّي الإنسان في تركيز أفكاره طوعياً على أية مادة يصادفه اعتبارها ، بغض النظر عن مشاغله الأخرى أو الضجر أو الصعوبة الفكرية . تضاعف هذه الصفة فعالية العقل كآلة بالرغم من أن ليس لها أية أهمية جوهرية من جهة التسامي . هذا هو ما يُمكِّن محامياً من أنْ يحفظ التفاصيل العلمية لقضية مربحة ينساها حالما يُلفظ حكم بها ، او ما يمكِّن موظفاً حكومياً من حل مسائل إدارية مختلفة ومتعددة بسرعة فائقة وعلى التتابع . وهو ما يمكِّن الناس من نسيان مشاغلهم الخاصة خلال أوقات العمل . وهو ، في عالم متعقد ، قدرة ضرورية لكل من يتطلب عملهم تركيزاً عقلياً .

إن النجاح في بناء انضباط عقلي هو الميزة الإيجابية الرئيسية للتعليم العالي التقليدي . أنا أشك فيها إذا كان يمكن تحقيقه من دون إرغام الانتباه الواعي أو إقناع بمتابعة مهمة سبق تخطيطها . أنا لا أؤمن ، بشكل أولي لسبب كهذا ، أن أساليب كأساليب المدام منتوسورى هي قابلة للتطبيق بعدما يتخطى الولد سن الطفولة . إن جوهر اسلوب السيدة منتوسوري يتألف من إعطاء الولد قدرة على الاختيار بين مهن كثيرة كل واحدة منها ممتعة في نظر أكثر الأولاد وكلها مفيدة . إن انتباه الولد هو عفوي

تماماً كما يظهر ذلك في اللعب ، والتلميذ يتلذذ باكتساب المعرفة على هـذا الشكل ، ولا يكسب أية معرفة لا يرغب فيها . أنا مقتنع بأن أسلوبها هـو أفضل أسلوب لتربية الأولاد الصغار ، وتجعل نتائجه العملية التفكير بأسلوب آخر مستحيلاً . ولكن يصعب أن نرى كيف يمكن أن يقود هذا الأسلوب إلى سيطرة الإرادة على الانتباه . إن أكثر الأشياء التي يتوجّب التفكير بها هي غير ممتعة ، وحتى أن ما يعتبر الآن ممتعاًكان يبدو في بداية الأمر وغالباً، مضجراً إلى أن دُرس إلى حد ضروري . والقدرة على إظهار انتباه مطوّل هي في غاية الأهمية وقلّما تُكتسب إلا كعادة تُغْرَس أولاً من خلال الضغط الخارجي . صحيح أن هناك بعض الأولاد الذين يتمتعون برغائب عقلية (انتلكتوالية)قوية كالغاية حتى أنهم يريدون القيام بكل ما هو مطلوب من تلقاء أنفسهم وباختيارهم . ولكن يحتاج الباقون لهم إلى إغراءات خارجية تدفعهم لتعلم أي موضوع بدقة . يخالج بعض المصلحين التربويين الخوفُ من طلب السخاء في بذل الجهود ، كما ينمو في العالم رفض متزايد للوقوع ضحية الضجر . لكل من هاتين الجهتين حسناته ، ولكن لكليهما مخاطِرُه . يمكن إصلاح الانضباط العقلي المتضعضع بمجرد النصيحة ومن دون استعمال أي ضغط خارجي ـ بشرط أن نعرف كيف نوقظ في الولد شعوره بمصلحته العقلية وطموحه ايقاظاً كاملاً . يجب أن يكون المعلم الحسن (الكويس) قادراً على تقديم هذه المساعدة إلى كل ولد يُظهر استعداداً للعطاء العقلي. فيما يخص الكثير من التلاميذ المتبقين ، فأنا لا أجد التربية الحالية التي هي بصمية تماماً ، بإمكانها تقديمها ، عندما يكون ذلك ممكناً ، إلا على الوجه الآتي : أن نطلب من التلميذ أن يعطي إذناً واعية لحاجاته الشخصية . وإذا لم يتوقع المعلمون النجاح في تطبيق هذا الأسلوب ، فمن السهل عليهم جداً أن

ينزلقوا في خمول بليد ومن ثم يلومون تلاميذهم بينما الغلطة هي في الحقيقة غلطتهم .

ليس من الممكن تفادي نقل القساوة المتأصلة في الصراع الطبقي إلى المدارس طالما بقي هيكل المجتمع الاقتصادي بلا تغيير . من المفترض أن تكون الحالة على هذا الوجه في مدارس الطبقة المتوسطة خاصة لأن عددها يتوقف على رأي الأهل ، وتحصل هذه المدارس على رأي الأهل الجيد بالتشهير بنجاح التلاميذ . هذه هي واحدة من الطرق العديدة التي تظهر فيها منظمات الدولة المتزاحمة مضرة . ليست الرغبة في المعرفة العفوية والبعيدة عن المنفعة غير شائعة في النشء ، ويمكن إيقاظها بسهولة في الكثيرين ممن تكون دفينة فيهم . ولكن يكبتها المعلمون الذين لا يفكرون إلا بالامتحانات والشهادات والدرجات تفكيراً لا يعرف الشفقة . فمنذ البرهة الأولى لدخول الأولاد الأذكياء إلى المدرسة حتى تخرجهم من الجامعة ، لا يترك لهم وقت للتفكير أو لإشباع ذوقهم الفكري . فمن البداية إلى النهاية ليس هناك إلا رتابة طويلة من تلميحات امتحانية وحقائق كتب مدرسية . يشمئز في النهاية التلاميذ الأكثر ذكاء من التعليم ويتوقون إلى نسيانها بسرعة والهرب إلى حياة من الفعل . ولكن هناك كما هنا تُطبق عليهم الآلة الاقتصادية بثقلها ، فتتلطخ كل رغائبهم العفوية وتتهشم .

يقود نظام الامتحانات والتعليم ، الذي يُنتظر منه أن يكون تمريناً على كسب المعاش ، الفتيان لكي ينظروا إلى المعرفة من وجهة نظر نفعية خالصة ، كوسيلة للحصول على المال وليس كمدخل إلى الحكمة . لو أثّر هذا النظام في من لم يكن عندهم أية مصالح عقلية صحيحة فقط ، لكان الأمر بسيطاً إلى حد ما . ولكنه لسوء الحظ يؤثر أكثر ما يؤثر في من تكون

مصالحهم الفكرية أقوى إذ يسقط ضغط الامتحانات عليهم بقسوة أكبر . تبدو لهم التربية بشكل خاص ، ولكل الباقين إلى درجة ما ، وسيلة لكسب التفوق على الآخرين ملوثة بالقسوة وتضخيم اللامساواة الاجتماعية. كل دراسة حرة وغير متحيزة تظهر أن اللامساواة الحالية هي كلها تقريباً مخالفة للعدالة بالرغم من أن بعض اللامساواة قد تبقى حتى في مدينة فاضلة . ولكن نظامنا التربوي يميل إلى تغطية هذه الشرور عن الجميع ، باستثناء الساقطين طبعاً ، لأن من ينجح هو سائر على طريق الاستفادة من هذه اللامساواة مدعوماً بتشجيع كل الرجال الذين يوجّهون هذه التربية .

إن التسليم التام بحكمة المعلم هو عند أكثر التلاميذ بمنتهى السهولة ، إذ أنه لا يتطلب ذرة من التفكير المستقل : كما أنه يبدو معقولاً لأن المعلم يعرف أكثر من تلاميذه . وبالإضافة إلى ذلك فالتسليم هو الطريق الوحيد لكسب ود المعلم إن لم يكن رجلاً متفهماً . ولكن عادة التسليم الكلي هي كارثة في كل معارج الحياة الأخرى . إنها تقود الناس إلى التفتيش عن قائد وللاعتراف بقيادة أي رجل يَصْدُقُ أن يحتل ذلك المنصب . إنها توطد سلطة الكنائس والحكومات والدوائر الحزبية وكل المنظمات الأخرى التي تقود الناس العاديين إلى دعم نظم بالية مفسدة للأمة ولأنفسهم على حد سواء . من الممكن أن لا يكون هناك كثير من التفكير المستقل حتى ولو عملت التربية كل ما في وسعها من أجل تنميته ، ولكن من المؤكد أن يكون أكثر مما هو الآن . لو أن هدف التربية هو جعل التلاميذ يفكرون بدلاً من جعلهم يقبلون بعض الاستنتاجات ، لجرت على خلاف ما تجري عليه الآن ، ولكان هناك إبطاء أكثر في التدريس وتركيز على المناقشة ، ومناسبات أكثر لتشجيع الطلاب للتعبير عن

أنفسهم ، ومحاولات أكثر لجعل التربية تهتم بالشؤون التي يشعر التلاميذ بميل نحوها .

وفوق كل ذلك لَبُذِل جهد كبير لتحريك حب المغامرة الفكرية وتشجيعها . إن العالم الذي نعيش فيه مختلف ومدهش ، فبعض الأشياء التي تبدو بسيطة تصبح صعبة أكثر وأكثر كلما زاد البحث فيها ، وبعض الأشياء الأخرى التي حُسِبَ اكتشافها مستحيلاً قد جرى اكتشافها بالجهد والعبقرية . إن قوى الفكر وحقوله التي يمكنه أن يسيطر عليها مضافة إلى تلك الحقول الأكثر اتساعاً التي يمكنه أن يوحي بها إلى المخيلة ، تعطي إلى من تجولت عقولهم بعيداً عن المعارج اليومية غنىً مذهلاً من المواد ومخرجاً من ضجر الروتين العادي ورتابته ، مُفْعِماً الحياة كلها متعةً ومحطماً جدران سجن تلك الأشياء العادية . إن نفس حب المغامرة الذي يدفع الرجال الى القطب الجنوبي ، نفس التعطش إلى رؤية حسم نهائي في القوى المتصارعة - الذي يقود بعض الناس إلى الترحيب بالحرب ، يمكن أن يجد في التفكير الخلّاق منفذاً لا تتطرق إليه القسوة أو النقصان ، بل يزيد عزة الإنسان مجسداً في الحياة بعضاً من تلك العظمة البراقة التي تجلبها النفس الانسانية من عالم المجهول . إن اعطاء هذا الفَرَح ، بكميات مختلفة إلى كل ما هو قادر عليه ، هو الغاية القصوى التي يُقَدَّر من أجلها تثقيف العقل .

قد يقال إن الفرح بالمغامرة الفكرية نادر وإن من يستطيع الاستمتاع به هو عدد قليل من الناس ، وإن التربية العادية إذاً لا يمكنها أن تأخذ بعين الاعتبار شيئاً أرسطقراطياً كهذا . أنا لا أصدق مثل هذا القول . إن الفرح بالمغامرة العقلية هو أكثر شيوعاً في الفتوة مما هو في

الكبـار . يوجـد بين الأطفـال بكثرة وينمـو بشكل طبيعي في فتـرة التخيل والتصور . إنه يَندُر في الفترات الأخرى من الحياة لأن كـل شيء يُفعل من أجل قتله أيام الدراسة . يخاف الناس التفكير كما لا يخافون شيئاً آخر على وجه المسكونة ـ أكثر من الخراب وحتى أكثر من الموت . الفكر هـو انقلابي وثـوري ، هدام ورهيب ، الفكـر لا يُشفق على الامتيـازات أو المؤسسات الـراسخة أو العـادات المريحـة ، الفكر لا يحـده حكم أو قانـون ولا يتـأثـر بسلطة ولا يعبـأ بالحكمـة المتبعة عبـر الأجيـال . يتـطلع الفكـر إلى وهـدة الجحيم ولا يرتعد . إنه يرى الإنسـان كلطخة صغيـرة تحيطهـا أعماق من الصمت لا تُدرَك أبعادها ، ومع هذا يرفع ذاته بكل اعتزاز وثبـات كما لـو كان سيد المسكونة » . الفكـر هو عـظيم ودقيق وحر . هـو النور في العـالم ومجد الإنسان الرئيسي .

ولكن إذا أُريد للفكر أن يصبـح مِلْك الكثيرين ، وليس امتيـازاً يحوز عليـه القليلون ، كان من الضـروري أن يوضـع حد للخـوف . ما يلجم تقـدم الناس هـو الخوف ـ خـوف لئلا يثبت بـأن معتقداتهم الحيـويـة هي تـوهمات ، خـوف لئـلا يثبت بـأن مؤسسـاتهم التي يعيشـون في ظلهـا هي مصـدر للأذى ، خـوف لئـلا يثبت لهم إنهم أقـل جـدارة بـالاحتـرام مما يحسبون أنهم يستحقون . هل من الضروري أن يفكر الإنسان بحـرية عن الملكية ؟ إذن ماذا يحل بنا نحن الأغنياء ؟ أمن الضروري أن يفكر الشبان والشـابـات بحـريـة عن الجنس ؟ إذن مـاذا يصيب الأخـلاق ؟ هـل من الضـروري أن يفكـر بحـريـة حـول الحـرب ؟ إذن مـاذا يحـل بـالـنظام العسكري ؟ ليلق إذاً بالكفـر خارجـاً ! العودة العـودة إلى ظلال التعصب لئلا تهدد الملكية والأخلاق والحرب بالخطر . من الأفضل أن يكـون الناس كسـالى ، ظالمـين وسخفاء ، عـلى أن تكون أفكـارهم حرة . فلو أصبحت

أفكارهم حرة لفكّروا خلاف ما نفكر . فلهـذا يجب أن يمنع حـدوث مثل هذه الكارثة بكل ثمن . » هكذا يفكر أعـداء الفكر في قـرارة أنفسهم غير الواعية . وهكذا يتصرفون في كنائسهم ومدارسهم وجامعاتهم .

لا تستطيع أية مؤسسة مبنية على الخوف أن تقود إلى الحياة . الأمل ، وليس الخوف ، هو الأساس الخلاّق في الشؤون الإنسانية . كـل ما يجعـل الإنسان عظيماً ، نشأ عن المحاولة للحصول على ما هو أفضل ، وليس من الصراع من أجل منع حصول ما يظن أنه شر . وبما أن التربية الحـالية قلما يدفعها أمل كبير ، فقلما تنجز شيئاً كبيراً . تسيطر على عقول أولئك الذين يـوجهـون تـربيـة النشء رغبـة في الحفـاظ عـلى المـاضي لا الأمـل بخلق المستقبـل . يجب أن لا تهدف التـربيـة إلى تحقيق وعي غير فعـال لحقـائق ميتة ، بل إلى نشاط يوجّه نحو العالم الذي ستحققه جهودنـا . يجب أن لا يوحي بها تأسف متسكع وراء المحاسن المندثرة في اليونان وعصر النهضة ، بل رؤية مشعة عن المجتمع الذي سيكون وعن الانتصارات التي سيحققها الفكـر في الزمن الآتي ، وعن الآفـاق المتسعة بـاستمـرار من جـرّاء كشف الإنسان عن المسكونة . إن من يتشبع تعليمه بهذه الروح سيمتلىء بـالحياة والأمـل والفرح ، ويقـدر أن يقوم بقسـطه في جعل مستقبـل البشريـة أقل تجهماً من الماضي ، مؤمناً بالمجد الذي يقدر أن يصنعه الجهد البشري .

الفصل السادس

الزواج ومسألة السكان

لقد تضاءل تأثير الديانة المسيحية في الحياة اليومية بسرعة هائلة في كل أوروبا خلال المائة سنة الماضية . لم تتدن نسبة المؤمنين الاسميين فقط ، بل انخفضت أيضاً في من تبقى على إيمانه حدة (التحجر) التشبث العقائدي انخفاضاً كبيراً . ولكن لا يزال هناك مؤسسة اجتماعية واحدة تتأثر بالتقليد المسيحي إلى حد هائل - اقصد بذلك مؤسسة الزواج . تطغى حتى الآن وإلى درجة كبيرة على القانون وعلى الرأي العام تعاليم الكنيسة فيما يخص الزواج ومن خلاله تواصل تأثيرها على حياة الرجال والنساء والأطفال في أغلى اهتماماتهم الحياتية .

ما أريد معالجته هو الزواج كمؤسسة سياسية وليس كشأن خاص من شؤون الفرد الاخلاقية . يسيطر القانون على الزواج ، ويعتبر المجتمع ان من حقه أن يتدخّل في هذا الشأن . ما تهمني معالجته هو موقف المجتمع نحو الزواج وما إذا كان هذا الموقف يزيد في حياة المجتمع ، وإذ لم يكن يأتي بأي زيادة ، فما يجب إذن أن نفعل حتى نغير هذا الموقف .

هناك سؤالان يجب أن يطرحا بخصوص أي نظام زواج : أولاً كيف يؤثر في نمو وخلق الرجل والمرأة ذاتهما ، وثانياً ما هو تأثيره في إنجاب الأولاد وتربيتهم . هذان السؤالان هما متمايزان كلية ويمكن أن يكون

نظام ما مرغوب من إحدى هاتين النقطتين. بينما يكون غير مرغوب فيه من الناحية الأخرى . أنا أقترح أولاً أن أصف القانون والرأي العام ومواقفهما من علاقات الجنسين كما هي حالياً في انكلترا ، ثم أعالج تأثيرات هذه العلاقات في الأولاد ، وأخيراً أعالج كيف يمكن تجنب هذه التأثيرات الرديئة في نظام آخر يؤدي أيضاً إلى تأثير أفضل في خلق الناس ونموهم .

إن قوانين الزواج في انكلترا مبنية على التوقع بأن العدد الأكبر من الزيجات سيدوم مدى الحياة . لا يمكن فسخ الزواج إلا عندما يثبت أن واحداً من الزوجين ، وليس كلاهما معاً ، قد زنى . (وفي حال أن الزوج) وعندما يكون الزوج هو « الجهة المذنبة » يحكم عليه أيضاً أنه مذنب لعلتي القسوة والهجر . لا يستطيع الطلاق بالواقع ، وحتى عندما تكتمل هذه الشروط ، إلا من كان غنياً جداً وذلك لأن نفقات الطلاق هي باهظة جداً (1) . لا يمكن حل زواج لسبب الجنون أو الجريمة أو القسوة مهما كانت هذه الأشياء فظيعة ، أو لسبب الهجر أو لزنى الطرفين . كما لا يمكن حله لأية علة كانت حتى ولو وافق كل من الرجل والمرأة على ذلك . يعتبر القانون في كل هذه الحالات الزوج والزوجة مرتبطين معاً مدى الحياة . يقوم موظف خاص بمحاكم الطلاق يلقب بمراقب الملك King's proctor بمعارضة الطلاق عندما يتواطأ الاثنان على المطالبة بالطلاق أو عندما يكون كل فرد منهما قد زنى (2) .

---

(1) ظهر إجراء لدعاوى في فورما بوباريس Forma pouparis ولكن بقي هذا الإجراء لأسباب مختلفة غير مستعمل تقريباً ، ثم ظهر حديثاً إجراء جديد هو إلى درجة ما أفضل من سابقه ، ولكنه لا يزال بعيداً جداً عن الحالة المرضية .

(2) تدل الرسالة التالية التي نشرت في 4 كانون الأول سنة 1915 على طبيعة نشاطات مراقب الملك :

=

يجسد هذا النظام المشوق الآراء التي كانت تنادي بها الكنيسة في إنكلترا Chorch of England منذ ما يقارب من خمسين سنة ماضية ، كما ينادى بها Noneanformists البروتستانتيون الخارجون على كنيسة انكلترا . ترتكز هذه الآراء على الافتراض بأن الزنى هو خطيئة وإنه عندما يرتكب أحد

الطلاق والحرب

إلى رئيس تحرير النيوستيسمان

السيد الكريم :

قد تهم الحوادث التالية قراءك . لقد حصلت امرأة مسكينة ، بمجرى التسهيلات الجديدة للطلاق التي قدمت إلى فقراء لندن ، على مرسوم Nisi بالطلاق ـ أي حكم بالطلاق ينفذ بعد ستة أسابيع إذا لم يظهر ما ينقضه ـ ضد زوجها الذي غالباً ما كان يلطخ جسدها بالضرب ، وقد عداها بمرض خطير وهو يسكن الآن مع امرأة أخرى . لقد أنجب من هذا الزواج غير الشرعي عشرة أولاد . ولكي تمنع وزارة المالية جعل هذا المرسوم مطلقاً ، فقد صرفت على الأقل مائتي ليرة استرلينية من الضريبة العامة لإعطاء معلومات إلى مستشار معروف ومساعد مستشار بارز ، وجلبت ما يقرب من عشرة شهود من مدينة تبعد مئات الأميال حتى تبرهن على أن تلك المرأة قد ارتكبت اعمالاً من الزنى مبعثرة هنا وهناك في سنة 1895.1898 . بالنتيجة سوف تضطر هذه المرأة على الأغلب من جراء العوز إلى ارتكاب أعمال أخرى من الزنى وان الزوج سوف يتابع معاملته لعشيقته تماماً كما كان يعامل امرأته ،وسيبقى بلا عقاب على أقل تعديل من جهة المرض . لو حصل شيء مثل هذا في أية دولة متحضرة لكان الزواج قد فسخ ، وأولاد الزواج الثاني قد جعلوا شرعيين ، والمحامون الذين استخدمتهم وزارة المال لما سلخوا أجوراً عالية كالتي سلخوها على حساب المجتمع لأنجاز تبدو نتائجه في نظر اكثر المحامين الآخرين غير اجتماعية على الإطلاق . إذا كان هناك أي من المحامين الذين يشعرون بأن المجتمع ينتفع بإجراء قضائي من هذا النوع ، فلماذا لا يقدمون خدماتهم لقاء لا شيء ، كما فعل المحامون الذين ساعدوا هذه الامرأة ؟إذا كان علينا أن نكون =

الطرفين هذه الخطيئة ، يتوجب على الجهة الأخرى ، فيما إذا كانت غنية ، من أن تنتقم لذاتها . ولكن يزول هذا الحق في الانتقام عندما يرتكب الاثنان هذه الخطيئة أو عندما لا يظهر الطرف البرىء أي غضب مبرر . عندما نفهم هذه النظرة يفقد القانون ، الذي يبدو لأول وهلة غريب الأطوار ، غرابته . ترتكز هذه النظرة بشكل عام على أربع وضعيات .

مقتصدين في فترة الحرب ، فلماذا لا يكتفي مراقب الملك باستخدام مساعد مستشار فقط ؟ تبقى الحقيقة بأن كثيراً من الأشخاص الذين هم في وضع كوضع هذا الرجل وهذه المرأة سيفضلون تجنب أولاد غير شرعيين ، وهكذا ينخفض معدل الولادة .

الحادث الآخر هو التالي : جرى طلاق بين السيد أ وزوجته لعلاقتها بالسيد ب ، كان السيد ب متزوجاً ، ولما علمت زوجته بإجراءات الطلاق ، حصلت على مرسوم Nisi ضد زوجها . إن السيد ب معرض في أية لحظة ليُطلب إلى الجبهة . ولكن زوجته ما زالت لبضعة أشهر ترفض جعل قرار الطرق مطلقاً . وهكذا نجحت في منع زوجها، الذي يعتبر نفسه مرتبطاً بداعي الشرف ، من الزواج من السيدة أ. إن القانون يعطي السماح لأي مشتك،ذكراً ام انثى،للحصول على مرسوم طلاق nisi ولكنه يعطيه الحق ايضاً في نفس الوقت لان يوقف هذا الطلاق ولدوافع هي على الأرجح غير مشرّفة . لقد استنكر مستشاروا قانون الطلاق هذه الحالة ولكن المظالم التي نشتكي منها تتفاقم باضطراد خاصة وان الحرب قد أفسحت مجالاً أمام تعدد الزوجات لعساكرنا الأبطال الذين يريدون الحصول على مساعدات الدولة المختصة بالزوجة والأولاد غير الشرعيين . وغالباً ما تكون الزوجة الشرعية هي أيضاً مرتبطة بشكل مماثل مع رجل آخر . أنا أسوق هذه الحقائق لاعتبارها في صحيفتكم لأني لاحظت على صفحاتكم تشك متكرر من سقوط معدل الولادة . تلعب لاعدالة قوانين الزواج عندنا دوراً هاماً في تسبب هذا السقوط .

المخلص

29 تشرين الثاني — أ .س . ب هاينيز .

(1)إن العلاقة الجنسية خارج الزواج هي خطيئة،(2)إن استياء الجهة « البريئة » من الزنى هو خوف من الأعمال السيئة مُبَرَّر ، (3) إن هذه الأشياء ولا شيء آخر هو ما يجعل الحياة المشتركة مستحيلة ، (4) وإن الفقراء ليس لهم مطلب في المشاعر الرقيقة . إن كنيسة انكلترا قد توقفت ، نتيجة لتأثير الكنيسة العالية ، عن الاعتقاد بالنقطة الثالثة ولكنها لا تزال تؤمن بصحة الأولى والثانية ولا تفعل شيئاً لتظهر للملأ بأنها تخلت عن الإيمان بالنقطة الرابعة .

إن عقوبة خرق قانون الزواج هي من ناحية ما مادية ولكنها تعتمد بشكل رئيسي على الرأي العام . يؤمن جزء بسيط من الناس جدياً بأن العلاقات الجنسية خارج الزواج هي أثيمة ، ولكنهم يجهلون تصرف أصدقائهم الذين يخالفونهم في هذا الاعتقاد ، ويقودون حياتهم غير عالمين كيف يعيش الآخرون أو بماذا يفكرون. لا يعتبر هذا الجزء الأعمال فاسدة فحسب بل يعتبر الآراء التي تخالف مبادئه فاسدة أيضاً. ولكنه يستطيع أن يسيطر على مهن السياسيين من خلال تأثيره في الانتخابات ومن خلال حضور المطارنة للاقتراع في مجلس اللوردات . وهكذا تسيطر هذه الجماعة الصغيرة على آلة سن القوانين جاعلة أي تغيير في مجال قانون الزواج مستحيلاً . إنها تستطيع أيضاً أن تضمن في أكثر الحالات عزل من ينتهك علناً حرمة الزواج من وظيفته أو تحطيمه بدفع زبائنه أو عملائه إلى هجره . لا يستطيع طبيب أو محام أو تاجر في محلة سكنية أن يكسب لقمة عيشه ، كما لا يمكن أن يبقى سياسي في البرلمان إذا عرف عنهم علنياً بأنهم « لا أخلاقيون » . ومهما يكن تصرف الإنسان مِنّا في حياته الشخصية غريباً ، فهو على الأرجح لن ينجرد للدفاع عمن يُشهّر به ، إلا إذا كان بعض السم سيصيبه أيضاً . ولكن طالما أن المشهر به لم يَطْلع صيته بعد ،

فقليل هم الذين يعترضون عليه ، مهما كان علمهم بتصرفاته الشخصية في هذا المجال وثيقاً .

وبسبب طبيعة هذه العقوبة ، فإنها تقع بشكل غير متساوٍ على مهن مختلفة . يتخلّص عادةً الممثل أو الصحفي من كل جزاء . ويستطيع عامل في المدينة أن يفعل تقريباً كل ما يريد . ولا يحتاج رجل يعيش على أرزاقه الخاصة واختار أصحابه بعناية أن يتأثر أبداً ، إلا إذا أراد أن ينخرط في الحياة العامة . إن النساء اللواتي كنّ يتأثرن أكثر من الرجال في ما سبق ، يتأثرن الآن أقل ، طالما أن هناك دوائر اجتماعية كبيرة ينعدم فيها العقاب الاجتماعي ، كما أن عدد النساء اللواتي يرفضن الأعراف التقليدية يتزايد باستمرار . ولكن لا تزال العقوبة ، بالنسبة لأغلبية الناس خارج الطبقة العاملة ، صارمة لدرجة رادعة .

النتيجة هي انتشار رياء واه يسمح بتعديات كثيرة على العرف ، ولا يردع إلا تلك التعديات التي لا يجب أن تصبح علنية . لا يُسمح لإنسان ما أن يسكن علناً مع امرأة ليست زوجته ، وتمنع امرأة غير متزوجة من أن تحتفظ بولدها ، ولا يُرضى عن ذهاب الرجل أو المرأة إلى محكمة الطلاق . باستثناء هذه التقييدات ، هناك في الواقع حرية كبيرة . تجعل هذه الحرية العملية حالة القانون تبدو لأولئك الذين لا يقبلون بالأسس التي يرتكز القانون عليها قابلة للاحتمال. لا يرضى أصحاب الآراء الصارمة بأن يضحى باللذة فحسب حتى تنشرح صدورهم، بل بأن يضحى أيضاً بالأولاد والحياة المشتركة والحقيقة والصدق . لا يمكن الاعتقاد بأن هذه هي النتيجة التي يبتغيها اتباع هذه الأعراف ، ولكن على قدم المساواة لا يمكن إنكار أنها هي النتيجة العملية التي تقود الأعراف إليها . تبقى العلاقات الجنسية التي لا تقود إلى إنجاب الأولاد ، والتي ترافقها بعض

الدراية بلا جزاء ، بينما تعاقب بصرامة كل علاقة صادقة أو كل علاقة تقود إلى إنجاب الأولاد .

تقود كلفة الأولاد داخل الزواج باستمرار إلى تحديد مضطرد للعائلة . ويبلغ هذا التحديد أشده عند أولئك الذين يشعرون بمسؤولية قصوى في تربية أولادهم ويتمنون في أكثريتهم تهيئة ثقافة جيدة لأولادهم . فتكون كلفة الأولاد أشد وطأة عليهم . ولكن على الرغم من أن الدافع الاقتصادي كان لغاية الآن أقوى العوامل في تحديد العائلات ، فإنه يلقى دعماً مستمراً من عامل آخر . يكتسب النساء حرية ، وليس حرية خارجية وشكلية فحسب ، بل أيضاً حرية داخلية تساعدهن على التفكير والشعور بأصالة وليس وفقاً للحكمة السائرة .

ستذهل هذه النتيجة من بعيها من أولئك الناس الذين يفتخرون بالاستهزاء بغرائز النساء الطبيعية . إذا أتيح لعدد كبير من النساء التفكير بحرية في أنفسهن ، لما رغبن في إنجاب أولاد ، أو على الأغلب لما طمحن في إنجاب أكثر من ولد أو ولدين من أجل أن لا تفوتهن تجربة إنجاب الأولاد . تمقت بعض النساء الذكيّات والنشيطات العقول ، عبودية الجسد المرتبطة بإنجاب الأولاد . وتطمح بعض النساء في الحصول على وظيفة لا تترك لهن وقتاً للانشغال بالأطفال . كما يهوى بعض النساء اللذة والطرب ، وتتعشق نساء أخريات الرجال ، فنسوة كهذه قد تؤجل التفكير بإنجاب الأولاد حتى تزول فترة الصبا . يتزايد عدد هذه الفئات من النساء تزايداً مستمراً ، ويمكن القول بكل تأكيد أن تلك الأعداد سوف يزداد تصاعدها في الأجيال الآتية .

من السابق للأوان أن نحكم بثقة على نتائج حرية النساء في الحياة الخاصة وفي حياة الأمة . ولكني اعتقد أن الأوان قد حان لكي ندرك انها

تختلف اختلافاً تاماً عن النتائج التي توقعتها رائدات الحركة النسائية . لقد ابتدع الرجال نظرية قبلها النساء في الماضي تقول بأن النساء هن حماة الجنس البشري وإن حياتهن تدور حول الأمومة وإن كل عواطفهن وغرائزهن الأخرى موجهة بوعي أو بغير وعي ، نحو هذه الغاية . تضرب بطلة تلوستوي ، ناتاشا ، مثلاً عن هذه النظرية . فهي فاتنة وطربة وممتلئة بالشهوات إلى أن تتزوج ، وبعدها تصبح أماً فاضلة بلا أية حياة عقلية . تلقى هذه النتيجة تأييد تولستوي التام . يجب أن نسلم بأن هذه النظرة هي ، من وجهة نظر الأمة ، جديرة بالاحترام الكامل مهما يكن حكمنا عليها بالنسبة للحياة الشخصية . يجب أن نسلّم أيضاً بأنه يحتمل أن تكون شائعة بين النساء الشديدات الحيوية جسدياً والمحدودات الثقافة . ولكنها في بلاد مثل فرنسا وانكلترا آخذة في الزوال . يرتفع عدد النساء اللواتي يجدن أن الأمومة غير كافية وأنها ليست الشيء الذي تطلبة حاجاتهم . ويتزايد التضارب حدّة بين التقدم الشخصي ومستقبل المجتمع . ومن الصعب أن نعرف ما يفترض القيام به من أجل تخفيض حدة هذا التضارب ،ولكني اعتقد أنّ من المجدي أن نبحث فيما قد يحدث إذا لم تخفف حدّته .

إن معدل الولادة في الوقت الحاضر منتقى انتقاءاً فريداً جداً ويرجع ذلك إلى مزيج من التدبير الاقتصادي وحرية النساء المتزايدة .(1) إن عدد

(1) لقد ذكر السيد سيدني واب بعض الحقائق المهمة في رسالتين إلى التايمز Tiimes ، في 11و 16 تشرين الأول سنة 1906 . كما أن هناك دراسة فابية عن هذا الموضوع بقلم السيد سيدني واب نفسه وعنوانها «تساقط في معدل الولادة» (نمرة 131). توجد بعض المعلومات الأخرى في « معدل الولادة المتساقط ـ أهميتها الوطنية والعالمية » بقلم أ. د. نيوزهولم، م. ر. ث . س . . M .R .C .S (كاسال 1911) .

السكـان في فرنسـا ثابت عملياً ، ويتجـه في انكلتـرا بسـرعـة نحـو هـذه الحالة . يدل هذا على أن أجزاءاً من السكان تتناقص بينـما تتزايـد الأجزاء الأخرى ، وإذا لم يحدث تغيير ما ، فستنقرض عملياً الأجـزاء المتناقصـة ، وسيتجدد عدد السكان كلياً تقريباً من الفروع التي تتكاثـر الآن[1] . تضم الأجزاء المتناقصة كل الطبقة الوسطى وأصحاب الحِرَف . أما الأجزاء التي يتزايد عددها فهي الفقراء جداً والكسـالى والسكّيرون وضعفـاء العقول ، خاصة النساء الضعيفات العقول اللواتي هن شديدات الاخصاب . يحدث أيضـاً تزايـد في اعداد السكـان الـذين لا يـزالـون يؤمنـون بتـأثـير الـدين الكاثوليكي كالايرلنـديين والبـريتونيـين ، لأن الدين الكـاثوليكي يعـارض تحديد العـائلة . نجد في الـطبقات المتنـاقصة أن أفضـل العناصر هي التي تتنـاقص بأقصى سـرعة . يـرتقي أولاد الطبقـة العاملة ، الـذين يُظهـرون مقـدرة متميزة ، وذلـك عن طريق المنح الدراسيـة ، إلى طبقـة أصحـاب المهن ويـرغبون في الـزواج في الـطبقـة التي ارتقـوا إليهـا بـالعلم وليس في الطبقة التي ولدوا فيها ، ولكن لما لم يكن لديهم أموال أكثر من معـاشهم ، فهم لا يستـطيعون أن يتـزوجوا في سن مبكـرة أو أن يبنوا عـائلة كبيـرة . تكـون النتيجة انتقـاء أفضل العنـاصر في الطبقـة العاملة في كـل جيـل ثم تعقيمها تعقيماً اصـطناعيـاً ، على أقـل تعديـل بالمقـارنة مـع أفراد طبقتهم السـابقة . لا تميـل الفتيات النشيـطات والذكّيـات في الطبقـات المهنيـة ، عـادة ، إلى الزواج في سن مبكـرة أو إلى إنجاب أكـثر من ولـد أو ولـدين

---

(1) يسمح الارتفاع الحالي في درجة الموت ، خاصة في موت الأطفال ، الذي يحدث في وقت مطابق لتساقط معدل الولادة ، لأن يبقى عدد السكان في بريطانيـا متزايـداً . ولكن هناك حدود ظاهرة لتساقط معدل الموت ، بينما يمكن لمعـدل الولادة أن يسقط بسهولة إلى نقطة تجعل الانخفاض الفعلي للسكان محتماً .

عندما يتزوجن . كان الزواج في ما مضى الوسيلة الوحيدة المباشرة لكسب عيش المرأة ، ولهذا كان يتضافر ضغط الأهل مع الخوف من مصير العانسات على إجبار كثير من النساء للزواج على الرغم من انعدام أي ميل فيهن للقيام بواجبات الزوجة . ولكن تستطيع الآن أية فتاة ذات ذكاء عادي أن تكسب عيشها بسهولة وأن تحصل على الحرية والتجربة من دون أية علاقة دائمة بالزوج والعائلة والأولاد . النتيجة هي أنها إذا تزوجت ، تزوجت في وقت متأخر .

لهذه الأسباب كلها ، لو أُخذت عيّنة من الأولاد في انكلترا ، ودُقّق البحث في أهاليهم ، لوجد أن التبصر والحيوية والذكاء والتنوُّر هي أقل شيوعاً بين أولئك الأهالي من بقية السكان بشكل عام ، ولوجد أن العناد والغباوة والخرافة هي بشكل عام أكثر شيوعاً مما هي عند بقية السكان . سيظهر بأن التبصر والحيوية والذكاء والتنور تفشل عملياً في تسوليد أعداد مماثلة لها ، ويعني هذا بكلام آخر أنها لا تولِّد وسطياً أكثر من ولدين يتخطيان سن الطفولة . ويظهر من الجهة الأخرى أن الصفات المخالفة تنجب في المتوسط أكثر من ولدين ، وهكذا تولد أكثر من أعدادها .

يستحيل تقدير أثر هذه الحالة في مزاج السكان من دون معرفة تزيد على المعرفة الحالية للوراثة . ولكن طالما يتابع الأولاد عيشهم مع أهلهم فسيلعب المثل الأهلي والتربية منذ الصغر دوراً كبيراً في تطوير خلقهم - حتى ولو تركنا الوراثة جانباً . ومهما يكن مفهومنا للعبقرية ، فلا شك بأن الذكاء ، أكان من خلال الوراثة أو من خلال التربية ، يميل للظهور في العائلة ، وإن انحطاط العائلة - حيثما ينبع هذا الذكاء ، سوف يُخفض المعيار الفعلي في السكان . لا شك أبداً بأن إذا بقي نظامنا الاقتصادي ومقاييسنا الاخلاقية على ما هي عليه الآن ، فسيحدث خلال السنين

القادمة تغيير سيء وسريع في مزاج سكان كل الأمم المتحضرة وانخفاض فعلي في الأجزاء الأكثر حضارة .

يُرجَّحُ أن يُعدِّل انخفاض عدد السكان ذاته مع الوقت بحذف تلك الميزات التي تقود الآن إلى معدل ولادة منخفض . سيكسب الناس الذين لا يزالون يستطيعون الاعتقاد بصحة ايمان الكنيسة الكاثوليكية امتيازاً بيولوجياً ، وسينمو بالتدريج جنس لا يتأثر بدواعي العقل ، بل يؤمن بكل صلابة بأن تحديد العائلة يقود إلى نار جهنم . سوف يقل تدريجياً عدد النساء اللواتي يظهرن اهتمامات عقلية ويعطفن على الفن والأدب والسياسة ، ويرغبن في مهن أو يفضلن الحرية ، ويحل مكانهن بشكل متصاعد نوع لا يهتم إلا بالأمومة ولا يعرف شيئاً خارج المنزل ولا يتأفف من عبء الأمومة . هذه النتيجة ، التي طمحت إلى تحقيقها سُدىً أجيالٌ من سيادة الرجل ، قد تكون حصيلة تحرير النساء وجهودهن للدخول في دائرة اوسع من تلك التي حجزتهن فيها غيرة الرجال في الماضي .

ربما لو كان بالإمكان التثبّت من الحقائق لوجد أن شيئاً من هذا القبيل جرى حصوله في الامبرطورية الرومانية . ان انحطاط الذكاء والحيوية خلال القرن الثاني والثالث والرابع للميلاد لا يزال غامضاً إلى درجة ما . ولكن هناك ما يبرر الاعتقاد بأن أفضل العناصر في السكان ، في ذلك الحين ، قد فشلت ، كما تفشل الآن ، في تكثير جنسها ، وأن تكثير النسل قد وقع على عاتق العناصر الأقل حيوية . قد ينقاد البعض إلى الاعتقاد بأن الحضارة ، حين تصل إلى درجة معينة من الارتفاع ، يختل توازنها ، وتأخذ في الانحطاط وذلك لآفة جوهرية ، كفشل زمن الثقافة العالية في تكييف حياة الغريزة إلى حياة عقلية غزيرة . ولكن في

نـظريات غامضة كهـذه هناك دائماً شيء ارتجالي وخـرافي يجعـل قيمتهـا ، كتفسـير علمي أو كدليـل للعقـل ، صفـراً . لا يكتشف الحـل الصحيـح بمعادلة أدبية وإنما بتفكير صحيح مفصل ومعقد .

دعنا نستوضح أولاً ما نريده . ليس هنـالك من أهميـة في تزايـد عدد السكان، إنه على العكس ، لو كان عدد السكـان في أوروبا ثـابتاً لأصبـح تقديم إصلاح اقتصادي وتجنب الحرب اكـثر سهولـة . ما يؤسف عليـه في الوقت. الحاضر ليس انخفـاض معدل الـولادة بحد ذاتـه ، وإنما الحقيقـة الـظاهـرة في ان هـذا الانخفـاض هـو عـلى اشـده في افضـل عنـاصر السكان . ولكن على أية حال ، هناك ما يـدعو لأن نخشى في المستقبـل من ثـلاثة نتـائج سيئـة : أولاً انخفاض تـام في أعـداد الانكليـز والفـرنسيـين والألمان ، ثانياً قد يسهل نتيجة لهذا الانخفاض إخضاعهم إلى أعراق أقـل حضارة منهم ومحو تقاليدهم ، وثالثاً إحياء اعدادهم على صعيد متـدنٍ من الحضـارة بعد أجيـال من الاعتقاد أجـراه أولئك الـذين ليس فيهم ذكاء أو بصيـرة . إذا كنا نريد أن نتجنب وقـوع مثل هـذه النتائـج ، وجب إيقاف الانتقائية المحزنة في معدل الولادة .

تنطبق هذه المسألة على كل الحضارة الغربية . ليس هناك من صعـوبة في اكتشاف حل نظري ، ولكن هناك صعوبة كبيـرة في إقناع النـاس بتبني حل ما ، عملياً ، لأن النتائج التي نخشاهـا هي نتائـج غير مباشرة ، ولم يعتد الناس استعمال عقولهم في موضوع كهذا . لو تمّ تبني حل منطقي ، لكان ذلك ، على الأرجح ، نتيجة لمنافسة عالميـة . ومن الواضـح لو تبنت دولة ما ، ولنقل ألمانيـا ، وسيلة منطقيـة لمعالجـة الأمر ، لاكتسبت امتيـازاً على الـدول الأخرى ـ إلا إذا أسرعت هذه الدول إلى الاقتداء بهـا . يمكن

أن تجذب مسائل السكان ، بعد الحرب ، اهتماماً أكثر من قبل ، وقد تُدرس على الأرجح من وجهة نظر المنافسة العالمية . لربما كان هذا الدافع قوياً كفاية ، بخلاف المنطق والإنسانية ، ليتخطى اعتراضات الناس التي تثار في وجه المعالجة العلمية لمعدل الولادة .

قادت في الماضي غرائز النساء والرجال في أكثر العصور وأكثر المجتمعات إلى معدل ولادة أعلى من اللازم . كانت نظرة مالتوس في مسألة السكان صحيحة تماماً حتى الزمن الذي كُتبت فيه . ولا تزال صحيحة في المجتمعات غير المتمرّنة والنصف ـ راقية وفي العناصر الدنيا من المجتمعات الراقية . ولكنها أصبحت خطأ بالنسبة للنصف الأكثر رقياً من سكان أوروبا وأميركا . إذ لم تعد الغريزة بالنسبة لهم كافية حتى تبقي أعدادهم ثابتة .

يمكننا أن نلخص أسباب هذه الظاهرة وفقاً لأهميتها على الوجه التالي :

(1) إن كلفة الأولاد باهظة عندما يكون الأهل جماعة وعي وإحساس .

(2) يرغب عدد متزايد من النساء إما في عدم إنجاب الأولاد ، أو فقط في إنجاب ولد أو اثنين ، حتى لا تعاق مطاليبهن في الوظيفة .

(3) يبقى عدد كبير من النساء ، بسبب فيض في غرائزهن ، بلا زواج . وهؤلاء النساء ، بالرغم من أنهن غير ممنوعات في الواقع من إنشاء علاقات مع الرجال ، هن ممنوعات بحكم العرف من إنجاب الأولاد . نجد في هذه الطبقة عدداً كبيراً ومتصاعداً من النساء اللواتي يكسبن عيشهن كسكرتيرات أو في محلات بيع أو ما شابه ذلك . لقد فتحت الحرب وظائف متعددة للنساء كانت من قبل مغلقة أمامهن ،

ولكن هذا التغيير على وجه الاحتمال هو وقتي فقط.

تقضي الضرورة الأولى والأكثر الحاحاً بفصل الدوافع الاقتصادية عن تحديد العائلة ، هذا إذا كان المقصود وضع حد لتعقيم أفضل أقسام المجتمع ،فيجب أن تُلقى كلفة الأولاد على عاتق المجتمع كله . ويجب أن يقدم الكساء والطعام والتربية ، ليس فقط إلى المدقعي الفقر كصدقة ، بل إلى طبقات المجتمع كأمر من أمور المصلحة العامة . بالإضافة إلى ذلك ، عندما تترك امرأة عملها ، الذي تتقاضى عنه أجراً ، من أجل الأمومة ، يجب أن تقبض من الدولة اقرب كمية ممكنة مما كانت ستحصل عليه لو لم تنجب أولاداً . الشرط الوحيد المتعلق بمساعدة الدولة للأولاد والأم هو أن كلا من الأهل يجب أن يكون صحيحاً عقلياً وجسدياً في كل ما يمكن أن يؤثر في الأولاد . يجب أن لا يُمنع أولئك الذين هم أصحاء من إنجاب الأولاد ، ولكن من الواجب أن يتابعوا ، كما هي الحال الآن ، تحمل كلفة الأولاد .

يجب أن ندرك بأن القانون لا يشغل ذاته بالزواج إلا من خلال مسألة الأولاد ، ويجب أن لا يبالي بما يسمى « بالأخلاق » إذ أنها مبنية على العادة ونصوص من الكتاب المقدس وليس على أي اعتبار صحيح لحاجات المجتمع . يجب تشجيع النساء المفيضات الحيوية ، اللواتي يتم في الوقت الحاضر عدم تشجيعهن على إنجاب الأولاد ، بكل الوسائل . إذا كان للدولة أن تتحمل عبء كلفة الأولاد ، فلها الحق ، لأسباب تتعلق بتحسين النسل ، في أن تعرف من هو الأب وأن تطلب بعض الثبات في الاتحاد . ولكن ليس هناك من سبب لكي تطلب أو تتوقع ثباتاً على مدى الحياة أو لأن تضع أي أساس للطلاق سوى القبول المشترك . وبهذا يتمكن النساء اللواتي يفضلن أن يبقين بلا زواج أن ينجبن أولاداً إذا

شئن ، كما يمكن وضع حد للهدر غير الضروري والتخلص من قدر كبير من التعاسة غير اللازمة .

ليس هناك ما يدعو إلى البدء بهذا النظام دفعة واحدة . قد يحسن البدء ، على سبيل التجربة ، ببعض أجزاء المجتمع التي تعتبر مُتميزة . بعد ذلك يمكن أن تُمدَّد بالتدريج بناء على خبرة فعاليتها المشتقة من التجربة الأولى . إذا وجد أن معدل الولادة عال جداً ، طُبِّقت شروط من أجل تحسين النسل أكثر صرامة .

تعترض بعض الصعوبات العملية طريق هذا البرنامج مثل مقاومة الكنيسة وحماة الأخلاق التقليدية والخوف من إضعاف المسؤولية الوالدية والكلفة . ولكن يمكن تخطي كل هذه الصعوبات . مع ذلك تبقى مشكلة واحدة يبدو أن تخطيها التام مستحيلاً في انكلترا ، وهي أن هذه النظرة تقف ضد الديمقراطية إذ تعتبر أن بعض الناس أفضل من الآخرين وتتطلب بالتالي أن تهيىء الدولة تربية لأولاد بعض الناس أفضل من تربية أولاد الآخرين يخالف هذا كل أسس السياسة التقدمية في أنكلترا . ولهذا فبالكاد يمكن توقع تبني أية طريقة كهذه لمعالجة مسألة السكان في هذه الدولة تبنياً كاملاً . قد يمكن أن تتبنى ألمانيا شيئاً من هذا القبيل ، ولو فعلت ذلك ، لازدادت سطوتها كما لم يكن بإمكان أي انتصار عسكري أن يحققه . أما عندنا فلا يمكننا أن نأمل إلا بتبنيها بشكل جزئي ومتقطع ، وربما لا يتم ذلك إلا بعد تغيير في نظام مجتمعنا الاقتصادي يتخلص من كل اللامساواة الاصطناعية التي تطالب الأحزاب التقدمية بالتخلي عنها .

كنا نعتبر حتى الآن مسألة تكثير النسل عوضاً عن تأثير العلاقات الجنسية في توطيد أو تضعضع نمو الناس . ما نحتاج إليه من وجهة نظر

الجنس البشري هو إلغاء كلي لأعباء الأولاد الاقتصادية عن كاهل كل الأهالي الذين يتمتعون بصحة جسدية وعقلية ملائمة ، وازدياد في الحرية القانونية بمقدار يتوافق مع المعرفة العامة عن الأبوة . وعندما تعتبر المسألة من وجهة نظر الرجال والنساء المشار إليهم ، سنجد إننا نحتاج أيضاً إلى التغييرات عينها .

يحصل بالنسبة للزواج ، كما في كل رباط تقليدي آخر بين الناس ، تغيير كبير حتمي كلياً وضروري كلياً في مرحلة تطور حياة جديدة ، ولكنه ليس كافياً إلا حينها يصبح كاملاً . كانت كل الرباطات التقليدية مبنية على السلطة ، سلطة الملك ، الباشا الاقطاعي ، الكاهن ، الأب ، والزوج . كل هذه الرباطات ، لمجرد أنها مبنية على السلطة ، هي في طريقها إلى الزوال ، أو إن زوالها قد تم . أما بناء رباطات أخرى تحل محلها لم ينته بعد . ولهذا السبب تدنّت العلاقات الانسانية في الوقت الحاضر بشكل غريب ، وهي الآن أقل قدرة من العلاقات السابقة ولا تستطيع تحطيم جدران « الأنا » القاسية .

لقد توقف الزواج المثالي في الماضي على سلطة الزوج التي كانت تسلم الزوجة بها كحق من حقوقه . وكان الزوج حراً ، أما الزوجة فأَمَةٌ اختيارية . كانت تُعتَبرُ كلمةُ الرجل ، في كل الأمور التي تهم الرجل والمرأة معاً ، بحكم الواقع ، نهائية . كما كان ينتظر من المرأة أن تكون مخلصة ، بينما لم يكن ينتظر من الرجل باستثناء بعض المجتمعات الدينية ، إلا أن يُسدِل حجاباً محتشماً على خياناته . لم يكن ممكناً للعائلات أن تُحَدَّ إلا بكبح الذات عن الشهوة الجنسية ، ولكن لم يكن للمرأة حق في كبح نفسها عن الشهوة الجنسية مهما تألمت من جراء تكرار حمل الأولاد .

طالما بقي حق الرجل في السيادة مقبولاً بلا جدل من النساء والرجال معاً ، فقد يكون مرضياً للغاية ، وقد يشبع غرائز كل منهما بشكل قلما يحدث بين الناس المثقفين الآن . عندما توجد إرادة واحدة ، إرادة الرجل الحاسمة ، لا يعود هناك أي داع للتكيفات الصعبة المطلوبة التي تحصل عندما تأخذ إرادتان متساويتان قرارات مشتركة . لم تكن تعامل رغبات المرأةبجدية كافية تمكنها من تغيير حاجات الرجل ، وإذا لم تكن الزوجة نفسها أنانية فوق العادة ، فإنها لا تحاول إحراز أي نمو ذاتي ، أو أنها تنظر إلى الزواج كمناسبة للخدمة . وطالما أنها لم تطلب أو تتوقع كثيراً من السعادة ، لم يكن تألمها كبيراً إن لم تحصل على السعادة ، كما هي الحال عند النساء الآن ، فتألمها لم يحو أي عنصر من السخط أو المفاجأة ولم يتحوّل إلى حقد وشعور بالإحراج .

لقد احتلت المرأة الفاضلة المضحية بذاتها ، التي مدحها أسلافنا ، مركزها في معتقد عضوي محدد عن المجتمع ، معتقد التسلسل النظامي للسلطات التي سادت العصور الوسطى . إنها تنتمي إلى نفس الترتيب الفكري الذي ينتمي إليه كل من الخادم الأمين ، والمولى المستكين ، والابن التابع لكنيسته باستقامة . ولكن هذا الترتيب الفكري كله قد اندثر في العالم المتحضر ، ونأمل أن يكون اندثر إلى غير رجعة ، على الرغم من أن المجتمع الذي قدمها كان ممتلئاً بالحيوية ، وفي بعض الأحيان كان نبيلاً . لقد سببت هدم هذا النظام القديم رؤية جديدة للعدالة والحرية ، بدأت أولاً في الدين ثم تخطته إلى السياسة ووصلت أخيراً إلى العلاقات الخاصة كالزوج والعائلة . فحالما يُطرح السؤال « لماذا يجب أن تخضع المرأة للرجل؟» وحالما تبطل الأجوبة المشتقة من الكتب المقدسة والتقاليد أن تُقْنِع ، فلن تبقى أية إمكانية للقبول بالخضوع القديم . إن أي إنسان

يقدر على التفكير من وجهة نظر لا شخصية وحرة ، سيجد بوضوح ، عندما يطرح هذا السؤال على نفسه ، أن حقوق المرأة هي تماماً حقوق الرجل نفسها . مهما يمكن أن ينتج من أخطار أو صعوبات أو فوضى موقّتة من جراء الانتقال إلى المساواة ، فإن دواعي العقل هي ملحة وصريحة لدرجة لا تستطيع أية مقاومة لها أن تأمل بأن يدوم نجاحها طويلاً .

تجعل الحرية المتبادلة المطلوبة الآن شكل الزواج الماضي مستحيلاً . ولكن لم يتطور بعد الشكل الجديد الذي يكون أداة جيدة للغريزة ومعيناً جيداً للنمو الروحي . يعرف النساء اللواتي ، يشعرن بأن الحرية هي شيء من الضروري اقتناؤه في الوقت الحاضر ، إن الحفاظ على الحرية صعب أيضاً . إن الرغبة في السيطرة هي أحد مقومات الشهوات الجنسية عند أكثر الرجال ، وخاصة أولئك الذين تكون فيهم قوية وجدية . إنها تحيا أيضاً في كثير من الرجال الذين يقدمون نظريات مخالفة للطغيان والسيطرة . تكون النتيجة صراعاً من أجل الحرية عند جهة واحدة ومن أجل الحياة عند الجهة الأخرى . يشعر النساء بأن المحافظة على فرديتهن ضرورية ، بينما يشعر الرجال ، عن جهل غالباً ، بأن الضغط المطلوب على الغريزة لا يتوافق مع الحيوية والابداع . يجعل اصطدام هاتين الحالتين النفسيّتين المتضاربتين كل اختلاط حقيقي بين الشخصيتين مستحيلاً ، فيبقى الرجل والمرأة وحدتين منفصلتين وصارمتين يتساءل كل منهما باستمرار عما اذا كان من قيمة في بقائهما في هذا الاتحاد . تصبح بالنتيجة هذه العلاقة تافهة وموقتة ، لذة بدلاً من ان تكون اشباعاً لحاجة اساسية ، تهيّجاً وليس إنجازاً . تبقى الوحدة المطلقة ، التي نولد فيها ، غير ملموسة ، كما يبقى التعطش للمصاحبة الداخلية غيرَ مرتوٍ .

ليس من حل رخيص وسهل يمكن لهذه المشكلة . إنها تؤثر أكثر ما

تؤثر في أكثر النساء والرجال رقياً ، وتنتج عن الشعور المتزايد بالفردية الذي ينشأ حتمياً من التقدم العقلي . أنا أشك في وجود أي علاج تام إلا في شكل ديني يؤمن به الناس بصدق وحماس لدرجة يطغى بها على حياة الغريزة . ليس الفرد نهاية وجوده وغايته . خارج الفرد ، هناك المجتمع ومستقبل البشرية ومتسع المسكونة حيث آمالنا ومخاوفنا ليست إلا مجرد رأس إبرة . يمكن أن يكون الرجل والمرأة ، اللذان يحترمان روح الحياة في كل منهما ويخفف فيهما شعور متساو بعدم أهميتهما في مقابل حياة الإنسان كلها ، رفيقين دون انقطاع في حريتهما ، كما يمكنهما أن يحققا اتحاداً غريزياً دون إنزال أي شدة في حياة العقل والروح . لقد ساد الدين على الشكل القديم في الزواج ، وهذا يجب أن يسود على الشكل الجديد ، ولكن يجب أن يكون ديناً مبنياً على الحرية والعدالة والحب ، وليس على السلطة والقانون ونار جهنم .

إن أحد التأثيرات السيئة على العلاقات بين الرجال والنساء قد سببتها الحركة الرومانطيقية بتحويلها الانتباه إلى ما يجب أن يكون خيراً عارضاً وليس إلى الغاية التي تنشأ من أجلها العلاقات . إن الحب هو ما يسبغ على الزواج قيمة أساسية . والحب هو كالفن والفكر ، أحد الأشياء السامية التي تجعل حياة الإنسان جديرة بأن يحافظ عليها . وعلى الرغم من أن ليس هناك زواج جيد من دون الحب ، فلأفضل الزيجات غاية تذهب أبعد من الحب . أن حب شخصين لبعضهما البعض ضيق كثيراً ومنفصل عن المجتمع ، ولذا لا يصلح لأن يكون بمفرده الغاية الرئيسية في حياة فاضلة . إنه غير كاف بذاته لأن يكون مصدراً لكل النشاطات إذ ليس هو مستقبلياً كغاية حتى يجعل الاكتفاء المطلق بالحياة ممكناً . إنه يجلب لحظات فظيعة تعقبها أوقات أقل جمالاً ، ولأنها أقل جمالاً تصبح بالتالي أقل كفاء .

يصبح الحب ، عاجلاً أم آجلاً ، ماضوياً ، مَدْفناً للملذات الماضية ، وليس منبعاً لحياة جديدة ، لا ينفصل هذا الشر عن أية غاية لا تُحقَّق إلا بانفجار شعوري قوي . إن المقاصد الصحيحة وحدها هي التي تتوغل في المستقبل ولا يمكن تحقيقها كلية ، ولكنها مع هذا تبقى نامية باستمرار والى ما لا نهاية كجهاد الإنسان الذي لا يعرف النهاية . ولا يستطيع الحب أن يحقق الجدِّية والعمق المتأصلين فيه إلا عندما يتصل بغاية لانهائية كهذه .

يمكن أن تتحقق الجدّية في العلاقات الجنسية عند الأكثرية الساحقة من الناس من خلال الأولاد غالباً . والأولاد هم بالنسبة لأكثر الناس حاجة بدلاً من أن يكونوا رغبة . لا تتجه الغريزة ، عادة إلا في الحالات الواعية إلى ما كان يقود سابقاً لإنجاب الأولاد . تميل الرغبة في إنجاب الأولاد إلى الظهور في منتصف العمر ، أي عندما تكون المغامرة قد ولت من حياة الفرد ، وعندما تبدو مصاحبات أيام الصبا اقل أهمية مما كانت قبلاً ، وعندما تبدأ فكرة الوحدة المقبلة على منتهى العمر تُرعب ويصبح الشعور بعدم المشاركة في المستقبل مزعجاً جداً . فأولئك الذين لم يظهروا أي اعتقاد إبان شبابهم بأن إنجاب الأولاد قد يشبع حاجاتهم ، يبدأون بالتأسف على تهاونهم بالمعتاد من الشؤون ويحسدون معارفهم الذين كانوا يحسبونهم من قبل غير فطنين . ولكن يستحيل على الشبان خاصة أفضلهم لأسباب اقتصادية أن ينجبوا أولاداً من دون التضحية بأشياء هي في منتهى الأهمية لحياتهم الشخصية . وهكذا يمر الشباب تاركاً آثار الحاجة تظهر بعد فوات الأوان .

لقد ازداد نمو حاجات أخرى لا تقابلها أية رغبات مماثلة مثلما كانت الحياة تتطور من ذلك الوجود البدائي حينما ولدت غرائزنا التي لا تزال توجه أنظارها نحو ذلك الوجود عوضاً عن أن تتكيف مع الزمن الحاضر .

في النهاية قد تسبب حاجة غير مكتفية كثيراً من الألم ومن تشويه الخلق كما لو رافقتنا رغبة واعية . ولهذا يجب علينا ، رحمة بالجنس البشري ، أن نتخلص من الدوافع الاقتصادية التي تكمن وراء التمنّع عن إنجاب الأولاد . ليس هناك من ضرورة مهما كانت لندفع إلى الأبوة من لا يشعر بأي ميل إليها ، ولكن هنالك ضرورة للتوقف عن وضع عراقيل في طريق من لا يُظهر رغبة مناقضة للأبوة .

أنا لا أقصد أن أقترح ، عندما أتحدث عن أهمية الحفاظ على الجدية في العلاقات بين الرجال والنساء ، أن العلاقات غير الجدية هي مضرة . قد أخطأتْ الأخلاق التقليدية حينما شددت على ما لا يجب حصوله بدلاً من التشديد على ما يجب حصوله . المهم في الأمر هو أن يجد الرجال والنساء ، عاجلاً أم آجلاً ، أفضل علاقة تتناسب مع طبائعهم ، ليس من الممكن دائماً أن يعرف الإنسان مسبقاً ما هو الأفضل ، أو أن يتأكد بأنه لن يفقد ذلك الشيء الفاضل عندما يرفض تصديق شيء قابل للشك . يطلب الرجل في الشعوب البدائية أنثى كما تطلب المرأة ذكراً ، وليس هناك فرق كبير بين ما يجعل الواحد أكثر ملائمة من الآخر . ولكن مع تزايد تركيب الميول التي تبرزها الحياة المتمدنة ، تزداد صعوبة إيجاد الإنسان الذي يجلب السعادة كما تصبح صعوبة الامتناع عن الإقرار بارتكاب غلطة في انتقاء ذلك الإنسان شبه مستحيلة .

إن قانون الزواج الحالي موروث من العصور البدائية وتدعمه بشكل رئيسي مخاوف غير منطقية وازدراء بكل ما هو دقيق وصعب في حياة العقل . ويُحكم ، بناءً على هذا القانون ، على أعداد كبيرة من الرجال والنساء ، فيما يخص علاقاتهم المباشرة ، بمعاشرة رفاق لا يتقاربون معهم في الميول والمشارب ابداً ، مع كل ما في هذا من شعور مؤلم بأن التخلص

من هـذا الحكم عملياً مستحيـل . يبتغي المرء في ظـروف كهـذه إنشـاء علاقات أكثر سعادة ، ولكن يتحتم عليها أن تبقى سرية بلا حياة مشتركـة وبلا أولاد . وبصرف النظر عن شر التخفي ، فهناك مآخذ حتمية كثيرة . إنها تميل إلى التشديد على الجنس بلا داع وتصبح مثيرة ومشوشة ، وبالكاد يمكنهـا أن تجلب أي اكتفـاء حقيق للغـريـزة . إن امتـزاج الحب والأولاد والحياة المشتركة هو ما يكوّن أفضل العلاقـات بين الـرجل والمرأة . يحصر القـانون في الـوقت الحاضر الأولاد والحيـاة المشتركـة ضمن حدود الـزواج الأحدي Monogamy ولكنه لا يستطيع حصر الحب أيضاً . وحينما يُرغم القـانون الكثيـرين على فصـل الحب عن الأولاد والحياة المشتـركة ، يعسر القـانـون حيـاتهم ، ويمنعهم عن الـوصـول إلى المـدى الكـامـل الـذي يستطيعون تحقيقه ، ويسبب في من لا يجد لذة في العلاقات الجانبيـة آلاماً لا لزوم لها .

لنلخّصْ : تميـل الحالـة الحاضـرة في القانـون والرأي العـام ونـظامنـا الاقتصـادي إلى خفض قيمة الجنس البشـري بجعل النصف المتخلف من السكان أصلاً لأكثر من نصف الجيل القادم . وفي الوقت ذاته تجعـل مطالبـة النسـاء بالحـرية الشكـل القديم للزواج عقبـة أمام تـطور الرجـال والنسـاء معاً . إننا نحتاج إلى نظام جديد فيما إذا أردنا منع تدهـور الأمم الأوروبية وإذا أردنا أن تؤدي علاقات الرجال والنساء إلى السعادة والحرية العضويـة اللتين ميزتا الزيجـات في الماضي . يجب أن يبنى هـذا النظام الجـديد عـلى الاعتقاد بأن إنجاب الأولاد هو خدمة للمجتمع وليس من المفروض به أن يعرض الأهل إلى عقوبات مادية قاسية . ويفتـرض أن يسلم بأن ليس من واجب القـانون ولا الـرأي العام بـأنْ يتدخـلا في العلاقـات الخاصـة بين الـرجال والنساء ، إلا إذا كان هنـاك أولاد . يجب أن تزيـل الدوافـع التي

تؤدي إلى إنشـاء علاقـات متخفية ومحـرومـة من الأولاد . يفتـرض بـه أن يعترف بالرغم من أن زواجاً واحداً مدى الحياة ، حينها يكون ناجحاً ، هو أفضل شيء ، بأن تزايد تعقيد حاجاتنا قد جعل مثل هذا الزواج فشلاً لا بد منه ولا علاج له في أكثر الأحيان إلا بالطلاق ، إن الحرية هنـا ، كما في كل المجالات الأخرى ، هي أفضل قـاعدة للحكمـة السياسيـة . وبعدمـا تكتسب الحرية ، يجب أن تلقي ما نتمنّى حصولـه على عـاتق الضمائـر في الرجال والنساء وعلى دياناتهم الشخصية .

الفصل السابع

الدين والكنيسة

إن كل التغييرات تقريباً التي شهدها العالم منذ نهاية القرون الوسطى هي نتيجة اكتشاف وانتشار معرفة جديدة . إنها كانت المحرّك الرئيسي لحركة النهضة وحركة الإصلاح والثورة الصناعية في أوروبا . وكانت أيضاً بشكل مباشر تماماً ، سبب انحلال التشبث العقائدي بالدين . لقد ساهم درس النصوص الكلاسيكية وتاريخ الكنيسة الأولى ، أسطرونوميا كوبرنيكس وعلم الفيزياء ، بيولوجيا داروين والأنثروبولوجيا المقارنة ، كل بدورها في تقويض جزء من بناء العقيدة الكاثوليكية حتى بدا لكل إنسان واع ومثقف تقريباً أن أكثر ما هو جدير بأن يدافَع عنه في الدين إنما هو روح داخلية ، أمل غامض وإحساس غير واضح تماماً بواجب أخلاقي . لقد كان من الممكن أن تبقى هذه النتيجة وقفاً على الأقلية المثقفة لو لم تقاوم الكنيسة في كل مكان التقدم السياسي بذات المرارة التي قاومت فيها التقدم في التفكير . لقد رمت السياسة المحافِظَة الكنيسة في صدام مع كل ما هو حيوي في الطبقات العاملة ناشرةً بذلك الفكر الحرفي في دوائر متعددة كانت قد بقيت لولاها راتعة في جهلها إلى الأبد . إن انحلال الدين المتشبث بعقائده (الدوغماتيكي) ، أكان ذلك خيراً أم شراً ، هو أكثر الحقائق أهمية في العالم المعاصر . بالكاد بدأت تظهر نتائجها ، ويستحيل علينا أن نعرفها ، ولكن من المؤكد انها ستكون عميقة وبعيدة المدى .

الـدين هـو شخصي الى حـد مـا واجتمـاعي الى حـد آخـر . فهـو للبـروتستـانتـين شخصي بشكـل رئيسي ، وللكـاثـوليـك هـو مبـدئيـاً اجتمـاعي . لكن لا يصبح الـدين قـوة هـائلة إلا عنـدمـا يمتـزج هـذان العنصـران امتـزاجـاً وثيقـاً يحـدّد طـابـع المجتمـع . لقـد مثلت الكنيسـة الكاثوليكية ، كما عاشت منذ زمن قسطنطين حتى زمن النهضـة، مزيجـاً كان بدا بعيداً عن العقل لو لم يكن قد تحقق بالفعل . لقد مزجَتْ بين المسيح وقيصر ، بـين أخلاق الخضـوع المتواضـع وتكبّر زومـا الامبريـالية . فمن أحـب الـواحـد وجـده في التيبـاد Thebaid ومن أحَب الآخـر وجـده في المطرانيات الفخمة . يعكس هذان التياران نفسيهما في الكنيسـة من خلال القديس فرنسيس والبابا اينونسان الثـالث . ولكـن اصبحـت الديانة الشخصية منذ حركة الاصلاح خـارج الكنيسة الكـاثوليكيـة ، بينما اصبحت الكنيسة التي بقيت على كاثوليكيتها بشكل متـزايد مـوضوعـاً من المؤسسـات واللعبات السيـاسية والاستمـرار التاريخي . لقـد اضعف هـذا الانقسام قوة الدين ؛ اذ لم تَعصِف بالجماعات المتدينة حماسة وغيرة الرجال الـذين قوت فيهم الـديانـة الشخصية ، كـما ان هؤلاء الرجـال بدورهم لم يجدوا تعاليمهم تنصهر في المجتمع او تثبتها سلطة المؤسسات الاكليريكية .

لقد شيدت الكنيسة الكاثوليكية ، خلال القرون الـوسطى-، أفضـل المجتمعات العضوية وأفضل تـوحيد داخـلي منسجم بين الغـريزة والعقـل والروح عرفها العالم الغربي على الإطـلاق . يمثل القـديس فرنسيس وتـوما الاكـويني ودانتي ذروتها بـالنسبة للتقـدم الشخصي . وتمثل الكـاتدرائيـات والمسالك الرهبانية وانتصار البابويـة على الامبـراطوريـة نجاحهـا السياسي المطلق . ولكن الكمال الذي تحقق كان كمالاً ضيّق المجال إذ أن كـلا من الغريزة والعقل والروح عانى كثيراً من البتر والتقطيع حتى يتم تناسبهـا مع

الخط العام . لقد وجد العلمانيون أنفسهم خاضعين للكنيسة بطرق استهجنوها . كما استخدمت الكنيسة سلطتها للنهب والقسوة . كان التوحيد Synthesis الكامل عدواً للنمو الجديد ، وبعد دانتي اضطر كل ما كان حيّاً في العالم لأن يحارب قبل كل شيء من أجل حقه في الحياة ضد ممثلي النظام القديم . لم تنته بعد هذه المعركة حتى الآن . وعندما تنتهي انتهاءاً كاملاً في عالم السياسة الخارجي وفي عالم أفكار الناس الداخلي ، سيصبح بناء مجتمع عضوي جديد ووحدة داخلية جديدة ممكنَيْن ، ويحتلان المكانَ الذي احتلّته الكنيسةُ ما يقارب ألف سنة .

تعاني المهنة الاكليريكية من مصيبتين ، تشترك بعض المهن الأخرى في واحدة منها ، بينما الأخرى وقف عليها وحدها . الشيء الذي يختص بها وحدها هو التقليد القائل بأن رجال الاكليروس هم أكثر فضيلة من بقية الناس . سيؤدي اختيار أية عينة عادية من البشرية ، تُفْرَزُ وتُخْبَرُ بأنها تفوق الآخرين فضيلة ، إلى انحطاط تلك المجموعة إلى ما تحت العادي . هذه هي حكمة قديمة مستنتجة من تصرف الأمراء وممن كان يسمى « بالكبار » وليست هي باقل صحة فيما يتعلق بتصرف رجال الاكليروس الذين ليسوا بطبيعتهم هم أفضل من الناس العاديين ، كما يحب التقليدُ أن يصوّرهم . والمصدر الآخر الذي يضر بالمهنة الاكليريكية هي الأوقاف . تميل الأملاك التي لا يحوز عليها إلا أولئك الذين يدعمون مؤسسة كبيرة ، إلى إفساد أحكامهم فيما يخص فضيلة تلك المؤسسة . يزداد هذا الميل سوءاً حينما تتعلق الملكية بالاعتبار الاجتماعي والمناسبات التي تقود إلى سيادات صغيرة . وتبلغ أشدها عندما تكون المؤسسة مرتبطة بحكم القانون بعقائد قديمة يستحيل تقريباً تغييرها ـ وهي بالرغم من هذا بعيدة عن الاحتكاك بالفكر المتحرر في الوقت الحاضر . تتحد كل هذه العوامل لتعطل قوة

الكنيسة الأخلاقية .

ليست المشكلة في أن عقائد الكنيسة هي على خطأ ، إن مصدر البلبلة هو في وجود العقيدة ذاته . ففي اللحظة التي يصبح فيها المدخول والمركز والقوة وقفاً على قبول عقيدة من العقائد ، يتعرض الإخلاص الفكري للخطر ، سيُقنع الناس أنفسهم بأن الخير الذي يمكن أن يجنوه ، يبرر الموافقة الشكلية . ولكنهم لا يدركون أن فقدان الإخلاص الفكري التام ممن تجري في حياته الفكرية ذرة من الحيوية ، يضع حداً نهائياً للقدرة على فعل الخير إذ يعطل القدرة على رؤية الحقيقة ببساطة تعطيلاً تدريجياً ومن كل النواحي . لقد أدّى التشديد في التنظيم الحزبي إلى نفس الشرور في السياسة ، ورغم أن هذه الشرور جديدة هنا إلى حد ما ، فيراها الكثيرون ويفضحونها ، مع أنهم لا يحسبونها بذات أهمية في الكنيسة . ولكن هذه المعايب هي أعظم بالنسبة للكنيسة لأن الدين هو أكثر أهمية من السياسة ولأنه من الضروري أن يكون ممثلو الديانة متحررين من أية وصمة .

يبدو أن الشرور التي ذكرناها غير منفصلة عن وجود المهنة الكهنوتية . فإذا كان للدين أن لا يؤذى في عالم سريع التغيير ، فيجب أن يقوم بأعبائه ، كما هي الحال في جمعية الأخوان ، Society of friends ، رجال يستلمون وظائف أخرى خلال الأسبوع ويقومون بأعمالهم الدينية بداع من الغيرة ودون أي مقابل . بما أن هؤلاء الرجال يختبرون كيف يعيش العالم كل يوم ، فلن يتجلببوا ، على الأرجح ، بأخلاقية بعيدة غير قابلة للتطبيق في الحياة العادية . وبما أنهم أحرار ، سيصلون إلى نتائج تقرر مسبقاً ، وسيكون بإمكانهم درس المسائل الأخلاقية والدينية درساً صحيحاً بعيداً عن الهوى . باستثناء مجتمع جامد تماماً ، لا يمكن للحياة الدينية أن

تكـــون دعـامــة حيـة أو حقيقيــة للروح إلا إذا تخلّصت من عبء المهنـة الكهنوتية .

لهذه الأسباب يندر بصورة رئيسية أن يأتي في هذه الأيام ما هو قيّم في الأخلاق والدين من الرجال الـذين يتسامـون في عالم الـدين . صحيح أن بين المؤمنين الآن كثيراً ممن هم مخلصون في إيمانهم ومقتنعون بالإيحاء الذي قـدمته المسيحيـة قبلها أضعفهـا تقـدم المعـرفـة . إن قيمـة هؤلاء المؤمنـين المخلصين كبيرة في نظر العالم لأنهم يحفـظون الاعتقاد بـأن حياة الـروح في النـاس هي شيء بمنتهى الأهميـة . فلقـد وجـد بعضهـم شجـاعـة للتبشـير بالسلام والمحبة باسم المسيح وبذلوا كل مـا في طاقتهم ليقتلعـوا المرارة من البغض . إنهم يستحقون كل مديح ولولاهم لكان العالم أسوأ مما هو عليـه الآن .

ولكن حتى من خـلال أكثر المؤمنـين في الديـانـة التقليدية إخـلاصـاً وشجاعة ، لا تتولد في العالم روح جديدة . لا يمكنهم أن يحملوا الدين إلى النـاس الذين فقـدوا الإيمان ، وذلـك لأن عقول هؤلاء النـاس (نشيطة) فعـالة ، وليس لأن أنفسهم ميتة . ينظر المؤمنـون بالـديانـة التقليـديـة ، إلى المـاضي بحكم الضرورة من أجـل الاستنارة عـوضاً عن المستقبـل . إنهم يفتشون عن الحكمـة في أقـوال المسيح التي تبقى ، عـلى الـرغم من أنها جديرة بالإعجاب ، غير وافية لكثير من القضايا الاجتماعيـة والروحيـة في العالم المعاصر . تتجاهل الأناجيل الفن والعقل وكل مشاكل الحكومة . إن اولئـك الذين يحـاولون بكـل رزانة ، مثـل تولـوستـوي ، أن يتخـذوا من الأنـاجيل مـرشداً لحيـاتهم ، يجدون أنفسهم مـرغمين عـلى اعتبار الفـلاّح الجاهل كأفضل مصير للإنسـان ، وعلى صـرف المسائـل السياسيـة صرفـاً فوضوياً ، متطرفاً وغير عملي .

إذا كان لنظرة دينية في الحياة والعالم أن تستعيد السيطرة على أفكار ومشاعر الناس المتحرري العقول ، فمن الواجب علينا أن نتخلى عن كثير مما اعتدنا الحاقه بالدين . التغيير الأهم المطلوب أولاً هو وضع أخلاق الإبداع موضع أخلاق الخضوع ، أخلاق الأمل مكان أخلاق الخوف ، أخلاق الأشياء التي يتوجب علينا القيام بها وليس الأشياء التي يجب الامتناع عنها . ليس كل واجب الإنسان هو أن ينزلق عبر الحياة كي يتخلص من غضب الله . إن العالم هو عالمنا نحن ، ويتوقف علينا بناء جنته أو جحيمه . إن القدرة هي قدرتنا ، والملكوت والمجد قد يصبحان ملكنا إذا كان عندنا الشجاعة والتبصر في خلقهما . لن تكون الحياة الدينية التي نرجوها عبارة عن احتفالات موسمية وتحريمات خرافية ، لن تكون حزينة وتقشفية ، وسوف لن تهتم بقواعد التصرف إلا قليلاً . سوف توحيها رؤية لما يمكن أن تصير إليه الحياة الإنسانية . سيسرها فرح الاكتشاف لأنها تحيا في عالم حر فسيح من الإبداع والأمل . ستحب الإنسانية ليس من أجل ما تظهر عليه للعين الخارجية ، ولكن لما يظهره الخيال من إمكانيات مصيرها . سوف لا تنتقد باستمرار، ولكنها سوف تمدح الإنجازات الإيجابية عوضاً عن الابتعاد السلبي عن الخطيئة، السرور بالحياة والانعطاف المتحمس ، والتبصر المبدع ، التي يبقى العالم بسببها فنياً و جميلاً ومشعاً بالحيوية .

« الدين » كلمة متعددة المعاني وذو تاريخ طويل . في الأساس كانت تدل على بعض الشعائر التي وُرثت عن ماض سحيق ، شعائر حملت معنى ما نُسيَ على تعاقب الزمن ، ولكنها أخذت تتبنى في كل عصر أساطير مختلفة لكي تكشف عن الأهمية المفترضة في تلك الشعائر . ولا تزال تحمل كثيراً من هذا المعنى إلى الآن . فالرجل المتديّن هو من يذهب إلى

الكنيسة ، من يتناول ، أو كما تقول الكنيسة الكاثوليكية من « يمارس » . لا تحمل الأسئلة عن تصرف هذا الإنسان بالنواحي الأخرى أو عما يشعر نحو الحياة ومكانة الإنسان في العالم أي تأثير على السؤال فيما إذا كان « متديناً » بذلك المعنى البسيط لكن ، تاريخياً ، صحيح . كثير من الناس هم متدينون بهذا المعنى من دون أن يكون في طبائعهم أي شيء يستحق أن يدعى دينياً بالمعنى الذي أرمي إليه من استعمالي هذه الكلمة . إن تعوّدهم على الفة صلوات الكنيسة قد طغى عليهم ، فهم يجهلون كل تاريخ التجربة الإنسانية التي أغنت خدمة الليتورجية ، ولا تحرك فيهم كلمات الإنجيل التي تُتلى عليهم أية مشاعر على الرغم من أنها تقدح تقريباً في كل نشاطات أولئك الذين يلقبون أنفسهم تلاميذ للمسيح . سيصيب هذا المصير كل الشعائر المبنية على العادة إذ يستحيل عليها أن تؤدي إلى نتائج كبيرة بعدما تكررت لدرجة آلية .

يمكن اشتقاق كل نشاطات الناس من ثلاثة مصادر ، ليست هي في الحقيقة منفصلة عن بعضها ولكنها متميزة كفاية ، تسمى بإعطائها أسماء مختلفة . هذه المصادر الثلاثة التي أقصد ، هي الغريزة والعقل والروح ، ومن بينها حياة الروح التي تكوِّن الدين .

تضم حياة الغريزة كل ما يشترك به الإنسان مع الحيوانات الدنيا ، كل ما يختص بحفظ النفس والنسل والرغائب والميول المشتقة منها . إنها تضم الغرور وحب الاقتناء ، حب العائلة وحتى كثيراً مما يكوّن حب الوطن . إنها تشمل كل الدوافع التي تهتم أساساً بنجاح الفرد البيولوجي ونجاح جماعته لأن حياة الغريزة في الحيوانات الاجتماعية تشمل حياة الجماعة . ولكن قد لا تؤدي هذه الدوافع إلى النجاح وبالحقيقة قد تحكم غالباً ضده ، ولكن على الرغم من هذا فإن النجاح هو سبب وجودها

(Raison d'être) إذ هي تعبر عن الطبيعة الحيوانية في الإنسان ومكانته في عالم متزاحم .

إن حياة العقل هي حياة تعقب المعرفة من مجرد الفضول الطفولي حتى أكبر الجهود الفكرية . يخدم الفضول في الحيوانات غاية بيولوجية ظاهرة ، ولكنه لا يتخطى البحث عن الأشياء المنفردة التي قد تكون صالحة للأكل أو مؤذية ، صديقة أو عدوة ، إلا في الإنسان . الفضول هو الدافع الأولي الذي يُبنى عليه صرح المعرفة العلمية . ولكن قد وجدت المعرفة نافعة جداً لدرجة (جعلت اقتناءها الفعلي غير مدفوع من الفضول) أبطلت أن يكون اقتناؤها الفعلي مدفوعاً من الفضول إذ تساهم الآن دوافع أخرى لا تحصى في تشييد الحياة العقلية . وعلى الرغم من هذا ، لا يزال حب المعرفة المباشر وكره الفشل يلعبان دوراً كبيراً وخاصة لدى أولئك الذين هم أكثر نجاحاً في العلم . لا يحاول أحد اكتساب كثير من المعرفة لو لم يكن هذا الاكتساب بحد ذاته ملذاً ، بصرف النظر عن أي تصور لاستعمال المعرفة . إن الدافع لاكتساب المعرفة والنشاطات التي تتركز فيها هو ما يشكل حياة العقل التي أقصدها . إن حياة العقل تتألف من الفكر الذي هو كلياً وجزئياً لا شخصي ، بمعنى أنه يهتم بالموجودات من أجل ذاتها وليس لمجرد منافعها بالنسبة لحياتنا الغريزية .

تدور حياة الروح حول الشعور اللاشخصي مثلما تدور حياة العقل حول الفكر اللاشخصي . كل فن هو بهذا المعنى خاصة حياة الروح ، مع أن عظمته تشتق أيضاً من كونه مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بحياة الغريزة . يبدأ الفن بالغريزة ومن ثم يرتفع إلى آفاق الروح ، يبدأ الدين من الروح ويحاول أن يهذّب حياة الغريزة . يستحيل علينا أن نعطي لفرح الآخرين وحزنهم ذات القيمة التي نشعر بها في مرحنا وحزننا . كما يستحيل علينا أن

نحب وأن نكره بمعزل عن كل علاقة بنا ، أو أن نوجّه اهتمامنا إلى مصير الإنسانية وتطور العالم من دون شعورنا بالأثر الذي سيلحق بنا شخصياً . الاحترام والعبادة ، الشعور بالواجب نحو البشرية ، الإحساس بالإلزامية ، والتصرف وفقاً لأوامر فسّرتها الديانة التقليدية كوحي إلهي ، كلها تنتمي إلى حياة الروح . وفي غور أعمق من هذه الأشياء كلها يرقد الإحساس بسر نصف معلن عن حكمة ومجد مستورين ، عن رؤية مُحوِّلة تفقد الأشياء العادية فيها قيمتها الراسخة وتصبح حجاباً رقيقاً تظهر من خلاله حقيقة العالم المطلقة خافتة . هذه هي الأحاسيس التي هي مصدر الدين ، وإذا أريد لها الموت ، فأكثر ما هو فاضل في الحياة يزول .

الغريزة والعقل والروح هي كلها أساسية لحياة كاملة إذ أن لكلٍّ منها سموه وفساده . يستطيع كل منها أن يبلغ سمواً غير شرعي على حساب الآخرين ويميل كل منها إلى التعدي على الآخرين . ولكن في الحياة المطلوبة سيتطور الثلاثة معاً بتعاون ، وينصهرون انصهاراً حياً في كلٍّ واحدٍ متناسق . تكون الغريزة في الناس غير المتحضرين مطلقة ، وبالكاد نجد فيهم أثراً لنمو العقل والروح . يتطور عادة العقل ، بين الجماعات المثقفة في الوقت الحاضر ، على حساب الغريزة والروح معاً مولِّداً لا إنسانية ولا حياتية عجيبتين ، عوزاً في الرغائب الشخصية واللاشخصية معاً ، شكاً هازئاً (Cynicism) وانتحاراً فكرياً . لقد تطورت بين المتقشفين Ascetics وأكثر أولئك الذين يسمون قديسين حياة الروح على حساب الغريزة والعقل مكونة نظرة يستحيل تكوينها على من كان فيه حياة حيوانية سليمة وحب للفكر الفعال . لا نجد في تطورات كهذه موجّهة إلى جانب واحد من الحياة ، حكمة أو فلسفة تعطي حياة جديدة للعالم المتحضر .

فإذا نوحد الغريزة والعقل والروح [illegible] ونجد المعالم [illegible]

المعاصر . قليل هم الذين أصابوا فلسفة عملية تعطي لكل منها ، عـادة ، المكان الذي تستحقه . فالغريزة هي في حـرب مع العقـل والروح ، بينما يتحارب العقل والروح . يدفع هذا النـزاع الكثيرين الى تـوجيه كثير من طـاقاتهم داخليـاً بدلاً من أن يكـون بمقدورهم صـرفها كلهـا في نشاطـات موضوعية . عندما يحقق الإنسان سلاماً داخليـاً متضعضعاً ، نتيجـة انهزام جـزء من طبيعته ، تضعف قـوته الحيـوية ، ويبـطل أن يكون نمـوه سليـماً بالكلية . إذا أراد الناس أن يبقوا كـلا كامـلاً ، فمن الضروري أن يجـروا مصالحة بين الغريزة والعقل والروح .

الغريزة هي مصدر الحيوية والربـاط الذي يشـد حياة الفـرد إلى حياة الجنس البشـري وأسـاس لكـل إحسـاس عميق بـالاتحـاد مـع الآخـرين والوسيلة التي تغذي فيها الحياة الاجتماعية حياة وحداتها المنفصلة . ولكن تتركنا الغريزة لوحدها عاجزين عن السيطرة على قوى الطبيعة ، أكانت في داخلنا أم في البيئة الطبيعية ، أسـرى الدافـع غير المفكـر ذاته الـذي ينمو النبـات بـه . يستـطيـع العقـل أن يحـررنـا من هـذا الأسْر بقـوة الفكـر الـلاشخصي ، الذي يسـاعدنـا على إصـدار حكم نقـدي عـلى المقـاصـد البيولوجية المحض التي تجري الغريزة نحوها بشكل أعمى تقريبـاً . ولكن العقـل في معالجتـه للغريـزة ، انتقادي محض إذ يجعـل الغريـزة مـوضـوع اهتمامه ، وإذا لم يوضع حد لأعمال العقل فقد تصبح هدامة وتولـد شكاً هازئاً هداماً (Cynical) الروح هي نقيض الشك العقلي الهازىء والهدام ، فهي تعمم المشاعر التي تنبع من الغريزة وترفعها بهذا التعميم فـوق متناول النقـد العقلي . وعنـدما تضـاف الروح إلى الفكـر ، يفقـد الفكـر ميـزتـه الاتلافية القـاسية ويتـوقف عن السعي وراء قتل الغـريزة التي يجـردها من الإلحاح والصرامـة ويحررهـا من جدران سجن الـظرف العَرَضي . تُعـطي

الغريزة القوة ويعطى العقل وسائل توجيه هذه القوة نحو غايات مرغوب فيها ، وتوحي الروح باستعمالات غير شخصية للقوة التي لا يستطيع العقل أن يحط من قيمتها بمجرد النقد . ليس هذا إلا مجرّد تصميم للأدوار التي يمكن أن تلعبها الغريزة والعقل والروح في حياة منسجمة .

تساند الغريزةُ والعقل والروح بعضَها البعض عندما يكون نموها حراً وصحيحاً ، ولكن عندما يدخل الفساد على اي منها ، فلا يتأثر ذلك الجزء المعني وحده ، بل يتأثر الجزءان الآخران معاً . واذا كان ليصل نموها الى درجة كماله في اي انسان ، فمن المفروض الا يعيش ذلك الانسان منفرداً بل ان يكون عضواً في مجتمع يحرص على نمو الفرد ويرعى سلامته .

ان حياة الغريزة،حين تكون متحررة من تأثير العقل او الروح،هي مجرد دورات غرائزية تبدأ بدافع نحو افعال تتراوح في التحديد ثم تنتقل الى إشباع الحاجات من خلال نتائج الافعال الميلية التي اندفعت اليها . لا يتوجه الدافع والرغبة نحو الدورة كلها بل نحو بدايتها فقط ، وتُترَك البقية لاسباب طبيعية . نحن نرغب في الأكل ولكن لا نرغب في التغذية الا اذا كنا شديدي التفكير بامر صحتنا . ولكن يصبح الاكل من دون التغذية مجرد لذة عابرة ، وليس جزءاً من الدافع الشامل للحياة . يرغب الناس في المضاجعة الجنسية ولكنهم عادة لا يرغبون الاولاد بشدة او بشكل مستمر . ومن دون التأمل بالأولاد وتحقيق هذا الأمل في بعض المناسبات ، تبقى المضاجعة الجنسية عند اكثر الناس مجرد لذة منعزلة ومنفصلة لا تُوحِّد حياتهم الخاصة مع حياة المجموعة البشرية ، غير مستمرة مع المقاصد المركزية التي يحيون بها ، غير قادرة على تحقيق ذلك الشعور العميق بالاكتفاء الذي يأتي من خلال الاكتمال بالأولاد . يشعر اكثر الناس ، الا اذا كان ميلهم الجنسي قد ذاب لعدم الاستعمال ، برغبةٍ في خلق شيء

ما ، كبيراً أم صغيراً ، وفقاً لطاقاتهم . يقدر بعض الناس على اشباع هذه الرغبة اذ يستطيع بعض السعداء منهم خلق امبراطورية او علم او شعر او لوحة فنية . ان العلماء هم اسعد الناس الاذكياء في العالم الحديث طالما ان نشاطهم الابداعي يهيء إكتفاءاً تاماً للعقل والروح والغريزة والخلق ! تلوح فيهم بداية الطريق الجديدة التي تقود الى الحياة التي ننشد ، وربما يمكننا ان نجد في سعادتهم وميض السعادة التي ستشرق على البشرية في المستقبل(1). تُكسَر فيما تبقى من الناس ، ما عدا بعض الاستثناءات ، كل الميول الابداعية . فهم لا يستطيعون بناء دارهم الخاصة او ترتيب بستانهم الخاص او توجيه عملهم لانتاج ما يدفعهم اليه اختيارهم الحر . وهكذا تُلجَم غريزة الابداع المفترض فيها ان تقود الى حياة العقل والروح وتُرمَى جانباً ، ولكنها غالباً ما تجد في حب الدمار المنفذ الوحيد الذي يبقى مفتوحاً امام النشاط الفعال . فمن هزيمتها يولد الحسد ومن الحسد ينمو الميل الى قتل الروح الابداعية في الناس الاكثر سعادة . هذا هو احد اكبر مصادر الفساد في حياة الغريزة .

ان حياة الغريزة مهمة جداً ، وليس من اجل ذاتها فقط او بسبب نفع الأعمال المباشرة التي تُلهِمها ، بل ايضاً لأن حياة الفرد تصبح ، اذا لم تجد اكتفاءاً ، منعزلة ومنفصلة عن الحياة العامة في الناس . يتوقف كل شعور عميق حقاً في الوحدة مع الآخرين على غريزة التعاون او التوافق في قصد غريزي . يظهر هذا بوضوح اكثر في علاقات الرجال والنساء والأهل والأولاد . ويصبح ايضاً في علاقات اشمل في حشود كبيرة يُهيِّجها شعور مشترك وفي امم باكملها حينما تكون في وقت عصيب . انها جزء مما يجعل

(1) كان يفترض بي ان افكر الشغالين لو لم يكن في الواقع ان اكثر الشغالين المصريين [illegible] .

الدين ذا قيمة كمؤسسة اجتماعية . يبدو الناس الذين تغيب هذه الغريـزة عن انفسهم مترفعين وذوي تكبر . وينقلب الناس الذين تُكبَت فيهم الغريزة عن قصد ، الى منابع للعداوة الغريزية . يمكن ان تُستَر العداوة والتكبر الغريزيّان بالمحبة الدينية التي تملك قدرة على شمول الناس بصرف النظر عن علاقتهم بنا . ولكن لا تستطيع المحبة الدينية ردمَ الهوة التي تفصل بين انسان وآخر . انها تستطيع ان ترسل نظرها عبر الهوة وتنظر الى الآخرين بعين الرأفة والرحمة اللا شخصيّين ، ولكنها تعجز عن ان تحيا نفس الحياة التي يحياها الآخرون . الغريزة وحدها هي التي تستطيع تخطي هذه الهوة ، ولكن *فقط عندما تكون مثمرة وعاقلة ومباشرة . يتحتم من اجل الوصول الى هذه الغاية ان تكون الدورات الغريزية كاملة وغير متقطعة في منتصف طريقها . تجري في الوقت الحاضر مقاطعتها باستمرار من خلال مقاصد تتضارب معها من ناحية اولى ، اما لأسباب اقتصادية او غير ذلك ، ومن ناحية اخرى بالسعي وراء اللذة التي تنتقي افضل اجزاء الدورة وتتجنب الباقي . وهكذا تُفرّغ الغريزة من اهميتها وجديتها وتصبح عاجزة عن انتاج اي نشوة حقيقية اذ تزداد متطلباتها تطرفاً وتبطل ان تكون الحياة كلّاً ذا حركة واحدة ، بل تصبح سلسلة من اللحظات المنفصلة ، بعضها مفعم باللذة وأما اكثرها فممتلىء بالغَمّ وثبوط العزيمة .

ان حياة العقل ، على الرغم من انها متسامية ، لا تستطيع بحد ذاتها ارجاع العافية الى حياة الغريزة الا اذا نجحت في ايجاد مخرج سهل لغريزة الخلق . تبقى عادة في الحالات الأخرى مبتعدة كثيراً عن الغريزة ومترفعة ومفتقرة جداً الى النمو الداخلي لدرجة انها لا تستطيع ان تخدم كوسيلة لحمل الغريزة ، او كأداة لجعل الغريزة مرهفة وناعمة . الفكر هو في جوهره لا شخصي ومستقل ، بينما الغريزة هي في جوهرها شخصية

ومتعلقة بالظروف الخاصة ، وبين الاثنين ، ان لم يبلغا درجة راقية ، حرب لا تهدأ بسهولة . هذه هي الزَّعامَةُ الاساسية للنظرات الحيوية والمستقبلية والبراغماتيكية وباقي الفلسفات المختلفة التي تُروِّج عن نفسها بانها تقف بجانب الحيوية والقوة . تمثل كلها محاولة لايجاد ذلك النوع من الفكر الذي يظهر عداوة للغريزة . ان هذه المحاولة بحد ذاتها جديرة بالمديح ، ولكن الحل الذي تطرحه هو مبسَّط لدرجة سخيفة . ما تقترحُ علينا إنْ هو الا اخضاعُ الفكر للغريزة ، رفض السماح للفكر بتحقيق غايته . ولكن ليس الفكر ، الذي لا يتسامى على ما هو شخصي ، بفكر بالمعنى الصحيح . انه مجرد استعمال ، نوعاً ما ، ذكي للغريزة . ما يرفع الانسان الى درجة اسمى من الحيوان هما العقل والروح . وبالتخلي عنهما تَفقد التسامي الخاص بالانسان ولا نستطيع اكتساب سُموّ الحيوان . يجب ان يحقق الفكر نموّه كاملاً قبل الشروع بانشاء مصالحة بينه وبين الغريزة .

عندما يوجد الفكر السامي جنباً الى جنب مع الغريزة غير السامية ، كما هي الحال عند كثير من الناس المثقفين ، تكون النتيجة إنكاراً كلياً لمساهمة الغريزة في انجاز أي شيء هام . ويُهمل بعض هؤلاء الناس الغريزة وفقاً لاهوائهم إهمالاً لا يبلغ التقشف ، بينما يقبل آخرون وجودها كضرورة تاركينها منبوذة ومنفصلة عن كل ما هو مهم في حياتهم . تمنع كل من هاتين الطريقتين الغريزة من المحافظة على حيوتها أو من تكوين رباط مع الآخرين ، وتولّد شعوراً بالانعزال الجسدي ووهدة تتكلم من خلالها عقول الآخرين ونفوسهم بينما تبقى غرائزهم صامتة . كانت غريزة الوطنية بالنسبة لاناس كثيرين ، أولى الغرائز التي تمكّنت من ردم تلك الهوة عندما نشبت الحرب ، وجعلتهم يشعرون شعوراً حقيقياً بالاتحاد العميق مع الآخرين . ولما كانت هذه الغريزة جديدة وغير مألوفة على شكلها المكثف ، فقد بقيت غير منفسدة بتدخل الفكر ولا مشلولة أو مفرغة

الحيوية بالشك والترفع البارد . هذا الاحساس بالاتحاد الذي ولّدته الغريزة في زمن الحرب ، يمكن ان تولّده الحياة الغريزية كلها في الأزمان الاكثر اعتيادية ، هذا اذا لم يكن الفكر والروح معاديين لها . وطالما ان هذه الرغبة في الاتحاد غائبة ، فلا يمكن ان تعيش الروح والغريزة بسلام ، ولا يمكن لحياة المجتمع ان تكون حيوية او ان تأتي بذوراً جديدة للنمو .

ان حياة العقل ، طالما تبقى بعيدة عن تأثير حياة الروح ، تميل ، لكونها مترفعة ، الى فصل الانسان داخلياً عن بقية الناس . لهذا يمكن ان يُفسِد العقلُ ، حينما يتجرد عن الروح ، الغريزة او على الاقل يُضعِفها ، ولا يستطيع من ذاته اضافة تسام على الحياة الغريزية . وعلى هذا الاساس يعادي بعضُ الناس الفكر . ولكن لا يُكسَب شيء من محاولة منع نمو الفكر ـ الذي له الحاحه الخاص ، واذا ما احيل بينه وبين الاتجاهات التي يميل اليها طبيعياً ، فسينقلب الى اتجاهات اخرى اكثر ضرراً . العقل بحد ذاته هو مماثل لله . فاذا نشبت مشادة يستعصى حلها بين العقل والغريزة ، يجب ان ينتصر العقل . ولكن المشادة ليست بمستعصية على الحل . وكل ما هو ضروري هو ان تُمطِّر حياةُ الروح ارجاءَ كل من العقل والغريزة .

حتى تمتلىء حياة الانسان حيوية يجب ان تكون الميول الغريزية قوية ومباشرة ، ولكن كي تمتلىء حياة الانسان خيراً ، يجب ان تسيطر على هذه الدوافع وتوجّهها رغائبُ اقل شخصية واقل مساواة واقل سرعة لان تقود الى الخصام من تلك التي توحيها الغريزة وحدها . ما نحتاج اليه هو شيء لا شخصي كلي ينبع من اساس النمو في كل فرد . وهذا هو بالذات ما تمدُّنا به حياة الروح .

تعطي الوطنية مثلاً عن نوع السيطرة التي نحتاج اليها . تتألف الوطنية من عدة مشاعر وميول غريزية ، كحب المنزل وحب اولئك الذين

تتشابه عاداتهم ونظرتهم الى الحياة بعاداتنا ونظرتنا ، ومن الميل الى التعاون بين افراد الجماعة ، والاحساس بالفخر بمنجزات جماعتنا . ان كل هذه الدوافع الى الرغائب في كل شيء يخص حياة الغريزة ، هي شخصية ، بمعنى ان المشاعر والافعال التي توحيها نحو الآخرين تحدّدها علاقة هؤلاء الآخرين بنا نحن وليس بما هم عليه في ذاتهم . تتّحد كل هذه الميول والرغائب لتكوِّن حب الانسان لوطنه ، الحب الذي يجري عميقاً في كيانه ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بقوّته الحيوية اكثر من اي حب آخر لا تمتد جذوره الى الغريزة . ولكن اذا لم تدخل الروح لتجعل حب الوطن عاماً ، لأصبح ، بدعم من الحب الغريزي ، مصدراً لكره الأوطان الأخرى . ما تؤدي اليه الروح هو انها تجعلنا نتحقق من أنَّ الأوطان الأخرى هي ايضاً جديرة بالمحبة ، وان الدفء الحيوي الذي يجعلنا نحب وطننا يكشف لنا بانها هي الأخرى تستأهل حبنا ، وان الفقر في طبائعنا هو وحده الذي يمنعنا عن حب كل الأوطان الأخرى كما نحب وطننا . يمكننا من هذه الناحية ان نمدد حبنا الغريزي بالخيال . كما يمكننا ان ننمي شعوراً بقيمة كل البشرية اكثر حيوية وغزارة من اي شعور آخر ينمو فيمن يكون حبهم الغريزي هزيلاً . يُظهر العقل لنا ان حبنا المطلق لوطننا هو شيء لا عقلي ، ولهذا يستطيع إضعاف الشعور الوطني ، ولكنه لا يستطيع تقوية حب كل البشرية . الروح وحدها تقدر على ذلك بتمديد الحب المتولد من الغريزة وتعميمه . وبفعل كهذا تنفي كل ما هو مُلحّ أو قاس او شخصي تعسفي في حياة الغريزة .

ان التمديد الروحي نفسه ضروري لكل محبة غريزية إن لم يهزلها الفكر أو يتلفها . يمكن ان يكون حب الزوج والزوجة شيئاً عظيماً جداً ، وعندما يكون الرجال والنساء بدائيين للغاية ، فهم لا يحتاجون لشيء آخر

بالاضافة للغريزة والحظ السعيد حتى يبلغوا بعض الكمال المحدود . ولكن حالما يبدأ الفكر في التأكيد على حقه في نقد الغريزة ، تصبح البساطة القديمة مستحيلة . ان حب الزوج والزوجة ضيق وشخصي للغاية أو لا يقوى ، اذا ما بقي على الحالة التي اوجدته عليها الغريزة المقيدة ، على الوقوف في وجه لذعات الهجاء ان لم تُقْنِه حياة الروح . ان النظرة الرومانطيقية الى الزواج ، التي آمن بها آباؤنا وامهاتنا ، سوف تتهاوى بعدما يطوف خيالنا في شارع من الأحياء السكنية يزدان بالفيلات ويبيت في كل فيلة زوج ما ، وكل زوج قد هنأ نفسه حينما كان يخطو عتبة بيته بان كليهما يمكنهما ان يعيشا بسلام في هذا المكان دون ازعاج من الاخرين ودون احتكاك بالعالم الخارجي . ان الابتعاد والغطرسة والالقاب الناعمة التي تُسبغ على الجبانة والغرور الخائف ، الراقدة خلف الجدران الاربعة في آلاف مؤلفة في الفيلات الصغيرة ، تقدم نفسها بكل برودة وقساوة الى اولئك الذين يطغى الفكر فيهم على حساب الروح .

ليس هناك ما هو خير في حياة الانسان سوى ذلك الخير الذي يمكن لطبقته ان تنجزه . ولكن مثلما يتقدم الناس في الحياة تبطل اشياء كثيرة ، اعتبرت في السابق جيدة ، ان تبقى جيدة وذلك لان اشياء افضل منها قد اصبحت ممكنة . هكذا هي الحال في حياة الغريزة ، فاولئك الذين اصبحت حياتهم العقلية قوية الآن ، قد يبدو لهم ان كثيراً مما كانوا يعتبرونه ذا قيمة حقيقية في الوقت الذي كانت فيه عقولهم اقل تقدماً ، هو تافه لان نظرتهم الى العالم قد اكتسبت درجة كبيرة من الدّقة. يشعر الرجل الغريزي الواقع في الحب بان عاطفته فريدة ، وان سيدة قلبه تحوز من الجمال ما لم تملكه اية أمرأة اخرى على الاطلاق . ولكن الرجل الذي اكتسب قدرة على التفكير

اللا شخصي ، يعلم عندما يحب انه هو واحد من عشرات الملايين من الرجال الذين يتقدون حُبَّاً في هذه اللحظة ، وان ليس اكثر من واحد في كل هذه الملايين ، يمكنه ان يكون على حق في الاعتقاد بان حبه هو الافضل ، ولهذا لا يُحتمَل ان يكون هو ذلك الشخص عينه . انه يشعر بان ظاهرة الحب في اولئك الذين لم تتأثر غريزتهم بالفكر او الروح هي وَهْمٌ تخدم غايات الطبيعة وتجعل الانسان عبداً لحياة النوع الانساني ، لا سيِّداً يختار غايات لا شخصية تبدو له حسنة . يرفض الفكر هذه العبودية ، لان الفكر لا يتخلى او يتنازل عن حقه في البحث عن صحة أية غاية يمكن ان تقود اليها الطبيعة .« من الافضل ان يزول العالم على ان أصدق او ان يصدق اي أنسان آخر كذبةً »هذه هي ديانة الفكر عند اولئك الذين تُحرقُ نارُهم المتأججة أقذارَ العالم . انها ديانة صحيحة ويجب ان يمضي عملها التخريبي الى النهاية . ولكن ليست هي كل ما يحتاج اليه الانسان . يجب ان يخرج نمو جديد بعد الخراب ، ولا يمكن ان ينبت هذا النمو الجديد الا من خلال الروح .

تُظهر الوطنية والحب بين الرجل والمرأة عندما يكونان غريزيين فقط نفس المعايب كاقتصارهما على اشخاص معينين ، الجدران المحيطة بهما ، قلة اهتمامهما او عداوتهما للعالم الخارجي . هذا هو ما يقود الفكر الى الهجاء والناس الى تأليف كوميديات عما كانوا يعتبرونه اقدس المشاعر . للهجاء والكوميديا ما يبررهما ، ولكن ليس هناك ما يبرر موت الغريزة الذي يمكن أن يقودا اليه فيما لو بقيا في مكان السيادة . انهما مبرران ليس كآخر كلمة للحكمة ، ولكن كباب ضيق يعبر منه الناس الى حياة جديدة تكون فيها لغريزة نقية وتغذيها رغائب البصيرة والروح العميقة .

يَنظر الانسان الذي يأتلق حب الروح في داخله الى حب الرجل والمرأة في

ذاته وفي الاخرين نظرة تختلف تماماً عن نظرة الرجل الذي يسيطر العقل فيه سيطرة كلية . انه يرى في لحظات تبصره ان في كل الناس شيئاً يستحق المحبة ، شيئاً غريباً ، شيئاً سحرياً ، صرخة في ليل، رحلة متهادية في الظلام ونصراً ممكناً . عندما تقع غريزته في الحب ، يرحب بمعونتها في رؤية قيمة الانسان الذي يحب وضرورة احترامه . تصبح الغريزة سنداً للبصيرة الروحية . ما تُسْبغه الغريزة على الانسان ، يُبقي عليه التبصُر الروحي مهما تكن معرفة العقل كبيرة بصغر الانسان وحدوده وبالجدران المطبقة على الانسان لتمنع نفاذ إشعاع الروح اليه . ما تُبرزه الغريزة في موضوع غرامه ، تؤلهه روحه في كل الناس .

يحتاج حب الأهل لأولادهم الى نفس التحويلات . اذ أن الحب الغريزي يبقى من دون رباط الفكر ونور الروح مترفعاً قاسياً وغير عادل . لا يجني الآخرون اي نفع من الأهل الذين يحيون فقط على غريزتهم ، حتى يستأهل الواحد منا ان يسبب ضرراً لاولاده. يضع الشرف والاخلاق التقليدية بعض الحدود العملية المهمة على انانية الأهل المضحية في سبيل الغير لان المجتمع الراقي يطلب حداً أدنى قبلها يباشر بتقديم الاحترام . ولكن ضمن هذه الحدود التي يسمح بها الرأي العام ، تسعى العواطف العائلية ، عندما تكون غريزية ، الى كسب منافع لاولادهم من دون اي اعتبار للآخرين . يقدر العقل على اضعاف الميل الى الظلم واخفاض قوة الحب الغريزي ، ولكن لا يقدر ان يحفظ قوة الحب الغريزية كلها او يحولها الى غايات عامة . اما الروح فتقدر على ذلك . انها تستطيع ترك حب الاولاد الغريزي غير منقوص وتمد تفاني الأهل المخلص بالخيال حتى يشمل العالم كله . والحب العائلي ذاته سوف يحرّك الأهل الذين تعتمل فيهم حياة الروح لينفخوا في اولادهم شعوراً بالعدالة واستعداداً للخدمة ،

واحساساً بالاحترام ، وارادة في توجيه البحث نحو الذات . وسيشعر الأهل بان هذه الاشياء هي اكثر خيراً من اي نجاح شخصي .

لقد عانت حياة الروح كثيراً في الماضي بتعلقها بالديانة التقليدية وبمعاداتها الظاهرة لحياة العقل ، وبتظاهرها في تركيز كل اهتمامها على نكران الذات . ان حياة الروح تتطلب استعداداً لنكران الذات عندما تدعو الحاجة الى ذلك ، ولكنها في جوهرها ايجابية وقادرة على اغناء الوجود الفردي كأي من العقل والغريزة . انها تجلب معها الابتهاج بالرؤيا وبالاسرار والعمق في العالم وبالتأمل في معنى الحياة ، وفوق كل هذا الفرح بالحب الكلي . انها تحرر من سجن الشهوات الشخصية الملحّة ومن الاهتمامات الدنيوية . انها تعطي الحرية والاتساع والجمال لأفكار الناس ومشاعرهم ولعلاقاتهم مع الآخرين . انها توفّر الحل للشكوك وتضع نهاية للشعور بان كل شيء باطل . إنها تُرجِع التوازن الذي كان بين العقل والغريزة وتعيد الأجزاء المنفصلة الى مكانها السابق في حياة البشرية . لا يمكن اعادة السعادة والسلام لمن دخل دائرة العقل الا من خلال الروح فقط .

الفصـل الثامـن

ماذا نستطيع ان نعمل ؟

ماذا نستطيع ان نعمل ، بينما نحن على قيد الحياة ، من اجل العالم ؟ يتمنى كثير من الناس ان يقدموا خدمة للبشرية ولكنهم يجدون انفسهم في حيرة اذ تبدو قوتهم بلا اثر . يدركهم اليأس ويصيب العجزُ من تكون امنيتُهم اشدَّ ويمكن لانعدام الأمل ان يحطمهم اليأس روحياً .

ولطالما نفكر بالمستقبل المباشر فقط ، فان ما نستطيع القيام به يبدو قليلاً جداً . من المحتمل انه يستحيل علينا وضع نهاية للحرب . لا نستطيع هدم السلطان الزائد للدولة او الملكية . لا نستطيع ، هنا والآن ، خلق حياة جيدة في التربية . لا نقدر في كل هذه الأمور ، مع ان بامكاننا ان نرى الشر ، ان نجد علاجاً سريعاً له بأي من الطرق العادية في السياسية . يجب ان نعترف بأن العالم تسوسه روح غير صحيحة ، وان تحولاً في الروح لَنْ ياتي بلمحة بصر . يجب ان لا تكون توقعاتنا من اجل القريب بل من اجل الزمن الذي يصبح فيه فكرُ القلة ، فكرَ الكثيرين العادي . اذا كان عندنا الشجاعة والصبر ، كان بامكاننا ان نفتكر بهذه الافكار ونعيش الآمال التي ستشع عاجلاً ام آجلاً بين الناس وسنحول التعب ووهن العزيمة الى طاقة وحماسة . لهذا السبب ، يجب اولاً ان نجتهد في محاولتنا نزرع الحياة التي نعتقد بأنها صالحة ونزرع [illegible] في العالم .

ان سلطان مَنْ افكارهم حيوية هو أكبر بكثير مما يظهر للناس الذين يعانون من لا تعقل السياسة المعاصرة . كان التسامح الديني في الزمان الماضي تأمّل الوحدة عند قليل من الفلاسفة المقدامين .. ظهرت الديموقراطية ، كنظرية ، في جماعة صغيرة من جيش كرومويل Cromwell، وبعد اعادة الملَكية ، حملوها الى اميركا حيث انتجت حرب الاستقلال . من اميركا نقل لافييت والافرنسيون الآخرون الذين حاربوا الى جانب واشنطن نظرية الديموقراطية الى فرنسا حيث اتحدت بتعاليم روسو لتوحي بالثورة . الاشتراكية ، مهما يكن تفكيرنا بميزاتها ، هي قوة كبيرة ومتنامية وفي سبيلها الى تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية ؛ والاشتراكية كذلك تدين بنشأتها الى عدد صغير من النظريين المنعزلين . ان حركة تحرير المرأة التي اصبحت الآن لا تقاوم ، وهي الآن غير بعيدة عن النصر قد بدأت بنفس الطريقة بعدد قليل من المثاليين المثاليّات غير العمليّين مثل ماري والستونكرافت Mary Wollstonecraft وشلي Shelley وجان ستوارت ميل John Stuart Mill ان قوة الفكر، في المدى البعيد، هي اكبر من اية قوة انسانية . قد ينجح غالباً من يتمتع بالمقدرة والخيال على التفكير وفقاً لحاجات الناس في تحقيق الخير الذي يطمح اليه ، عاجلاً أم آجلاً ، بالرغم من أن احتمال تحقيقه بعد مماته كبير جداً .

ولكن اولئك الذين يتمنون كسب العالم بالفكر يجب ان يقنعوا بخسارته كدعامة في الوقت الحاضر . يصرف كثير من الناس حياتهم دون كثير من التساؤل ، مسلّمين بالمعتقدات والتقاليد التي يجدونها في التيار حاسبين بان العالم سيكون حليفهم اذا لم يسمحوا لانفسهم بمخالفته . لا يتناسب التفكير الجديد عن العالم مع هذا التسليم المريح ، وانما يتطلب بعض الترفع الفكري ، بعض الطاقة الانعزالية ، وقوة مستمرة من

السيطرة على العالم الداخلي مع النظرة التي مولـدها ذلـك العالم . من دون بعض الرضى بالعـزلة لا يتحقق فكـر جديـد . ولكن لا يتحقق اي هدف اذا رافق العزلة شعور بقتل الـرغبة في الاتحـاد مع الآخـرين ، او يقود الى ازدرائهم . وبالضبط لان الحالة الفكرية المطلوبة هي دقيقة وصعبة ، ولان من الصعب على المرء ان يكون مترفعاً فكرياً وغيرَ متكبّرٍ في الوقت ذاتـه ، فاننا نجد التفكير المثمر في الشؤون الانسانية غير شائع ، وان اكثر النظريين هم إمـا مقلدون او عقيمـون . ان النـوع المـطلوب من التفكـير هـو نـادر وصعب ، ولكنه ليس عقيماً . لا يقدر الخوف من العقم ان يـدفعنا بعيـداً عن الفكر لو رغبنا في خلق أمل جديد في العالم .

ليس ما نحتاجـه في التفتيش عن نظريـة سياسيـة تكون نـافعة في ايـة لحـظة ، هو ابـداع مدينـة فاضلة (Utopia) وانمـا اكتشاف اتجـاه افضل للحركة . قد لا يكون الاتجاه الصحيح في وقت ما كثير الاختـلاف شكلياً عـما هو منـاسب في وقت آخر . مـا يدل عـلى الاتجاه الصحيـح في الوقت الحـاضر هو الفكـر . ولكن في الحكم على مـا هو الاتجـاه هناك اسـاسـان عاميان يمكن تطبيقهما دائماً .

(1) يجب تسهيل النمو والحيوية في الافراد والمجتمعات بقدر المستطاع .
(2) يجب ان نتحاشى بقدر المستطاع ان يكون نمو الفرد الـواحد والمجتمـع الواحد على حساب الآخرين .

ان الاساس الثاني ، حينما يطبقه انسان ما في معاملته مع الآخـرين ، هو اساس الاحتـرام ، اي ان لحياة انسـان آخر ذات الأهميـة التي نعطيهـا لانفسنـا . وحينما يـطبق بصـورة لا شخصيـة في السيـاسـة يكـون اسـاسَ الحرية ، او بالأحرى يضم اساس الحرية كجزء منه . الحرية بحد ذاتها هي اساس سلبي ، انها تطلب منا ان لا نتدخـل في شؤون الآخرين ولكنهـا لا

تعطينا اية قاعدة للبناء . انها تظهر بان العديد من المؤسسات السياسية والاجتماعية هي سيئة ويجب هدمها ، ولكنها لا تبين لنا ما يجب ان نضع مكانها . لهذا السبب تحتاج نظريتنا السياسية الى أساس اضافي حتى لا تكون هدميّة مجرّدة .

ليس امتزاج هذين الاساسين في الواقع شيئاً سهلاً . يجري كثير من الطاقات الحيوية في العالم في قنوات متعسفة . لقد اظهر الألمان انفسهم ممتلئين بالطاقة الحيوية بشكل عجيب ، ولكن لسوء الحظ بشكل غير متناسب مع حيوية جيرانهم . في اوروبا على العموم طاقة حيوية اكثر من افريقيا ، ولكن اوروبا استعملت هذه الطاقة حتى تستنفد الحياة في افريقيا بما فيها حياة الزنوج . تُستنفد حيوية جنوب شرق اوروبا الآن كي يقوم ابناؤها بالعمل رخيصاً في ورشة اصحاب الملايين الاميريكيين ، كانت في الماضي حيوية الرجال عقبة في وجه تقدم النساء ، ومن الممكن ان تصبح في المستقبل غير البعيد حيوية النساء حاجزاً امام تقدم الرجال . يظهر لكل من هذه الأسباب ان اساس الاحترام ، على الرغم من انه غير كاف بذاته ، ذو اهمية كبيرة وقادر على الإشارة الى تغييرات سياسية كثيرة يحتاج العالم اليها .

ما يطلب لاكفاء كلا الاساسين هو انصهار اولاً في حياتنا الفردية وحياة المجتمع والعالم دون تضحية بالفردية . يفترض ان لا تكون حياة الفرد ، وحياة المجتمع ، وحتى حياة البشرية كلها ، قطعات مبعثرة ، وإنما كلاً ينمو معاً . عندما يتحقق هذا الانصهار ، يقوى نمو الفرد ولا يعود في تناقض مع نمو الافراد الآخرين . وهكذا ، يتم جمع هذين الاساسين

ما يجعل حياة الفرد كلاً يتعهد بعضها البعض الآخر هو وجود هدف خلاق مستقيم او اتجاه غير واع . لا تكفي الغريزة وحدها لاضفاء وحدة على حياة الانسان الراقي . يجب ان يكون هناك موضوع سائد ، طموح ، رغبة في الابداع العلمي او الفني ، اساس ديني ، او مشاعر قوية وثابتة ، وحدة في الحياة يصعب تحقيقها في من أصاب فشلاً أودى بالميل الذي يجب ان يسود . تُنزِل اكثرُ المهن هذا النوعَ من الفشل بالانسان منذ أيامه الأولى ، وربّما اذا اصبح إنسان ما صحافيّاً، وجد نفسه مرغماً على التحرير في جريدة لا تعجبه سياستها ، فيُقتَل إباؤه بالعمل وشعوره بالاستقلال . يجد اكثر رجال الطب صعوبة في النجاح من دون الخداع الذي يأتي على نهاية الضمير الذي يكون قد بقي بعيداً عن الفساد الى ذلك الحين . يُجبر السياسيون ، ليس فقط على التهام برنامج الحزب ، ولكن ايضاً على التظاهر بانهم قديسون لكي يكسبوا رضى المؤيدين المتدينين ، وبالكاد يستطيع اي انسان ان يدخل البرلمان بلا رياء . ليس من مهنة تحترم ذلك الاباء الطبيعي الذي لا يبقى الانسان من دونه كلاً كاملاً . يستحق العالم هذا الإباء بلا رأفة لأنه يعني الاستقلال ، ويرغب الناس في استعباد الآخرين اكثر مما يتمنون ان يكونوا انفسهم أحراراً . الحرية الداخلية ثمينة جداً ولهذا يجب ان نفضل المجتمع الذي يحافظ عليها على كل شيء آخر .

لا يُسحَق بالضرورة اساس النمو في انسان ما حينما يُمنَع من القيام بشيء معين ، ولكن غالباً ما يسحق عندما يُزيَّن له القيام بشيء آخر . الاشياء التي تقضي على النمو هي ذات الاشياء التي تولد شعوراً بالعجز عن السير في الاتجاهات التي ترغب الميول الحيوية في ان تكون فعالة فيها . ان اسوأ الاشياء هي تلك التي توافق (assents) الارادة عليها . غالباً ما تكون ارادة الانسان ، بسبب الجهل الذاتي ، بصورة رئيسية ، في صعيد

اوطى من صعيد ميوله نحو الابداع بينما تتجه ارادته نحو وظيفة تقليدية ذات معاش كاف يكسب معه احترام معاصريه . المثل المشهور هو مثل الفنان الذي ينتج بضاعة رديئة ليرضي الجمهور . ولكن يوجد شيء من التحديدية الظاهرة في ميل الفنان عند كثير من الناس الذين ليسوا بفنانين . لما كان الميل عميقاً وغير فصيح ، ولما كان ما يسمى بالاحساس العام هو غالباً مضاداً له ، ولما كان الفتى لا يقدر ان يتبعه الا اذا كان مستعداً لان يضع شعوره الغامض فوق حكمة الاباء والأصحاب واقوالهم ، فيحدث في تسع وتسعين حالة من مائة ان يُضغَط على الميل الابداعي ، الذي قد تنشأ منه حياة حرة وحيوية ويُكسَر من البداية . يرضى الفتى ان يصبح آلة ليس عاملاً مستقلاً ، مجرد أداة لانجازات الآخرين ، وليس بناءاً لما تحسه طبيعته بانه حسن . وفي اللحظة التي يعطي فيها موافقته ، شيء ما في داخله يموت . لا يمكنه أبداً أنْ يصبح إنساناً كاملاً او أنْ يستعيد احترامه الذاتي السليم ، او إباءه القديم الذي ما كان ليجعله سعيداً في قرارة نفسه ـ رغم ما يمكن ان يلاقي من مشاكل وصعوبات خارجية ـ الا ، حقاً ، من خلال ، ارتداد او تغيير جذري في طريقة حياته .

التحريمات الخارجية التي تسلم بها الارادة هي اقل ضرراً بكثير من المغريات الدقيقة التي تغوي الارادة . قد يسبب فشل قوي في الحب آلاماً مبرحة ، ولكنه لا يسبب في انسان حيوي نفس الضرر الذي يسببه الزواج من اجل المال . ما هو اساسي ليس اشباع هذه او تلك الرغبة . ما هو اساسي هو الاتجاه ، نوع الفعالية المنشودة . عندما تقاوم الارادة الدوافع الاساسية، ترغمها على الشعور باليأس . لم يعد فيها امل قوي لتكون دافعاً . لا يسبب الالزام الخارجي نفس الضرر إلا إذا أدّى الى نفس

الشعور بالعجز ، ولكنه لا يؤدي الى نفس الشعور بالعجز اذا ما كان الميل قوياً وصلباً . لا مفر من مقاومة بعض الرغائب حتى في افضل المجتمعات التي يمكن تصورها ، وذلك لان بعض رغائب الانسان ، اذا لم تُلجَم ، تقود الى التعدي على الآخرين والفتك بهم . ما كان ليُسمَح في مجتمع فاضل لنابوليون باختيار المهنة التي يريد ، ولكان وجد سعادةً كرائد في اميركا الغربية . ما كان ليجد سعادة كموظف في مدينة ، ولا تَفرِض عليه اية جمعية متساهلة ان يصبح موظفاً في مدينة .

يتطلب توحيد حياة الفرد ضم كل ميوله الابداعية ، ويجب ان تكون التربية من النوع الذي يحرّك هذه الميول ويقويها . اما توحيد المجتمع فيتطلب ان تساند الميول الابداعية في مختلف الناس بعضها البعض لتخدم حياة مشتركة او غاية مشتركة ، وليس من الضروري ان تكون واعية ، يجد كل افراد المجتمع فيها معيناً لانجازاتهم الشخصية . تتألف اكثر النشاطات التي تنبع من الميول الحيوية من جزئين : احدهما ابداعي ويمد حياة الفرد ذاته وحياة الآخرين معاً بنمو من ذات نوع الميل والظروف ، والآخر امتلاكي ويعيق حياة جماعة ما بشكل مختلف عن الميل والظروف . ولهذا نجد كثيراً مما هو كثير الحيوية بحد ذاته يعمل على الرغم من هذه الحيوية ، ضد الحياة ، مثلما فعلت الحركة البيوريتانية (التطهرية) في انكلترا في القرن السابع عشر أو كما تفعل القومية في اوروبا في الوقت الحاضر . تقود الحيوية بسهولة الى النزاع والظلم وهكذا الى فقدان الحيوية . وحّدت الحرب ، كما حصل في بدايتها ، حياة الأمة مع بعضها البعض ، ولكنها فصلت حياة العالم عن بعضها البعض ، وستجزيء في المدى البعيد، حياة الامة ايضاً ، فيما اذا كانت صارمة ، كما هي الحرب الحاضرة .

لقد اظهرت الحرب جلياً انه يستحيل تحقيق توحيد مضمون في حياة مجتمع واحد بينما لا تزال تتحكم في علاقات الأمم الاخرى المتحضرة العداوة والريب . لهذا يجب على أية حركة قوية تقوم باصلاح حقيقي ، ان تكون عالمية . يتحتم فشل اية حركة محض قومية ، نتيجة للخوف من الخطر الخارجي . سيضطر اولئك الذين يرغبون في (جعل العالم افضل) تحسين العالم او في اجراء اصلاحات جذرية في اوطانهم ، ان يتعاونوا مع اولئك الذين يُظهرون رغبات مماثلة في الدول الأخرى ، والى صرف كثير من جهودهم في سبيل تخطي تلك العداوة العمياء التي ضاعفت الحرب من حدتها . بالتوحيد الجزئي الذي تحققه القومية ، لا يتم خلق اي امل كبير . المسألة هي الحفاظ في الشؤون القومية والأممية كما في حياة الفرد ، على ما هو ابداعي في الميول الحيوية ، وبنفس الوقت توجيه الجزء الهدّام حالياً نحو وجهات اخرى .

يمكن فصل رغائب وميول الناس الى ما هو ابداعي وما هو امتلاكي . تتجه بعض نشاطاتنا الى خلق ما لا يأتي عن اي طريق اخرى ، بينما يتجه البعض الآخر الى اكتساب ما هو موجود حالياً او الابقاء عليه . الميل الابداعي بصورة نموذجية ، هو ميل الفنان ، والميل الامتلاكي هو ايضاً بصورة نموذجية الميل الى الملكية . ان افضل شكل من الحياة هو ذلك الذي تحتل فيه الميول الابداعية الدور الاكبر بينما لا تحتل الميول الاستملاكية فيه الا دوراً صغيراً . وأفضل المؤسسات هي تلك التي تنتج اكبر قدر ممكن من الابداعية واقل قدر ممكن من الاستملاكية يتوافق مع حفظ الذات . يمكن ان تكون الاستملاكية دفاعية او عدوانية . هي في القانون الجزائي دفاعية وفي المجرمين انفسهم عدوانية . ربما يجدر بنا ان نسلّم بان القانون الجزائي هو اقل استحقاقاً للمقت من المجرم وان

الامتلاكية الدفاعية هي ضرورية طالما توجد هناك امتلاكية عدوانية . ولكن ليس حتى افضل اشكال الامتلاك الدفاعية بحد ذاته جديراً بالاعجاب عملياً ، لانه حالما يصيب نصيباً وافراً من القوة يصبح عدواً للميول الخلاقة . « لا تفكروا قائلين ماذا نأكل ؟ وماذا نشرب ؟ او ماذا نلبس ؟ »اي انسان عرف ميلاً قوياً للابداع يعرف قيمة هذا القول في معناه الحرفي الصحيح : ان الانهماك بالإمتلاك اكثر من كل شيء آخر ، هو ما يمنع الناس من العيش بحرية ونبل . ان الدولة والملكية هما اكبر تجسيدات الامتلاك ، ولهذا هما ضد الحياة ويولّدان الحرب . الامتلاك يعني اخذ او الحفاظ على شيء حسن يحجب التنعم به عن انسان آخر ، بينما الخلق هو ابراز شيء حسن الى الوجود لا يستطيع اي انسان آخر ان يتنعم به عن اية طريقة اخرى . طالما ان البضائع المادية يجب ان يتم توزيعها على السكان ، وطالما ان بعض الناس هم لصوص بطبيعتهم ، توجّب ان تكون هناك املاك يُدافَع عنها وتُنظَّم في مجتمع حسن على اسس من العدالة اللا شخصية . ولكن ليس هذا الا مجرد مقدمة لحياة سعيدة او لمؤسسات سياسية سليمة ، يفوق فيها الابداع الامتلاك وتوجد العدالة التوزيعية فقط كمجرد امر طبيعي غير ممتع .

يفترض ان يكون شعار الانسان المطلق في السياسة وفي الحياة الخاصة معاً هو : لتسهل الطريق امام كل ما هو ابداعي ، وتغلق في وجه كل الميول والرغبات التي تدور حول الامتلاك . الدولة الآن هي الى درجة كبيرة تجسيد للميول الامتلاكية : تحمي في الداخل الأغنياء من الفقراء ، وتستعمل في الخارج قوتها لاستثمار الشعوب الاقل تمدناً ولمزاحمة الدول الأخرى . يهتم نظامنا الاقتصادي كله بشكل خاص بالإمتلاك، على الرغم من ان انتاج البضائع هو شكل من اشكال الابداع ، او ان باستطاعته ،

ما عدا استثناء بعض الحالات حيث يكون العمل فيها ميكانيكياً ورتيباً بشكل غير قابل للتغيير ، ان (يكون منفذاً) يخدم كمنفذ للميول الابداعية ، يمكن عمل الكثير من اجل تحقيق هذه الغاية بوضع منتجي نوع ما من السلع في ديموقراطية مستقلة تخضع لسيطرة الدولة فقط من ناحية تحديد سعر السلعة وليس من ناحية انتاجها .

التربية والزواج والدين هي في الأساس ابداعية ، ولكن قد افسد تدخل الامتلاكية الثلاثة معاً . تعامَل التربية كأداة لتطويل الوضع العام بغرس اهواء بدلاً من خلق فكر حر ومنظار نبيل يقدم مثلاً عن الشعور الكريم ويكون مهمازاً للمغامرة العقلية . يبقى في الزواج الحب ، الذي هو ابداعي ، مُكبَّلاً بسلاسل الغيرة التي هي امتلاكية . وينشغل الدين ، الذي يفترض فيه ان يحرر رؤيا الروح الابداعية ، بكبت حياة الغريزة وبمحاربة طبيعة الفكر الانقلابية . لقد احتل في كل هذه المجالات ، الخوف المتولد عن الامتلاك المتزعزع الاركان ، مكان الأمل الذي توحيه القوة الابداعية . تعتبر الرغبةُ في نهب الآخرين ، نظرياً ، شراً ، ولكن الخوف من الناهبين ليس بافضل ، ومع هذا كله نجد هذين الدافعين يتقاسمان السيطرة على تسعة اعشار السياسة والحياة الخاصة .

الميول الابداعية في مختلف الناس هي في الأساس انسجامية ، إذْ أنَّ ما يبدعه الواحد لا يمكن ان يكون عثرة لما يتمنى انسان آخر ابداعه . أما الميول الامتلاكية فهي ما تؤدي الى المنازعة . على الرغم من ان الميول الابداعية والامتلاكية هي ، سياسياً وأخلاقياً ، متضادة ، فان انقلاب الواحد الى الآخر نفسياً يتم بسهولة وفقاً لعوارض الظروف والمناسبات . يجب دراسة نشأة الميول والأسباب التي تؤدي الى تغيرها ، يجب ان تكون التربية والمؤسسات الاجتماعية في وضع يخولها من تقوية الميول التي تنسجم

فيما بين جماعات مختلفة ، وإضعاف الميـول التي تؤدي الى المنازعـة . انا لا يخالجني شك بان ما يمكن انجازه بهذه الطريقة هو الى حد ما بلا حدود .

ليس من خلال الارادة يمكن ان تَستمِدَّ حياة الافراد وحياة المجموعـة القوة والوحدة في الاتجاه ، وإنما من خلال الميل . الارادة هي من نوعين ، يتجـه الواحـد منها نحـو الخارج والآخـر نحـو الـداخـل . يتـوقف وجـود الأول ، الـذي يتجه نحـو الخارج ، عـلى العقبات الخـارجية ، كمقـاومـة الآخـرين او الصعوبـات التكنيكية في تنفيـذ الأمر ذاتـه . هذا النـوع من الارادة هو تعبير عن الميـل القوي او الـرغبة ويـظهر عنـدما يكـون النجاح الآتي مستحيلاً ، وهو يـوجد في كـل من كانت حيـاته ممتلئة بالحيـوية ولا ينحـل الا عندمـا تضعف قوتهم الحيـوية . فهـو ضروري للنجـاح في أيـة مغامرة صعبة ، ومن دونه تبقى الانجـازات الكبيرة نـادرة . ولكن الارادة المـوجهة داخليـاً تكون ضـرورية فقط بمقـدار ما يكُـون هنالـك من تنازع داخـلي في الميول والـرغائب ـ لا تحتـاج طبيعة تـامـة التـوازن الى منـاسبـة تستخدم فيها ارادة داخلية . ولكن هذا التـوازن التام هـو طبعاً مثـال نادر التحقيق : في كل الناس تبرز ميول لا تتوافق مع غايتهم المركزية ، ولهـذا يجب كبـح هذه الميـول اذا لم تكن حيـاتهم كلهـا لتصـاب بنكسـة . فيمن تكون ميولهم المركزية شديدة القوة ، يكـون هذا النـزاع على اخفـه ، وفي مجتمع يهدف الى الحرية ، بخلاف مجتمعنا الذي يمتلىء بمتعارضات شكليـة أوجدتها مؤسسات متقادمة ورأي عام طاغ ، يكون هذا النزاع ايضـاً قليل الحدوث . ان القوة عـلى اظهار ارادة داخليـة ، عندمـا تدعـو الحاجـة الى ذلك ، يجب ان يحتاج اليها دائماً كل من يتمنى ان تتجسد في حيـاته بعض المقاصد المركزية ، ولكن عندمـا توجـد مؤسسات أفضـل تصبح منـاسبات استخدام الارادة الداخلية غير ضرورية وبلا اهمية تـذكر . يجب ان نسعى

في طلب هـذه النتيجـة بـالحـاح لان الارادة عنـدمـا تكبت الميـول المضـرة عَرضاً ، تُهدر قوةٌ قـد تُصرَف في تخـطي العقبات الخـارجية ، وإذا كـانت الميول المكبوتة قوية وجدِيّة ، فانها تُنقِص فعلياً القوة الحيوية الموجودة . ان حياة مملوءة بالكبت لن تكون على الأرجح حياة غزيرة الحيـوية ، بـل تكون راكدة وبلا حمية . يموت الميل عندما يقاوم بـاستمرار ، واذا لم يمت ، فمن الممكن أن يحيا في الخفاء ثم ينبعث بشكـل اسوأ من شكله السـابق . لهذا يجب تفادي ضرورة استخدام الارادة الداخلية بقدر المستـطاع ، ويجب ان تستمد الاستقامة المستمرة في الفعـل من دوام الاستقامـة في الميل بـدلاً من ضغط الارادة على الميل .

يجب ان لا يَطلُب توحيد الحياة إخضاعَ الرغـائب الفرعيـة التي تؤدي الى اللهو واللعب ، بل على العكس ، يجب القيام بكل شيء لتسهيل مزج المقـاصد الـرئيسية في الحيـاة مع كـل انواع اللذة التي هي في طبيعتهـا غير مضرّة . فاشياء كالسُكْر يومياً والمخدرات والألعـاب الريـاضية الصـارمة ، ولذة ايلام الآخرين هي كلها بطبيعتها مضرّة، ولكن اكثر انواع اللهو التي يتمتع بها الناس المتحضرون هي عـادة اما غـير مضرة عـلى الاطلاق او ان ضررها عرضي فقط من خلال بعض التأثيرات التي يمكن تجنبها في مجتمع افضل . ان ما هو مطلوب ليس التقشف ولا البيـوريتانيـة الكئيبة ، ولكن قدرة للميول والرغائب القومية موجهة نحو غايـات كبيرة خـلاقة . عنـدما تكون هذه الميول والرغائب حيوية ، فانها تجلب معها تلقائياً ، كل ما يلزم لتكوين حياة فاضلة .

ولكن على الرغم من ان اللهو والمغامـرة يجب ان يكون لهـما حصة في تكـوين حياة فـاضلة ، فمن المستحيل تكـوينهـا فيـها اذا كـانـا همـا الشيء المـرغوب فيـه بشكل رئيسي . تجعـل الذاتيـة ، وهي عادةً تـوجيـه الفكـر

والرغبة الى حالاتنا النفسية ، بدلاً من توجيهها الى شيء موضوعي ، الحياة حتمياً مجزأة وغير تقدمية . يميل الانسان الذي يجعل اللهو غاية حياته الى ان يفقد تدريجياً اهتمامه في الأشياء التي اعتاد على الأستمتاع بها ، لانه لا يقيم وزناً لهذه الأشياء من اجل ذاتها وإنما من اجل الأحاسيس التي تثيرها فيه . عندما تفقد هذه الاشياء متعتها ، يدفعه الضجر للتفتيش عن محرّك جديد ، ولكن هذا بدوره ايضاً سيخيّب أمله . تتألف المتعة من سلسلة من اللحظات دون أي استمرار أساسي فيها . ولكن يتطلب الهدف الذي يوحّد الحياة بعض النشاط المستمر ، اذ ان هذا الهدف يشابه نصباً تذكارياً وليس قلعة بينها الاطفال على الرمال .

تظهر الذاتية في اشكال اخرى بالاضافة الى مجرد السعي وراء المتعة . يهتم كثير من الناس ، عندما يحبون ، بعواطفهم اكثر من اهتمامهم بموضوع حبهم ، ولكن حباً كهذا لا يقود الى اي اتحاد جوهري ، وإنما يترك الانفصالية الأساسية غير منقوصة . حالما تفقد العواطف كثيراً من بريقها ، تكون التجربة قد بلغت غايتها ولم يعد هناك اي دافع لتطويلها . بكلام آخر ، ان شرور الذاتية نفسها قد عززها المذهب البروتستانتي واخلاقه ، اذ انه وجّه الإنتباه شطر الخطيئة وحالة الروح بدلاً من ان يوجهه نحو العالم الخارجي وعلاقاته بنا . لا يستطيع اي شكل من هذه الاشكال الذاتية ان يمنع حياة الانسان من ان تكون متقطعة ومنعزلة . لا يمكن ان تكون الحياة كلاً وافياً أو أنْ تتّحد إتحاداً وثيقاً بحياة الآخرين ، الا اذا كانت تنبع من ميول قوية موجهة نحو غايات موضوعية .

ان طلب اللذة واتباع الفضيلة يعانيان من الذاتية على حد سواء. ان الابيقورية والرواقية قد وقعتا في الغلطة نفسها . ليس مرقص اوريليوس بصورة جذابة في اصدار قوانين صالحة حتى يسمى فاضلاً .

الذاتية هي نتيجة طبيعية لحياة يكون فيها الفكر اكثر من الفعل : تبدو الاشياء الخارجية عندما نتذكرها او نرغب فيها ، دون ان نختبرها اختباراً فعلياً ، كأنها مجرد افكار . يصبح السؤال عن ماهية هذه الاشياء بحد ذاتها اقل اهمية من التأثيرات التي تولدها في عقلنا . يبدو ان هذه النتيجة تنتج من جراء تزايد الحضارة ، اذ ان تزايد الحضارة يُنقِص باستمرار الحاجةَ الى الفعل الصريح وينمّي فرص التفكير . ولكن لن يقود الفكر الى نتيجة سيئة كهذه فيما لو كان فكراً فعّالاً موجّهاً نحو انجاز غاية معينة ، ما يقود الى الذاتية انما هو الفكر الخامل فقط . ما نحتاج اليه هو ترك الفكر يتّحِد إتحاداً وثيقاً بالميول والرغائب حتى نجعله دائماً نشاطاً ذا هدف موضوعي ، وإلا أصبح الفكر والميل عدوين لسوء مصير كليهما والخسارة كبيرة فيهما معاً .

حتى نجعل حياة الانسان العادي أقل تقطعاً وانفصالاً ونعطي مجالاً اوسع لتحقيق الميول الابداعية ، لا يكفي ان نعرف الهدف الذي نريد ان نبلغه او ان ننادي بتسامٍ ما نريد انجازه . من الضروري ان نفهم تأثير المؤسسات في المعتقدات وحياة الميول ونكتشف طرقاً لتحسين هذا التأثير باجراء تغييرات مناسبة في المؤسسات . وحتى عندما ننجز هذا العمل العقلي ، سوف يبقى فكرنا عقيماً الا إذا استطعنا تعليقه بقوة سياسية كبيرة . والقوة السياسية الكبيرة الوحيدة التي يتوقع منها اية مساعدة في اجراء هذه التغييرات المناسبة هي القوة العمالية . والتغييرات المطلوبة هي الى درجة كبيرة التغييرات عينها التي يُنتظر من القوة العمالية ان ترحب بها ، وخاصة خلال الفترة الصعبة التي ستلي الحرب . سيكون انتشار تشكي العمال في كل اوروبا أكيداً وسيكون قوة سياسية يحصل عن طريقها تغيير كبير وشامل في بنية المجتمع .

يحتاج العالم المتحضر ، لكي ينجو من الانهيار ، الى تغيير جذري ، تغيير في بنيته الاقتصادية وفي فلسفته في الحياة . يجب ان لا يقعد من كان يشعر منا بالحاجة الى التغيير عن الحركة في يأس بليد . نحن نستطيع ، اذا اردنا ، ان نؤثّر تأثيراً عميقاً في المستقبل . نحن نستطيع اكتشاف شكل التغيير المطلوب والتبشير به ـ الشكل الذي يحفظ ما هو ايجابي في معتقدات عصرنا الحيوية ، ويتخلّص مما هو سلبي وغير اساسي منتجاً وحدة تلقى دعماً من كل العناصر غير الرجعية . وحالما يتضح لنا اي شكل من التغيير هو المطلوب ، سيصبح من الممكن تحديد اجزائه بتفصيل اكثر . ولكن الى ان تنتهي الحرب ، لا جدوى في صرف الوقت على التفاصيل ، لأننا لا نعرف ما هو شكل العالم الذي ستخلفه الحرب . الشيء الوحيد الذي يبدو محتماً ، هو ان كثيراً من الفكر الجديد سيدخل حتمياً في اعادة بناء العالم الذي تخلفه الحرب . لن تكون النظرات التقليدية مجدية . من الواضح ان الكثرة من افعال الانسان الهامة لا تقودها تلك الدوافع التي تشدد عليها الفلسفة السياسية التقليدية . تأتي الميول التي أدّت الى نشوب الحرب وتعهدتها بالرعاية ، من صعيد ابعد مما تشير اليه اكثر المدارس السياسية . اما الحجة السياسية ومقاومة الحرب من جانب القلة التي قاومتها فهي تأتي من ذلك الصعيد العميق نفسه . ان كان لنظريةٍ سياسية ان تَثبُتَ في اوقات الشدة ، وجب ان تؤخذ بعين الاعتبار الميول التي تقف وراء الفكر العلني . يفترض فيها ان تحاكي هذه الميول وان تكتشف الوسائل التي تجعلها مثمرة غير هدّامة .

للأنظمة الاقتصادية تأثير كبير في بناء الحياة أو هدمها . باستثناء العبودية ، فالنظام الصناعي الحالي هو من أكثر الانظمة هدماً للحياة ، الذي عرفه العالم على الاطلاق . يستحيل استئصال الآلية والانتاج باعداد

كبيرة ، ومن الواجب ان يبقيا في اي نظام افضل يمكن ان يحل محل النظام الـذي نعيش فيه الآن . لـربما تكـون الديمـوقراطية الفيدراليـة التصنيعيـة افضل اتجاه يجب ان يأخذه الاصلاح .

للنظرات الفلسفية في الحيـاة ايضاً ، عنـدما يكـون الايمان بهـا واسع الانتشـار ، تأثـير كبير في حيـوية المجمـوعة . اكـثر الفلسفـات انتشـاراً في الـوقت الحاضر هي : ان اهم الاشيـاء لسعـادة الانسـان معـاشـه . هـذه الفلسفة بصرف النظر عن مساوئها الأخرى ، هي مضرة لانها تقود الناس الى السعي وراء النتيجة بدلاً من النشاط كله ، نحو الاستمتـاع بالبضـائع المـادية حيث لا يختلف انسـان عن آخر ، بـدلاً من اشباع الميـل الابداعي الذي يجسد فردية كل انسان . الفلسفات الاكثر دقة ، كتلك التي تغرسها التربية الاكثر تسامياً ، هي شديـدة الاسراع في تـركيز الانتبـاه في الماضي عـوضاً عن المستقبـل وعلى التصـرف الصحيح عـوضاً عن الفعـل المثمر . ليس من خلال هذه الفلسفات يستطيع الانسان ان يجـد الطاقـة على حمـل ثقل التقليد بخفة وعلى تحصل المعرفة .

العالم هو بحاجة الى فلسفة او دين ينمي الحياة . ولكن من اجل انماء الحياة من الضروري اعطاء قيمة للآخر غـير مجرد الحيـاة . الحياة المـوجهة نحو العيش فقط هي الحيوان ، هي حياة بلا ايـة قيمة انسـانية حقيقيـة ، حياة عاجزة عن حفظ الانسان دائماً من التعب ومن الشعور بـان كل شيء باطل . اذا كان للحياة ان تكون إنسانية كلياً ، وجب ان تخدم غايـة تبدو بمعنى من المعاني خارج نطاق الانسان ، غـاية مـا هي غير شخصيـة وفوق البشـرية ، كـالله او الحقيقة او الجمـال . ان اولئك الـذين يخدمـون تقدم الحيـاة على افضـل وجه ممكن ، لا تكـون الحيـاة غـايتهم . انهم يسعـون بـالأحرى الى مـا يبدو كـأنه تجسيـد تدريجي ، بَثّ شيءٍ خـالد في الـوجود

الانسـاني ، شيء يظهـر للمخيلة كـأنـه يعيش في سماء بعيـدة عن النـزاع والفشل ومخالب الزمن الفتّاك . ان الاحتكاك بهذا العالم الخالد ـ وحتى ولو كـان عالماً من تصور المخيلة فقط ـ يبعث قـوة وطمـأنينـة هـادئـة لا يمكن القضاء عليها بالمنازعات والخسائر الظاهـرة في حياتنـا غير الـدائمة . هـذا التأمل السعيد بما هو خالد ، هو ما يسميه سبينوزا بالحب العقـلي لله . ان هذا الحب لمن عرفه ولو مرّة واحدة ، هو مفتاح الحكمة .

مـا يجب ان نفعله يختلف عملياً من واحـد الى آخـر ويتـوقف عـلى طاقات كل منا وفرحه . ولكن اذا كانت حياة الروح فعالة فينا ، سيتضح لنا ماذا يجب ان نفعل وماذا يجب ان يتجنب .

بالاحتكاك مع ما هو خالد، وبوقف حياتنا على غرس شيء مما هو الهي في هذا العالم المضطرب، يمكننا ان نجعل حياتنا ابداعية حتى في هذه الأيام وسط القسـوة والجهـاد والكـراهيـة التي تحيط بنـا من كـل جـانب. ان جعل حياة الفرد ابداعية هو اصعب بكثير في مجتمع مبني على غريزة الامتـلاك من ذلك المجتمع الـذي يمكن للجهود البشـرية ان تبنيـه في المستقبل . ان اولئـك الذين يبـدأون في بناء العـالم ، يجب ان يكونـوا مستعدين لمـواجهة العزلة ، والمقاومة ، والفقراء ، والاضطهاد . يجب ان يكون بمقدورهم ان يعيشـوا بالحقيقـة والحب متحلّين بأمـل عقلي لا يقهـر ، يجب ان يكـونـوا صادقين وحكماء ، غير ضعيفي العزيمة ، يرشدهم هدف مستقيم منطقياً . يمكن لمجموعة من الناس تعمل بهدي هذا الهـدف أنْ تنتصر ـ أولاً ، على الصعـوبـات ومـواطن الضعـف في حيـاتهم الشخصيـة ، ومن ثم ، مـع الزمن ، رغم طول هذا الزمن ، العالم الخارجي . ما يحتاج اليه العالم هـو الحكمة والأمل ، وعـلى الرغم من انـه يحاربهـما ، ففي النهايـة سيؤدي لهما الاحترام .

عندما فتك القوط بروما ، كتب القديس اغسطينوس « مدينة الله » واضعاً املاً روحياً مكان الحقيقة المادية التي تم تحطيمها وعاش امل القديس اغسطينوس خلال العصور اللاحقة واعطى حياة ، بينما نزلت روما الى مستوى قرية صغيرة لجماعة منكوبة . من الضروري بالنسبة لنا نحن ان نخلق أملاً جديداً لنبني بتفكيرنا عالماً افضل من هذا الذي يدفع نفسه الى الخراب . ولان الوقت سيء الآن ، يُطلب منا اكثر مما يطلب في الأوقات العادية . لا يمكن ان تنقذ الاجيال القادمة من الموت النازل بهذا الجيل الذي نعرف ونحب ، الا نارٌ متأججة من الفكر والروح .

كان من حسن حظي ان اصبت احتكاكاً ، كمعلم ، بشبان من دول متعددة ـ شبان كان يعيش فيهم الأمل وتغلي في داخلهم الطاقة الابداعية التي كان بامكانها ان تحقق في العالم على اقل تعديل جزءاً من الجمال الخيالي الذي عاشوا فيه . لقد جرفتهم الحرب ، البعض من هذه الجهة والبعض من الجهة الأخرى . بعضهم لا يزال يحارب ، وبعض تشوّه لمدى الحياة ، وبعض آخر أصبح في عالم الموت . من هؤلاء الذين سيبقون على قيد الحياة ، يُخشى ان يكون الكثير منهم قد فقد حياة الروح ، ان يكون الأمل قد مات والطاقة قد هُدِرت وما السنون الآتية الا مجرد رحلة شاقة الى المثوى الأخير . لم يبدر ، رغم كل هذه المآسي ، ولو من جماعة قليلة من المعلمين اي اثر من الشعور . لقد برهنوا بمنطق لا يعرف الرحمة على ان التضحية باولئك الشبان قد جرت بشكل لا مفر منه ، ومن اجل غاية مجرّدة وباردة ، ولمّا كان لا يلحقهم أي اذى ، فانهم يغرقون بسرعة بعد اي هجوم وقتي على مشاعرهم ، في راحتهم المعهودة . لقد ماتت حياة الروح فى رجال كهؤلاء . ولو انها كانت حية ، لكانت اسرعت للقاء روح الشباب بحب منعطف كحب الاب والأم . لكانت تناست حدود

الذات ، ولكانت جعلت مأساة الشباب مأساتها . ولكان شيء فيهم قد صاح : « كلا هذا غير حق ، هذا غير حسن ، هذا الذي يُقتَل فيه بهاء الشباب ويداس فيه ذكاؤهم ليس لسبب مقدس . من ارتكب الخطيئة هو نحن ، الكبار ، نحن قد ارسلنا هؤلاء الشبان الى المعركة بسبب شهواتنا الشريرة وموتنا الروحي وفشلنا لان نحيا بكرامة في دفء القلب ورؤية الروح الحية . فلنصعد نحن من هذا الموت ، لاننا نحن الموتى وليس الشبان الذين يموتون نتيجة خوفنا من الحياة . حتى اشباحهم فيها حياة اكثر مما فينا ، انهم يجعلونا عاراً وتهمة لكل الاجيال الآتية . من ارواحهم ستخرج الحياة ، اما نحن فيجب ان يصمونا بالعار » .

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	5
توطئة	10
الفصل الاول : عنصر النمو	11
الفصل الثاني : الدولة	39
الفصل الثالث : الحرب كمؤسسة	65
الفصل الرابع : الملكية	93
الفصل الخامس : التربية	117
الفصل السادس : الزواج ومسألة السكان	137
الفصل السابع : الدين والكنيسة	161
الفصل الثامن : ماذا نستطيع ان نعمل	181

هذا الكتاب

يدرس راسل السياسة الدولية كما شهدها إبّان الحرب العالمية الأولى ويخلص إلى استنتاجات هامة يُفترض بكل إنسان معاصر أن يطلع عليها ويناقشها. وهذا ما يجب على القارىء استخلاصه. ولكن، يجب ذكر النتيجة الأكثر أهمية التي توصل إليها راسل وهي أن الانسان كائن نام، كالنبات، والمؤسسات الاجتماعية، سياسية كانت أم تربوية أم دينية، يفترض بها أن تفسح مجال النمو أمام الإنسان لا أنْ تعيقه. وأساس هذا النمو هو أساس شخصي فردي. لكل إنسان ميزته الخاصة في النمو ولا ينتظر من المؤسسات السياسية وبشكل خاص من الدولة أنْ تحدّد تلك الميزة الشخصية أو أن تعيقها أو أن تفرض على الأفراد نمطاً موحّداً من النمو. ويحث هذا الاستنتاج وتحليله وتبريره هو شريط فكري رائع مبني على حجج وبراهين عقلية وعلمية تجعل الكتاب رائعة فكرية يطيب للقارىء ذي الميل النقدي الاستمتاعُ بها ومناقشتها.

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع